عرفانُ العقول وشهود القلوب

محاضرات ولائية لمجالس العزاء

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

الرويس – مفرق محلات محفوظ ستورز – بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

عرفانُ العقول
وشهود القلوب

محاضرات ولائية لمجالس العزاء

الشيخ محمد مهدي قازان

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى مَن لولاهم لمَا كانَ إسلام...

إلى مَن لولاهم لمَا كانَ إيمان...

إلى رجالِ اللهِ الذين لم تُلهِهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكرِ الله...

إلى أقطاب عالمِ الإمكانِ والغيبِ والشّهود...

إلى السّادَةِ العِظامِ:

عبد المطّلِب بن هاشم بن عبد مناف عليه السلام

عبدالله بن عبد المطّلِب عليه السلام

السيّدة آمنة بنت وهب عليها السلام

عمران بن عبد المطّلِب (أبو طالب عليه السلام)

السيّدة فاطمة بنت أسد عليها السلام

الحمزة بن عبد المطّلِب عليه السلام

عقيل بن أبي طالب عليه السلام

جعفر الطيّار بن أبي طالب عليه السلام

السيّدة فاختة بنت أبي طالب (أم هاني عليها السلام)

السيّدة جمانة بنت أبي طالب عليها السلام

أُهدِي هذا الكتاب، راجيًا من الله سبحانه ومنهم أحسنَ القَبول.

مقدّمة الكتاب

قال أبو عبدالله الحسين عليه السلام: «أيُّها الناس، إنّ اللهَ جلّ ذِكْرُه ما خَلَقَ العبادَ إلا لِيَعرِفوه، فإذا عَرَفوه عبدوه، فإذا عَبَدوه استَغْنَوا بعبادتِه عن عبادةِ مَن سواه. فقال له رجلٌ: يابن رسول الله، بأبي أنت وأمي، فما معرفةُ الله؟ قال: معرفةُ أهلِ كلِّ زمانٍ إمامَهم الذي يجبُ عليهم طاعته»[1]. فالعبوديّة كما تبيَّنَ هي فرعُ المعرفةِ والطريقُ الوحيدُ إلى معرفةِ الله عزّ وجلّ، كما دلَّت عليه النّصوص، هو المعرفةُ الحقيقيةُ بالإمام المعصوم وفَهْمُ حقيقةِ الولايةِ ومعناها. سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن المعنى من قولِ «الله أكبر»، فقال عليه السلام: «الله أكبر من أنْ يُوصف»[2]، «حتّى بوصْفِ خاتمِ الأنبياءِ صلى الله عليه وآله ووصْفِ أمير المؤمنين عليه السلام»، كما يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى. فالذاتُ الربوبيّة «هي في عَمَاءٍ وبُطون وغيبٍ وكُمُون لا اسم لها في عوالمِ الذكر الحكيم، ولا رَسْم، ولا أثَر لحقيقتِها المقدّسةِ في المُلك والملكوت، ولا وَسْم؛ منقطعٌ عنها آمالُ العارفين، وتزلُّ لدى سرادقاتِ

---

(١) علل الشرائع، ج١ ص٩.

(٢) عليّ بن محمّد، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عمّن ذكره، عن أبي عبدالله عليه السلام: «قال: قالَ رجلٌ عنده: الله أكبر. فقال: الله أكبر من أيّ شيء؟ فقال: من كلّ شيء. فقال أبو عبدالله عليه السلام: حدَّدْتَه! فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: قل: الله أكبر مِن أن يوصف»، الكافي، ج١ ص١١٧.

جلالِها أقدامُ السالكين، محجوبٌ عن ساحةِ قدسِها قلوبُ الأولياء والكاملين، غير معروفةٍ لأحدٍ من الأنبياء والمُرسَلين، ولا معبودةٌ لأحدٍ من العابدين والسّالكين الرّاشدين، ولا مقصودةٌ لأصحابِ المعرفةِ من المكاشفين»[١]. ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الوصولَ إنّما يكون إلى معرفةِ الله، ومعرفةُ الله غيرُ الله... إنّ الفاصِلَةَ بين معرفةِ الله والله هي الفاصلةُ بين العدمِ والوجود». وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إسمُ الله غير الله، وكلُّ شيءٍ وقعَ عليه اسمُ شيءٍ فهو مخلوق ما خلا الله»[٢]. إذًا، نستنتجُ ممّا تقدَّمَ أنّ الطريقَ إلى معرفةِ ذاتِ الله مسدودٌ، وأقصى ما يمكن أن يَصِلَ إليه الإنسانُ هو اسم الله، واسم الله هو الإمام، حيث يقول الإمام الحسين عليه السلام: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملًا إلا بمعرفتنا»[٣].

إذًا، معرفةُ الله تعالى هي معرفةُ أهلِ كلِّ زمانٍ إمامَهم الذي يجبُ عليهم طاعتُه، كما مرَّ معنا، ولا تتمُ معرفةُ الإمام إلا بمعرفةِ رواياتِه وأحاديثِه والتفقّهِ فيها، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «حديثٌ تدريه خيرٌ من ألفٍ تَرْويه، ولا يكون الرَّجلُ منكم فقيهًا حتّى يعرِفَ معاريضَ كلامِنا»[٤]. وإنّ «قيمةُ كلِّ امرئٍ وقَدْرُه معرفتُه»[٥]، وبالتالي، فمقامُ الشيعيّ الموالي يُعلَمُ بقدرِ معرفتِه ودِرَايتِه بكلامِ أهلِ البيتِ عليهم السلام.

وكلامُهم عليهم السلام له ظاهرٌ وباطنٌ وسرٌّ وخفيٌّ وأخفى فكما قال أبو عبدالله الصّادق عليه السلام: «وإنّ الكلمةَ من كلامِنا لتنصرفُ على سبعين وجهًا لنا من

(١) مصباح الهداية، ص١٦.
(٢) الكافي، ج١ ص١٩٢.
(٣) الكافي، ج١ ص١٤٤.
(٤) بحار الأنوار، ج٢ص١٨٤ ح٥.
(٥) الكافي، ج١ ص٥٠.

جميعِها المخرج»[١]. وكما أنّ القرآن الكريم أُنزِلَ على أربعةِ أشياء، فكذلك كلامُهم لأنّهم القرآن الناطق، إذ يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «كتابُ الله عزّ وجلّ على أربعةِ أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارةُ للعوامّ، والإشارةُ للخواصّ، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»[٢]، فليس الكلُّ سواسيةً في الفهم والإدراك، إذ كلٌّ يفهم ويُدرِكُ ويعرف ويفقه بحسبِ سعتِه وقابليّتِه وولايتِه وبراءته، وهذا الواقعُ يحفظُ الدّينَ والعقيدةَ من الإفراطِ والتفريطِ والإنكار والتكذيب والاستهزاء. وإنّ الناسَ لأصنافٌ في معرفتهم واعتقادِهم بمحمّد وآل محمّد صلى الله عليه وآله:

أولًا: قسمٌ اتخذوا طريقَ الإفراطِ والارتفاعِ في حقِّهم وقالوا بتفويضِ الأمورِ إليهم على نحوِ الاستقلال، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «... وأما المرتفعةُ هم الذين يرتفعون بمحبّتنا وولايتنا أهل البيت وأظهروه بغيرِ حقيقةٍ وليس هم منا ولا نحن منهم ولا أئمتهم، أولئك يُعَذَّبون بعذابِ الأمم الطاغية، حتى لا يبقى نوعٌ من العذابِ إلا عُذِّبوا به»[٣].

ثانيًا: قِسْمٌ سلكوا مَسْلَكَ أهلِ التّفريط، وهم المقصّرة، وأنكروا كثيرًا من الفضائلِ والمعاجزِ وأزالوا الأئمةَ عن المراتبِ التي رتّبَهم الله فيها وقاسوهم بأنفسهم وزعموا أنّهم بشرٌ كسائرِ البشر، ويقول الإمام الصادق عليه السلام عن هؤلاء: «المقصّرةُ الذين هداهم الله إلى فَضْلِ عِلْمِنا، وأَفْضَيْنا إليهم بِسِرّنا، فشكّوا فينا وأنكروا فضلَنا وقالوا: لم يكن الله لِيُعْطِيَهم سلطانَه وقدرتَه»[٤]، وفي روايةٍ عن جابر وهو يُحَدِّث الإمام

(١) بحار الأنوار، ج٢ ص١٨٤.
(٢) ميزان الحكمة، ج٣ ص٢٥٣١.
(٣) الهداية الكبرى، ص٤٣١.
(٤) صحيفة الأبرار، ج٢ ص٥١٧.

الباقر عليه السلام: «قلتُ: يا بن رسول الله ومَن المقَصِّر؟ قال: الذين قصّروا في معرفةِ الأئمةِ وعن معرفةِ ما فرضَ الله عليهم من أمره وروحه، قلت: يا سيدي، وما معرفةُ روحِه؟ قال عليه السلام: أن يعرفَ كلَّ مَن خصَّه الله تعالى بالروح فقد فوضَ إليه أمرَه يخلقُ بإذنه ويحيي بإذنه ويعلمُ الغيرَ ما في الضمائر ويعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وذلك أنّ هذا الروحَ من أمْرِ اللهِ تعالى، فمَن خصّه اللهُ تعالى بهذا الرّوح فهذا كاملٌ غيرُ ناقصٍ يفعلُ ما يشاء بإذن الله، يسيرُ من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، يعرجُ به إلى السماء وينزل به إلى الأرض ويفعل ما شاء وأراد»[1].

فحين يسمع المقصّرُ والمُبغضُ لأهلِ البيت عليهم السلام صفاتِهم العظيمةَ ومقاماتِهم وكراماتِهم التي خصَّهم الله تعالى بها، يُنكرُ ذلك عليهم ويتّهمُهم، والعياذ بالله، بالسّحرِ والادّعاء، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾[2]. وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «إني لأكتُمُ من علمي جواهرَه كي لا يرى الحقَ ذو جهلٍ فيُفتتَنا، وقد تقدَّمَ في هذا أبو حسنٍ إلى الحسين ووصّى قبلَه الحَسَنَا».

ثالثًا: قسمٌ استقرّوا على النمطِ الوسطِ والجادّةِ الوسطى ووقفُوا في معرفةِ أئمّتِهم على ما صدَرَ منهم ولم يتعدّوا طورَهم، والشيعيُ الذي يحملُ هذه الصّفةَ يُسمّيه الإمام «التالي»، فيقول: «هم أخيارُ شيعتِنا، القائلين بِفَضْلِنا، المُسْتَمْسِكين بحبلِ الله وحَبْلِنا، الذين يزدادون بفضلِنا علمًا وإذا وردَ على أحدِهم خبرٌ قبِلَه وعملَ به ولم يَشُكَّ فيه، فإنْ لم يُطِقْه رَدَّه إلينا ولم يَرُدَّ علينا، فذلك هو التالي»[3].

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٦ ص١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة سبأ، آية ٤٣.

(٣) الهداية الكبرى، ص٤٣١.

رابعًا: المغالي، ويقول الإمام الصادق عليه السلام في وَصْفِه: «إحذروا على شبابِكم الغُلاة لا يُفسدونهم، فإنّ الغُلاةَ شرُّ خلقِ الله، يُصغِّرون عَظَمةَ الله، ويدّعون الرّبوبيةَ لعباد الله، والله إنّ الغُلاةَ شرٌّ من اليهود والنّصارى والمجوس والذين أشركوا... لأنّ الغالي قد اعتادَ تَرْكَ الصّلاةِ والزكاةِ والصيامِ والحجِّ فلا يقدرُ على تركِ عادتِه وعلى الرّجوعِ إلى طاعةِ الله عزّ وجلّ أبدًا...»[1]. وكما يبيّنُ الإمام الصادق عليه السلام فإنّ الغلوَّ من حيثُ العقيدةِ هو جَعْلُ البعضِ أربابًا من دون الله، ومن حيثُ الفقه هو تَرْكُ الشّريعةِ والعبادات. ومن ناحيةٍ أخرى، يقدّم الإمام الصادق عليه السلام تعريفًا آخر للمغالين فيقول عليه السلام ردًّا على أحدِ أصحابِه ويُدعى المفضّل بن عمر: «وأما الغالي فليس فقد اتخذَنا أربابًا من دون الله وإنما اقتدى بقولنا إذ جعلونا عبيدًا مربوبين مرزوقين، فقولوا بفضلِنا ما شئتم فلن تدركوه. قال المفضّل: يا مولاي، إنّ الغالي مَن ذكرَ أنّكم أربابًا عند الشيعة من دون الله؟ قال: ويحك يا مفضّل، ما قال أحدٌ فينا إلا عبد الله بن سبأ وأصحابه العشرة الذين حَرَقَهُم أميرُ المؤمنين عليه السلام في النّارِ بالكوفة ومَوْضِعُ إحراقِهم يُعْرَفُ بصحراء الأخدود وكذا عذّبهم أميرُ المؤمنين بعذابِ الله وهو النّار عاجلًا وهي لهم آجلًا»[2].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «الغالي في محبتِنا نردُّه إلينا ويثبتُ ويستجيبُ ويرجع، والمقصّرُ ندعوه إلى اللّحاقِ والإقرارِ بما فضّلَنا الله به فلا يثبتُ ولا يستجيبُ ولا يرجعُ ولا يلحق بنا»[3].

وهناك أسبابٌ عدّة تجعل الناسَ يُنكرون ويكذّبون ويشكّكون أو يترددون في مقاماتِ محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، إذ قد ينكرُ

(١) أمالي الطوسي، ص٦٥٠.
(٢) الهداية الكبرى، ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٣) الهداية الكبرى، ص٤٣٢؛ صحيفة الأبرار، ج٢ ص٥١٧.

البعضُ لخبَاثةِ سرِّه وظلمةِ قلبِه واجترائِه الذنوب، فعن رسول الله ﷺ: «مَن قارف ذنبًا فارقَه عقلٌ لا يرجعُ إليه أبدًا»[١]، وعندها يصبحُ عقلُه ضعيفًا وناقصًا فلا يقوى على تقبُّلِ الحقائقِ ويبقى جاهلًا بها، ولهذا يقول إن عقلَه لا يقبلُ بهكذا روايات أو مقامات لأهلِ البيت عليهم السلام، وقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنّ دينَ الله عزّ وجلّ لا يصابُ بالعقولِ الناقصةِ والآراءِ الباطلةِ والمقاييسِ الفاسدة...»[٢]. ومنهم مَن يُنكرُ لأن نطفتَه عُقِدَتْ من حرام، حيث قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: «لا يبغضُكَ إلا منافقٌ أو ولدُ زنية أو حملَتْه أمُّه وهي طامث»[٣]. ومنهم مَن يُنكرُ بسببِ العجز، فالبعضُ حين يعجزُ عن معرفةِ هذه المقاماتِ العالية، يُنكرُها بدل أن يعترفَ بعجزِه، وهذا راجعٌ إلى الكِبَرِ المكنونِ في ذاته. ومِن الناسِ مَن يُنكرُ حسدًا وبغضًا بسببِ الإنيّةِ والأنانيّةِ والرغبةِ في أن يُنازِعَ محمّدًا وآلَ محمّد مقامَهم الذي اختصَّهم اللهُ به، وهؤلاء ممَّن قال الله تعالى عنهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٤]، «وإنّما دعاهم إلى الإنكارِ الجهلُ والحسد... لأنّ هذه النفسَ الإنسانيةَ هي التي تحبُّ أن تُعبَدَ من دون الله تعالى وأن لا ترى الفخرَ والسُّؤدَدَ إلا لها، وأن ترى الكلَّ عبيدًا لها، لأنّها سلسلةُ الشيطانِ التي بها يتدلّى إلى هذا الحرم الربّاني، وإليها الإشارةُ بقوله «وأجريْتَه مجرى الدمِ مني»، ولذلك قال عليه السلام: «أعْدى عدوِّك نفسك التي بين جنبَيْك»... ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، فإنّها لا تدركُ مقاماتها إلا بالقهر»[٥]. ومنهم مَن يؤمنُ ببعضِ الكتاب ويكفرُ ببعض ومَن أنكرَ حرفًا

---

(١) ميزان الحكمة، ج٢ ص٩٨٧.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، ص٣٢٤.

(٣) علل الشرائع، ص٥٩.

(٤) سورة النحل، آية ٨٣.

(٥) مشارق أنوار اليقين، ص٧٣.

من الكتاب لم يكن مؤمنًا، ومَن أنكرَ حرفًا من أقوالِهم أو ردَّ حديثًا من أحاديثِهم أو شكَّ بشيءٍ من أمرِهم أو استعظمَ سرًا من أسرارِهم فقد أنكرَ الكلَّ لأنهم هم كتابُ الله الناطق. والإنكارُ من أخطرِ مكائدِ الشيطان، فعن رسول الله ﷺ أنّ إبليس لعنه الله جالَ في الأرضِ فَرِحًا يومَ عاشوراء وهو يقول: «يا معاشرَ الشياطين، قد أدْرَكْنا من ذريّة آدم الطَّلِبَة وبَلَغْنا في هلاكِهم الغايةَ وأوْرَثْناهم النّارَ إلا مَن اعتَصَمَ بهذه العصابة، فاجعلوا شُغْلَكم بتشكيكِ الناسِ فيهم وحَمْلِهم على عَدَاوَتِهم وإغْرائِهم بهم وأوليائهم حتى تستحكم [ـ وا] ضلالةَ الخَلْقِ وكُفْرِهم، ولا ينجو منهم ناجٍ...»[1].

هذا من جهة الناس، أما من جهة أهلِ البيت عليهم السلام، فكانوا يَلْحَظون عدّةَ أمورٍ في حديثِهم، كمُداراةِ ظرفيّةِ المُتَلقّي وزمانِ الكلامِ والسّلطانِ الحاكمِ والتقيّة، التي مرّةً يستخدمُها الإمامُ تبعًا لظرفيّةِ المتحدِّثِ معه ومرةً أخرى تبعًا للزمان والسّلطان، إضافةً إلى لحْظِ طبيعةِ السؤال المطروح. إذًا، يتكلّم الإمام عليه السلام بحسبِ قابليّةِ السّامعِ وظرفيّتِه وقدْرِ احتمالِه، على قاعدةِ «أُمِرنا أن نُكَلِّمَ الناسَ على قَدْرِ عقولهم»، فقد يجيبُ شخصين بإجابتين مختلفتين تبعًا لقابليّةِ وسعةِ كلٍ منهما ومرتبتِهما الفكريّة والمعنوية. وفي الرواية عن سدير قال: «كنتُ أنا وأبو بصير ومُيَسِّر ويحيى البزّاز وداوُد الرّقّي في مجلس أبي عبدالله صلوات الله عليه، إذ خرج إلينا وهو مُغْضَبٌ، فلمّا أخذ مجلسَه قال: يا عجبًا لأقوامٍ يزعمون أنّا نعلمُ الغيبَ وما يعلمُ الغيبَ إلا الله، لقد هممْتُ بضربِ خادمتي فلانة، فذهبَتْ عني فما عرفتُها في أيّ البيوت مِن الدّار هي. فلمّا أن قام من مجلسِه وصارَ في منزله، دخلتُ أنا وأبو بصيرٍ ومُيَسّر على أبي عبدالله عليه السلام فقُلنا له: جُعِلْنا فداك، سمعناك كذا وكذا في أمرِ خادمتك ونحن نعلم أنك تعلم علمًا كثيرًا لا يُنسَبُ إلى علمِ

(١) كامل الزيارات، باب٨٨ ص٢٧٣.

الغيب. قال فقال: يا سَدير، ما تقرأ القرآن؟ قال: قلتُ: قرأناه جُعِلتُ فداك. قال: فهل وجدْتَ فيما قرأتَ من كتابِ الله ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟ قال: قلتُ: جُعِلتُ فداك قد قرأتُه. قال: فهل عرفتَ الرجلَ وعلِمتَ ما كان عنده من علمِ الكتاب؟ قال: قلتُ: فأخبرني حتى أعلم. قال: قدْرُ قطرةٍ من المطر الجَوْدِ في البحرِ الأخضر، ما يكون ذلك من علمِ الكتاب؟ قال: قلتُ: جُعِلتُ فداك، ما أقلَّ هذا؟ قال: يا سدير، ما أكثرَه لمَن لم ينسُبْه إلى العلمِ الذي أخبرُك به. يا سَدير، فهل وجدتَ فيما قرأتَ من كتابِ الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلُّه. قال: وأومأ بيدِه إلى صدرِه فقال: علمُ الكتابِ كلُّه واللهِ عندنا، ثلاثًا»[1]. فهذه الرواية تبيّن أنّه في البداية، استخدمَ الإمامُ التقيةَ ولم يُرِد الكشفَ عن علمِه بالغيب وبالكتاب كلّه أمام مَن كان جالسًا لضعفِ قابليّته، ولكن عندما انفردَ بأصحابه، صرّحَ بما كان يكتمُه. وتجدر الإشارةُ هنا إلى أنّ التقيّةَ قد أوصى بها أئمّتُنا عليهم السلام ولكن بحدود، إذ يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «إنما جُعِلَت التقية لِيُحْقَنَ بها الدّم، فإذا بَلَغَتِ التقيّة الدمَ فلا تقيّة، وأيم الله لو دُعيتُم لتنصُرونا لقلتُم: لا نفعل إنما نتّقي، ولكانت التقيّة أحبَّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم، ولو قد قام القائمُ ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك، ولأقام في كثيرٍ منكم من أهل النفاق حدَّ الله»[2]. وبالنسبة للزمانِ والسلطانِ الحاكم، فقد ورد عنهم عليهم السلام، «ما كلُّ ما يُعلم يُقال، ولا كلُّ ما يُقالُ حان وقته، ولا كلُّ ما حانَ وقتُه حَضَرَ أهلُه»[3] وعن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألتُه عن مسألةٍ فأجابَني ثم جاءَه رجلٌ فسألَه عنها فأجابَه بخلافِ ما

(١) الكافي، ج١ ص٢٥٧.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦ ص٢٣٥.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٣ ص١١٥.

أجابَني، ثم جاء رجلٌ آخر فأجابَه بخلافِ ما أجابَني وأجابَ صاحبي، فلمّا خرجَ الرجلان قلت: يا ابن رسول الله، رجلان من أهلِ العراقِ من شيعتِكم قَدِمَا يسألان فأجبْتَ كلَّ واحدٍ منهما بغيرِ ما أجبْتَ به صاحبه؟ فقال: يا زرارة، إنّ هذا خيرٌ لنا وأبقى لنا ولكم ولو اجتمعْتُم على أمرٍ واحد لصدّقَكُم الناسُ علينا ولكان أقلَّ لبقائِنا وبقائكم»[1]. وأحيانًا يأتي كلامُ الإمامِ عليه السلام بقدرِ سؤالِ السّائل، حيث ورد: «لو زِدْتُم في السّؤال حرفًا لَزِدْنا في الجواب حرفًا»[2]. وأحيانًا أخرى يتدرّجُ الإمامُ مع السائلِ في الجواب، وهذه الروايةُ مثالٌ على ذلك، إذ قال رجلٌ للصّادق عليه السلام: «أخبرني لماذا رفعَ النبيُّ عليًّا على كتفه؟ قال: ليعرفَ الناسُ مقامَه ورفعتَه. فقال: زِدْني يا ابنَ رسول الله. فقال: ليعلمَ الناسُ أنه أحقُّ بمقامِ رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: زِدْني. فقال: ليعلمَ الناسُ أنّه إمامٌ بعدَه والعلمُ المرفوع. فقال: زِدْني. فقال: هيهات والله لو أخبرْتُكَ بكُنْهِ ذلك لَقُمْتَ عني وأنت تقول: إنّ جعفر بن محمّد كاذبٌ في قولِه أو مجنون»[3]. وفي بعضِ الظروف، يُظهر الإمامُ الأمورَ كما هي بنحوٍ مُحكَم فيكون كلامُه آياتٍ مُحكمات، بينما يصرُّ البعضُ على اتّباعِ المُتشابِهِ من قولِ الإمام عليه السلام، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾[4]، وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ فِي أَخْبَارِنَا مُتَشَابِهَا كَمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَمُحْكَمًا كَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ فَرُدُّوا مُتَشَابِهَهَا إِلَى مُحْكَمِهَا وَلَا تَتَّبِعُوا مُتَشَابِهَهَا دُونَ مُحْكَمِهَا فَتَضِلُّوا»[5].

---

(١) الكافي، ج١ ص٦٥.
(٢) كشف الحق في مسائل المعراج، ص٣٤.
(٣) مشارق أنوار اليقين، ص٣٩.
(٤) سورة آل عمران، آية ٧.
(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١ ص٢٩٠.

وعلى كلّ حال، يقول الإمام الباقر صلوات الله عليه: «إنّ حديثَنا صعبٌ مستصعب أجرد ذكوان وعرٌ شريف كريم، فإذا سمعْتم منه شيئًا ولانَتْ له قلوبُكم فاحتملوه واحمدوا الله عليه، وإنْ لم تحتملوه، ولم تطيقوه فردّوه إلى الإمام العالِم من آلِ محمّد، فإنما الشقيُّ الهالك الذي يقول: والله ما كان هذا. ثم قال: يا جابر، إنّ الإنكارَ هو الكفرُ بالله العظيم»[١]. وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَن سَرَّه أن يستكملَ الإيمان كلَّه فليقُل: القولُ منّي في جميعِ الأشياءِ قولُ آل محمّد، فيما أسَرّوا وما أعلنوا وفيما بَلَغني عنهم وفيما لم يبلُغْني»[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنّ حديثَ أهلِ البيت عليهم السلام لا حدودَ له لجهةِ الفهم والمعرفة، بل إنّ هذا البابَ مفتوحٌ لا يُسَدّ، فقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «أنتم أفقهُ الناسِ إذا عرفْتُم معاني كلامِنا، إنّ الكلمةَ لتنصرفُ على وجوهٍ فلو شاءَ إنسانٌ لَصرفَ كلامَه كيف شاء ولا يكذب»[٣]. فمهما كانت درجةُ فهمِ الإنسان ومعرفتُه عاليةً لن يقدرَ على معرفةِ آلِ محمد صلوات الله عليهم كنهَ معرفتِهم، «فإنّكم لن تبلغوا من فضلِنا كُنْهَ ما جَعَلَه اللهُ لنا ولا مِعْشَار العُشْر»[٤]، وإنّما تتوقّف معرفته عند حدٍّ ونهايةِ ما يصلُ إليه عقلُه وفهمُه. ولكنّهم عليهم السلام وضعوا لنا ضوابطَ في معرفتهم والتحدّث عنهم ينبغي أن نلتزمَ بها ولا نتخطّاها وهي خمسةٌ بحسبِ الروايات الآتية:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تسمّونا أربابًا وقولوا في فضلِنا ما شئتم». وعنه عليه السلام أنّه قال: «نزّهونا عن الرّبوبية وارفعوا عنّا حظوظَ البشرية، فإنا

(١) بصائر الدرجات، ص٤٢.
(٢) الكافي، ج١ ص٣٩١.
(٣) وسائل الشيعة، ج٢٧ ص١١٧.
(٤) إلزام الناصب، ج١ ص٣٥.

عنها مُبعَدون»[١]، وعن كامل التمّار قال: «كنتُ عند أبي عبدالله صلوات الله عليه ذات يومٍ فقال لي: يا كامل، إجعلْ لنا ربًّا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم... ما عسى أن تقولوا، والله ما خرجَ إليكم من علمِنا إلا ألفًا غير معطوفة»[٢].

إنّ للإمام عليه السلام مقامًا بشريًّا وآخرَ لاهوتيًّا نورانيًّا، إلا أنّ هناك مِن النّاس مَن يَغْلِبُ عليه المقامُ البشريّ للإمام، فلا يصدّقُ بأنّه يعلمُ بالغيبِ وعنده علمُ الكتابِ كلّه، وهناك مَن يغلبُ عليه المقام اللاهوتيّ، فلا يُصَدّق بأنّه يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق وما إلى ذلك وهناك صنفٌ ثالثٌ يلحظُ عندَ الإمامِ المقامَ البشريَّ في المقامِ اللاهوتي والمقامَ اللاهوتي في المقام البشريّ، أي يرى الكثرةَ في عينِ الوحدةِ ويرى الوحدةَ في عينِ الكثرة، وهذا هو مَن يعرفُ الإمامَ حقَّ معرفته. إنّ الإمام عليه السلام قد تلبّسَ باللباسِ البشريّ حتى يطيقَ النّاسُ رؤيتَه ويتمكنوا من الاستفادة من محضرِه الملكوتي وعلمِه الربّانيّ، فهذا مقامُ الإمام البشريّ، ولكن ما هو مقامُه اللاهوتيّ النورانيّ؟

عن طارق بن شهاب عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «يا طارق، الإمامُ كلمةُ الله وحجّةُ الله ووجهُ الله ونورُ الله وحجابُ الله... فهو وليُّه في سماواته وأرضه، أخَذَ له بذلك العهدَ على جميعِ عبادِه، فمَن تقدَّمَ عليه كَفَرَ بالله من فوقِ عرشِه، فهو يفعلُ ما يشاء وإذا شاءَ اللهُ شاء... الإمامُ الماءُ العَذْبُ على الظَّمَأ... الإمام هو الشّمسُ الطّالعة على العبادِ بالأنوارِ فلا تنالُه الأيدي والأبصار... فالإمامُ هو السّراجُ الوهّاجُ والسّبيلُ والمنهاجُ والماءُ الثّجاج والبحرُ العجاج والبدرُ المُشْرِق والغديرُ المُغْدِق والمنهجُ الواضح

(١) شرح الأسماء الحسنى، ج١ ص١٢٢.
(٢) مختصر بصائر الدرجات، ص٥٩.

المسَالِك، والدّليلُ إذا عمَّتِ المهالكُ والسّحابُ الهاطِل والغيثُ الهامل والبدرُ الكامل والدّليلُ الفاضِل والسّماءُ الظّليلة والنّعمةُ الجليلة والبحرُ الذي لا يَنْزِفُ والشّرفُ الذي لا يوصَفُ والعينُ الغزيرة والروضةُ المَطيرة والزّهر الأريج والبدر البَهيج والنير اللائِح والطّيب الفائح والعمل الصّالح والمتجر الرابح والمنهج الواضح والطيب الرّفيق والأب الشّفيق مَفْزَع العباد في الدّواهي والحاكم والآمِر والنّاهي، مُهَيمِن الله على الخلائق، وأَمِينه على الحقائق... ظاهرُه أَمْرٌ لا يُمْلَكُ وباطنُه غيبٌ لا يُدْرَك واحدُ دَهْرِه وخليفة الله في نَهْيِه وأَمْرِه... فمَن ذا ينالُ معرفتَنا أو يعرفُ درجتَنا أو يشهدُ كرامتَنا أو يُدْرِكُ مَنْزِلَتَنا حارَتِ الألبابُ والعقول وتاهَتِ الأفهامُ في ما أقول... وهل يُعْرَفُ أو يوصَفُ أو يُعْلَم أو يُفْهَم أو يُدْرَك أو يُمْلَك مَن هو شعاعُ جلالِ الكبرياءِ وشرفُ الأرض والسّماء؟ جلَّ مقامُ آلِ محمّد ﷺ عن وصفِ الواصفين ونَعْتِ الناعتين وأنْ يُقاسَ بهم أحدٌ من العالمين، كيف وهُم الكلمة العلياء، والتّسميةُ البيضاء، والوَحْدانيّة الكبرى التي أَعْرَضَ عنها مَن أَدْبَرَ وتولّى، وحجابُ الله الأعظم الأعلى... والإمامُ يا طارق بشَرٌ ملكيّ وجسدٌ سماويّ وأمرٌ إلهيّ وروحٌ قدسيّ ومقام عليّ ونورٌ جليّ وسرّ خفيّ، فهو ملكيُّ الذات إلهيُّ الصّفات زائِدُ الحسنات، عالمٌ بالمغيَّبات خَصَّا من ربِّ العالمين، ونصًّا من الصّادقِ الأمين وهذا كلّه لآلِ محمد لا يشاركُهم فيه مشارِك... صفوة الله وسرّه وكلمته... ونور الجلالة جَنْب الله ووديعته... ومصابيح رحمة الله وينابيع نعمته السّبيل إلى الله... وأُمَنَاء العليّ العظيم... السّنام الأعظم والطريق الأقْوَم، مَن عَرَفَهم وأخذَ عنهم فهو منهم، وإليه الإشارة بقوله: «فَمَن تَبِعَنِي فإنّه مني»... خَلَقهم اللهُ من نورِ عَظَمَته ووَلّاهم أَمْرَ مملَكته فهم سرُّ الله المخزون وأولياؤه المقرّبون وأَمْرُه بين الكاف والنون... علمُ الأنبياء في عِلْمِهم وسرّ الأوصياء في سرِّهم وعزّ الأولياء في عزّهم كالقطرة في البحر... والسّماوات والأرض عند الإمام

كَيَدِهِ من راحتِه يَعْرِفُ ظاهِرَها من باطنها ويعلم برّها من فاجِرِها ورَطْبِها ويابِسِها... ومَن أَنْكَرَ ذلك فهو شقيّ ملعون... وكيف يَفْرِضُ الله على عبادِه طاعةَ مَن يَحْجُبُ عنه ملكوتَ السّماوات والأرض؟... وكلُّ ما في الذّكر الحكيم والكتاب الكريم والكلام القديم من آيةٍ تُذْكَر فيها العين والوجه واليد والجنب فالمرادُ منها الوليّ لأنه جَنْبُ الله ووجه الله، يعني حقُّ الله وعلم الله وعين الله ويدُ الله فَهُم الجنبُ العليّ والوجه الرضيّ والمنهل الرويّ والصراط السويّ والوسيلة إلى الله... سرّ الواحد والأحد، فلا يُقاسُ بهم من الخَلْق أَحَد... وبابُ الإيمان وكعبته وحجّة الله ومحجّته وأعلام الهدى ورايته وفضل الله ورحمته، وعين اليقين وحقيقته، وصراط الحق وعصمته، ومبدأ الوجود وغايته، وقدرة الرّبّ ومشيّته، وأمُّ الكتاب وخاتمته، وفَصْلُ الخطاب ودَلالته، وخَزَنَةُ الوحي وحفظته... فَهُمُ الكواكبُ العُلويّة والأنوار العلَوَيّة المُشرِقة من شمسِ العصمة الفاطميّة، في سماءِ العَظَمة المحمديّة والأغصان النبويّة النابتة في دَوْحةِ الأحمدية والأسرار الإلهية المودَعَة في الهياكل البشرية... أولئك هم خير البريّة... إسمُهم مكتوبٌ على الأحجار وعلى أوراق الأشجار وعلى أجنحة الأطْيَار وعلى أبواب الجنّة والنّار وعلى العرش والأفْلاك وعلى أجنحة الأمْلاك وعلى حُجُب الجلال وسُرادقات العزّ والجمال، وباسمهم تسبّح الأطيار، وتستغفر لشيعتهم الحيتان في لُجَج البحار، وإنّ اللهَ لم يخلق أحدًا إلا وأخذ عليه الإقرار بالوحدانيّة والولاية للذريّة الزكيّة والبراءة من أعدائهم وإنّ العرش لم يستقرّ حتى كُتِبَ عليه بالنّور: لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ ولي الله»[1].

ومن كلامٍ للإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق نورَ محمّدٍ

(١) بحارالأنوار، ج٢٥ ص١٦٩ ـ ١٧٤ ب٤؛ مشارق أنوار اليقين، ص١١٤ ـ ١١٧.

من نورٍ اخترعه من نورِ عظَمَته وجلالَه وهو نورُ لاهوتيّة (لاهوتيّته)... فلمّا أرادَ أن يخلقَ محمّدًا ﷺ منه قَسَمَ ذلك النور شطرين: فخلقَ من الشطر الأول محمّدًا ﷺ، ومن الشّطر الآخر عليّ بن أبي طالب ﷺ، ولم يَخْلُقْ من ذلك النّور غيرهما... ظاهرُهما بشريّة وباطنُهما لاهوتيّة، ظهروا للخلق على هياكلِ الناسوتية حتى يطيقوا رؤيتَهما، وهو قوله تعالى ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، فهما مقاما ربّ العالمين وحجابا خالقِ الخلائق أجمعين بهما فتح اللهُ بدءَ الخلق، وبهما يختمُ الملك والمقادير»[1].

وروى محمد بن صدقة أنه قال: سأل أبو ذرّ الغفاري سلمان الفارسي رضيَ الله عنهما: «يا أبا عبدالله، ما معرفةُ الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالنّورانية؟ قال: يا جُنْدَب، فامضِ بنا حتى نسألَه عن ذلك... قال أمير المؤمنين ﷺ: مرحبًا بكما من وليَّيْن مُتعاهدَيْن لدينه، لستُما بمقصّرَيْن لعمري إن ذلك واجبٌ على كل مؤمنٍ ومؤمنة... إنه لا يَسْتَكْمِلُ أحدٌ الإيمان حتى يعرفَني كُنْهَ معرفتي بالنّورانية، فإذا عرفني بهذه المعرفة فقد امتحَن الله قلبَه للإيمان وشرَح صدره للإسلام وصار عارفًا مُستبصرًا... معرفتي بالنورانية معرفة الله عزّ وجلّ ومعرفة الله عزّ وجلّ معرفتي بالنورانية وهو الدّين الخالص ومن قصَّرَ عن معرفة ذلك فهو شاكٌّ ومُرتاب... المؤمن الممتَحَن هو الذي لا يردُّ من أمرِنا إليه شيءٌ إلا شرحَ صدرُه لقبوله ولم يشكّ ولم يرتَبْ... مَن أقامَ ولايتي فقد أقام الصلاةَ وإقامةُ ولايتي صعبٌ مستصعب... فإنّ اللهَ عزّ وجلّ قد أعطانا أكبرَ وأعظمَ مما يَصِفُه واصفُكم أو يخطُرُ على قلبِ أَحَدِكُم... كنتُ أنا ومحمّدٌ ﷺ نورًا واحدًا من نور الله عزّ وجلّ فأمَرَ الله تبارك وتعالى ذلك النّور أن يُشَقَّ فقال للنّصف: كُنْ محمّدًا وقال للنّصف: كُنْ عليًّا، فمنها قال رسول الله: عليٌّ مني وأنا من عليّ ولا

(١) تأويل الآيات الظاهرة، ج١ ص٣٩٨.

يؤدّي عني إلا عليّ... فمَن استكملَ معرفتي فهو على الدّين القيّم... مَن آمَنَ بما قلتُ وصدَّقَ بما بيَّنتُ وفسَّرتُ وشرحتُ وأوضحْتُ ونوَّرْتُ وبرهنْتُ فهو مؤمنٌ مُمتَحَنٌ امتَحنَ اللهُ قلبَه للإيمان وشرَحَ صدرَه للإسلام وهو عارفٌ مستبصرٌ قد انتهى وبلَغ وكمَلَ... الويلُ كلُّ الويل لمَن أنكَرَ فضلَنا وخصوصيّتنا وما أعطانا ربُّنا لأنّ مَن أنكرَ شيئًا ممّا أعطانا الله فقد أنكرَ قدرةَ الله عزّ وجلّ ومشيّته فينا... قد أعطانا ربُّنا عز وجلّ علمَنا للإسم الأعظم... ومع هذا كلّه نأكُلُ ونشربُ ونمشي في الأسواق... لا يبلغ أحدٌ من شيعتنا حدَّ الاستبصار حتى يعرفَني بالنورانية فإذا عرفني بها كان مُسْتَبصِرًا بالغًا كاملًا قد خاضَ بحرًا من العلم وارتقى درجةً من الفضل واطَّلعَ على سرٍّ من أسرار الله ومكنون خزائنه»[1].

كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا المعنى الذي لا يقعُ عليه إسمٌ ولا شبه»[2]. ويقول عليه السلام أيضًا: «ظاهري ولاية ووصاية، وباطني غيبٌ لا يُدْرَك»[3].

قد يسأل سائلٌ: وما الفائدةُ من معرفةِ الإمام بالنورانية؟ نقول: إنّ هذه المعرفةَ هي واجبةٌ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة، إذ إنّ معرفةَ الإمامِ بالنورانية هي معرفةُ الله وهي الدّينُ الخالصُ ومن دونها يبقى الإيمانُ ناقصًا ولا يُستَكمَل. ومن الثمراتِ العمليّةِ التي يَجنيها الإنسانُ من المعرفةِ بالنورانية بحسب النّصِ المختصرِ الذي أوردْناه من حديثِ أمير المؤمنين بالنورانية: يكون مؤمنًا ممتَحَنًا قد امتحنَ الله قلبَه للإيمان، وشرحَ صدرَه للإسلام ويكون عارفًا مستبصرًا قد انتهى وبلَغ وكمَلَ، قد خاضَ بحرًا من العلم وارتقى

(١) بحار الأنوار، ج٢٦ ص١.
(٢) بحار الأنوار، ج٣٩ ص٣٤٧ ح٢٠.
(٣) مشارق أنوار اليقين، ص٧٠.

درجةً من الفضل واطّلعَ على سرٍّ من أسرارِ الله ومكنونِ خزائنه. وعلى العكس من ذلك، فإنّ مَن أنكرَ هذه المعرفة فهو شاكٌّ مُرتابٌ وله الويل كلّ الويل.

وقد يقول قائلٌ إن الناس لا تحتملُ مثلَ هذه المعارف وهذا ما قاله السيّد روح الله الخميني للشيخ آبادي رحمهما الله: «إنني قلتُ للمرحوم الشيخ آبادي ﷺ وكان يُحَدِّث عددًا من الكَسَبة عن هذه القضايا مثلما كان يُحدِّث بها الجميع، قلتُ له: أين هؤلاء من هذه القضايا؟ فأجاب: دَعْ هذه الكُفريّات تطرقُ أسماعَ هؤلاء أيضًا»[1].

ونختم كلامَنا بهذه الرواية، عن أبي جعفر صلوات الله وسلامه عليه قال: «أما والله، إنّ أحبَّ أصحابي إليَّ أوْرعُهم وأفقهُهم وأكتَمُهم لحديثنا، وإنّ أسوأَهم عندي حالًا وأمْقتَهم إليَّ الذي إذا سمِعَ الحديث يُنسَبُ إلينا ويُروى عنّا فلم يعقلْه ولم يقبَلْه قلبُه اشمأزَّ منه وجحدَه وكفرَ بمَن دانَ به وهو لا يدري لعلّ الحديثَ من عندِنا خرجَ وإلينا أُسْنِدَ فيكون بذلك خارجًا من ولايتنا»[2].

والآن، بعد كلّ ما وردَ ينبغي على الإنسانِ أن ينظرَ إلى نفسه، ويعرف من أيّ صنفٍ من الناس هو، فمن عَرَف نفسَه، عرف ربّه.

بين أيديكم كتابُ «عرفانُ العقولِ وشهودُ القلوبِ» وهو عبارة عن محاضراتٍ ولائية أُلْقِيَتْ في مجالس عزاء أبي عبدالله الحسين عليه السلام وتمّ تفريغُها وتهذيبُها وتنقيحُها وتوثيقُها، وبالمناسبة، نتقدّم بجزيلِ الشُّكرِ لكلِّ مَن ساهَمَ في إنجازِ هذا الكتابِ بشتّى تفاصيلِه. وفي الختام، نشيرُ إلى

(١) تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص١٢٠.
(٢) الكافي، ج٢ ص٢٢٣.

أنّ اسمَ هذا الكتابِ مُسْتَوحَى من روايةِ أمير المؤمنين عليه السلام التي يقولُ فيها: «الْإِيمَانُ قَوْلٌ مَقُولٌ وَعَمَلٌ مَعْمُولٌ وَعِرْفَانُ الْعُقُول»[1].

«عرفان العقول وشهود القلوب»: مجموعة محاضرات ولائيّة لمجالس العزاء، يقدّمها خادم أهل البيت القارئ الشيخ محمد مهدي قازان، قربانًا بين يدي المولى صاحب الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف، راجيًا منه القبول والمغفرة والصفح عن الزلّة والخطأ، وشفاعته وشفاعة آبائه وأجداده سلام الله عليهم أجمعين وبالخصوص شفاعة جدّه أمير المؤمنين عليه سلام الله.

مشهد المقدّسة

٢٧ ذو القعدة ١٤٣٩

١٠ آب/أغسطس ٢٠١٨

(١) أمالي المفيد، ص٢٧٥.

البسملةُ وعليٌّ سِرُّ نقطةِ بائِها

وردَ عن مولانا أميرِ المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في كلامِه عن سورةِ الفاتحة: «إعلمْ أنّ جميعَ أسرارِ الكتبِ السماويّةِ في القرآن، وجميعُ ما في القرآنِ في الفاتحة، وجميعُ ما في الفاتحةِ في البسملة، وجميعُ ما في البسملةِ في باءِ البسملة، وجميعُ ما في باءِ البسملةِ في النقطةِ التي تحت الباء»[1]، وقال عليه السلام: «أنا النقطةُ التي تحتَ الباء»[2]. وقد وردَ في الحديثِ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أخذَ يحكي لابن عباس عن أسرارِ الباءِ إلى بزوغِ الفجر[3].

يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «انّ أمير المؤمنين عليه السلام هو النقطة تحت الباء، فقد كان متجلّيًا في كلّ أدوار الخلقة فهو، على هذا، نقطة عالم الوجود؛ ولو أنّ هذا الحديث سَكَنَ في القلب لصار للإنسان منزلةً كمنزلة المقداد حيث صارت منزلته بمنزلة الألف من القرآن».

إنّ القرآنَ مصحفٌ جامعٌ لكلّ شيء في الوجودِ من عوالمَ ومراتبَ ومخلوقاتٍ، فكلُّ ما خلقَه الله عزّ وجل مُدوّنٌ في هذا الكتاب، ولذلك

---

(١) شرح إحقاق الحقّ، ج٧ ص٦٠٨؛ ينابيع المودة، ص٨١ ـ ٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينابيع المودّة، ص٤٠٨.

سُمِّيَ بالكتابِ التدويني. أمّا الوجودُ وما تراهُ أعينُنا فيه من مخلوقاتٍ وعوالمَ فهو عبارةٌ عن الكتابِ التكوينيّ أي الكتابِ العيني، وقد قال الله تبارك وتعالى في مُحكمِ كتابِه العزيزِ الكريم: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[١]، وكأنّ ثمّةَ مَن طوى كتابًا كان يحملُهُ بين يديه.

يتكلّم الكتابُ التدوينيّ بأكملِه، وبما يشتملُ عليه من كتبٍ سماويّةٍ عن حركةِ الأنبياءِ وهدايةِ البشرِ ويحكي عن كلِّ ما هو موجودٌ في هذا العالم، وكلُّه قد صدرَ من الفاتحة وإليها يرجع. ويقول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٢] وفي آيةٍ أخرى ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٣]، إنَّ الكتابَ المبينَ يشتملُ على القرآنِ الكريم الذي هو الكتاب التدويني، من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى هو الإمامُ المعصومُ الذي يمثّلُ الكتابَ التكويني، حيث سُئِلَ الإمامُ الصادق عليه السلام عن تفسيرِ آيةِ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: «قلتُ: في كتابٍ مبين؟ قال: في إمام مبين»[٤]. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الكتابُ عليٌّ لا شكَّ فيه»[٥]. وكما وردَ في الروايةِ فإنّ القرآنَ كلَّه مختصرٌ في الفاتحةِ ـ والفاتحةُ هي أمُّ الكتاب ـ وكلُّ ما في الفاتحةِ موجودٌ ومُختزنٌ في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٦] وكلُّ ما في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الباءِ وكلُّ ما في الباءِ في النقطةِ التي تحتها. والهدفُ من ذلك التعريفُ بكيفيةِ خلقِ الله عزّ وجل لهذا الكون، إذ يُمكنُ القولُ إنّ

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٤.
(٢) سورة يس، آية ١٢.
(٣) سورة الأنعام، آية ٥٩.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) تفسير القمّي، ج١ ص٣٠.
(٦) سورة الفاتحة، آية ١.

النقطةَ كانتْ موجودةً (رَتْق) ثمّ انفجرَت (فَتْق) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ وهذا هو الإنفجارِ الكوني ـ وتكثّرَتْ وظهرَتْ منها الباء، ولمّا انفجرَتِ الباءُ وتكثّرَت، ظهرَ منها الوجودُ وأصبحَت هذه الباءُ عوالمَ ومخلوقاتٍ وموجودات، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. ومن خلالِ هذه الرواية، يُبيّنُ أميرُ المؤمنين عليه السلام كيفيّةَ خلقِ هذا الوجود، إذ إنَّ الظاهرَ مرتبطٌ بالباطن. وبالتالي، كلُّ شيءٍ أُحصِيَ في القرآنِ وكلُّ القرآنِ أُحصِيَ في الفاتحةِ وكلُّ الفاتحةِ أُحصِيَتْ في البسملةِ والبسملةُ أُحصِيَت في الباءِ والباءُ أُحصِيَت في النقطة، والنقطةُ هي أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. واللافتُ أنّه إذا بدأ الإنسانُ بالكتابة، فإنّه يبدأُ بالنقطةِ وإذا أرادَ أن يختمَ يختمُ بالنقطة أيضًا، وهكذا هو فعلُه تبارك وتعالى، فعندما كتبَ بالقلم، بدأَ بالنقطةِ وعندما يريدُ أن يختم، سيختمُ بالنقطةِ أيضًا، ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا الأولُ وأنا الآخرُ وأنا الباطنُ وأنا الظاهر»[2]، فالوجودُ كلُّه لولا عليّ بن أبي طالب عليه السلام ما وُجِد.

وردَ في الحديث القدسيّ: «يا أحمدَ لولاك لما خلقْتُ الأفلاكَ ولولا عليّ لما خلقتُك ولولا فاطمة لما خلقْتُكما»[3]، فقولُه تعالى: «يا أحمد، لولاك لمّا خلقْتُ الأفلاك» مردُّه إلى أنّ محمّدًا هو الباء، «ولولا عليّ لما خلقْتُك»، يعني أنّ الباءَ مصدرُها النقطة، أمّا قوله تعالى: «ولولا فاطمة لما خلقتُكما» فهو بحثٌ آخر. فالوجودُ كلّ الوجود، بما فيه من كائناتٍ ومخلوقات، مجتمِعٌ في النقطةِ التي ينطلقُ منها الخطُّ المستقيمُ والخطُّ

(١) سورة الأنبياء، آية ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٣٠.
(٣) مناقب آل أبي طالب، ج٢ ص٣٨٥.
(٤) مستدرك سفينة البحار، ج٣ ص٣٣٤.

الأفقي، كما أنّ كلّ ما كُتِبَ بالقلم إنّما كُتبَ من هذه النقطة، فهكذا صدرَ الوجودُ وأُنشِئ. وبالتالي فإنّ شجرةَ الوجودِ قد تفرّعَتْ عن «بسم الله الرحمن الرحيم» والعوالمَ كلّها قائمةٌ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

إذًا، هذه البسملةُ هي سرّ، وسرُّها موجودٌ في الباءِ وسرُّ الباء، بدورِه، موجودٌ في النقطةِ والنقطةُ هي أميرُ المؤمنين عليه السلام، كما مرَّ معنا. ومع هذا، ما زالَ الكثيرُ من المخالفين يُنكرون ولايةَ أمير المؤمنين عليه السلام، ويُشَكِّكون بمناقبِه وفضائلِه، وهنا تكمنُ المشكلة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لا يعذِّبُ اللهُ هذا الخلقَ إلا بذنوبِ العلماءِ الذين يكتمون الحقَّ من فضلِ عليٍّ وعترتِه عليهم السلام، ألا إنّه لم يمشِ فوقَ الأرضِ بعدَ النّبيين والمرسلين أفضلُ من شيعةِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذين يُظهِرون أمرَه وينشرون فضلَه، أولئك تغشاهم الرّحمةُ وتستغفرُ لهم الملائكة، الويلُ كلُّ الويلِ لمَنْ يكتمُ فضلَه»**[1].

لقد ابتدأتْ سُوَرُ القرآنِ كلّها، أي الكتابُ التدويني، بالبسملةِ ما عدا سورةُ التوبةِ التي ابتدأَت بآيةِ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[2] والملاحظُ أنّها ابتدأَتْ بالباء أيضًا. وعليه، فإنّ كلَّ القرآنِ التدوينيّ إنّما ظهرَ من الباء ومن النقطةِ تحتها. والجديرُ ذكرُه أنّه إذا تكلّمَ المرءُ مع الناسِ عن الصّدقِ ولكنّه لم يأتِ لهم بإنسانٍ صادق، يبقى كلامُه عبارةً عن مفهومٍ بلا معنى، إذ إنّ الإنسانَ يبحثُ عن الصادقِ ويتأثّرُ به أكثرَ ممّا يتأثرُ بمفهومِ الصّدقِ ومجرّدِ الكلامِ عنه. وهكذا الأمرُ بالنسبةِ للبسملة، إذ ينبغي أن يكونَ للبسملةِ تعيّنًا، فأينَ هو ظهورُ وتعيُّنُ وتشخّصُ اسمِ الله عزّ وجل بحسبِ رواياتنا؟ قال الله تعالى في كتابِه العزيزِ الكريم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[3] وعن الإمامِ

(١) الدمعة الساكبة، ص٨٢.
(٢) سورة التوبة، آية ١.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

أبي عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أنّه قال: «نحنُ والله الأسماءُ الحسنى»[١]. وعندما يقولُ الإنسانُ «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنّه يذكرُ اسمَ «الرحمن الرحيم»، وتعيّنُ اسمِ «الرحمن الرحيم» ومصداقُه ومظهرُه الأتمُّ هو الحسين بن عليّ، لأنّه رحمةُ اللهِ الواسعة، «... السلامُ عليكَ يا رحمةَ اللهِ الواسعة»[٢].

وقد وردَ في معنى البسملةِ الكثيرُ من الروايات، فعن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «إنّ بسم الله الرحمن الرحيم أقربُ إلى اسمِ الله الأعظمِ من سوادِ العين إلى بياضِها»[٣]. وعنه عليه السلام عن الحسين بن خالد عمَّن روى عندما سُئلَ عن تفسيرِ «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال: «الباءُ بهاءُ اللهِ والسينُ سناءُ الله والميمُ ملكُ الله»[٤]. ولمّا سُئلَ الإمامُ الصادق صلوات الله وسلامه عليه عن لفظِ الجلالةِ «الله»، قال: «الألفُ آلاءُ الله على خلقِه من النعيمِ بولايتنا ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٥] ـ واللّامُ إلزامُ اللهِ خلقَه على ولايتِنا، قلْتُ فالهاء؟ قال: هَوَانٌ من الله لمَن خالفَ محمدًا وآلَ محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[٦].

كما وردَتْ في فضائلِ «بسم الله الرحمن الرحيم» رواياتٌ عديدة، إذ رُوِيَ أنّه «دخل عبدالله بن يحيى على أميرِ المؤمنين عليه السلام وبين يديه كرسيٌّ فأمرَه بالجلوس، فجلسَ عليه، فمالَ به حتى سقطَ على رأسِه، فأوضحَ عن عظمِ رأسِه وسالَ الدمُ فأمرَ أميرُ المؤمنين عليه السلام بماء، فغسلَ عنه ذلكَ الدم.

---

(١) الكافي، ج١ ص١٤٣.
(٢) رواه المفيد والسيّد والشهيد في زيارة البعيد.
(٣) عيون أخبار الرضا، ج٢ ص٩ ح١١ الباب ٣٠.
(٤) تفسير القمي، ج١ ص٢٨.
(٥) سورة الرحمن، آية ١٣.
(٦) التوحيد، ج٣ ص٢٣٠، معاني الأخبار، ج٢ ص٣.

ثم قال: أدنُ مني [فدنا منه]، فوضعَ يدَه على موضحتِه وقد كان يجدُ من ألمِها ما لا صبرَ له معه، ومسحَ يدَه عليها، وتفلَ فيها حتى اندملَ وصار كأنّه لم يصبْه شيءٌ قط. ثم قال أميرُ المؤمنين عليه السلام: يا عبدالله، الحمدُ لله الذي جعلَ تمحيصَ ذنوبِ شيعتِنا في الدنيا بمحنِهم لتسلمَ لهم طاعاتُهم ويستحقوا عليها ثوابَها... فقال عبد الله بن يحيى: يا أميرَ المؤمنين قد أفدْتَني وعلّمتَني، فإنْ رأيْتَ أن تعرِّفني ذنبي الذي امتُحِنتُ به في هذا المجلسِ حتى لا أعودَ إلى مثله. قال: ترْكُكَ حين جلسْتَ أن تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» فجعلَ الله ذلك لسهوِك عما نُدِبْتَ إليه تمحيصًا بما أصابَك... ثم قال عبدالله بن يحيى: يا أميرَ المؤمنين، ما تفسيرُ بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: إنّ العبدَ إذا أرادَ أن يقرأ أو يعمل عملًا ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» أي بهذا الإسمِ أعملُ هذا العمل، فكلُّ أمرٍ يعملُه يبدأُ فيه ببسمِ الله الرحمن الرحيم فإنّه يباركُ له فيه»[1]، فالتسميةُ باسمِ الله تعني أخذَ الإذنِ للقيامِ بأمرٍ ما، ولذا ينبغي التسميةُ في كلِّ شيء. أَوَلَسْنا نقرأُ في الدعاء: «بسم الله على قلبي ونفسي، بسم الله على ديني وعقلي، بسم الله على أهلي ومالي، بسم الله على ما أعطاني ربي»[2]؟ وغيرُها من الأدعيةِ التي تبيّنُ أنّ على الإنسانِ أن يُسمّي على كلِّ شيء.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما من أحدٍ يقصدُ دخولَ البيتِ إلّا ويتبعُه الشيطان، فإنْ دخلَ البيت، فقال بسم الله الرحمن الرحيم، يقولُ الشيطانُ لا مدخلَ لي في هذا البيت، (هذا البيتُ هو الذي يتواجدُ فيه حبُّ عليّ عليه السلام وحبُّ عترته). وإذا قُدّمَ إليه الطعام، فقال بسم الله الرحمن الرحيم، [يقول الشيطان لا طعامَ لي هنا. وإذا قُدِّم الشّراب وقال بسم الله

(١) البرهان في تفسير القرآن، ص١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) مهج الدعوات، ص٧٥.

الرحمن الرحيم]، يقول الشيطانُ لا شرابَ لي هنا. وإذا اضطجعَ وقال بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الشيطان: لا مضجعَ لي هنا. وإذا تركَ البسملةَ عندَ الدخول، دخلَ الشيطانُ معه، وإذا تركَ البسملةَ عند الأكل، يأكلُ معه الشيطان، وإذا شربَ ولم يذكرْها، يضعُ الشيطانُ فمَه على الكوز، وإذا أراد أن يُجامعَ ولم يسمِّ، جامَعَ الشيطانُ معه»[1]. ولهذا وردَ في القرآنِ الكريم قولُه تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2]، فإنّ المرءَ إذا أرادَ أن يُجامِعَ زوجتَه ولم يُسمِّ عند ذلك، شاركَه الشيطانُ في هذا الأمر، وإنْ نتجَ عن هذه العلاقةِ ولدٌ، كان هذا الولدُ إبنًا لإبليس.

إذًا، يشاركُ الشيطانُ الإنسانَ بأعمالِه اليومية، من أكلٍ وشربٍ ونوم وغير ذلك، إلا إذا سمَّى باسمِ الله عزّ وجل مع معرفتِه بهذا الإسم، ما يعني أنّ الإنسانَ يُسمّي حتى يدخلَ برحمةِ الله ورحمانيتِه إلى أيِّ مكانٍ أو يباشرَ بأيِّ عمل، فلا يدخلُ الشيطانُ معه. وكذلك يسمّي إذا قُدِّمَ إليه الطّعامُ والشراب، حتى لا يتسنّى للشيطانِ أن يشاركَه شرابَه وطعامَه. ولهذا أوصى الحسينُ بن عليّ ابنتَه سَكينة عليها السلام بأنْ قولي لشيعتي: «شيعتي، مهما شربْتُم عذبَ ماءٍ فاذكروني»[3]، فعندما تشربُ وقبلَ أن تشرب، تذكّرْ أبا عبدالله عليه السلام، وحينها يستحيلُ على إبليس أن يشربَ معك لأنّ الحسين بن عليّ هو تعيّنُ اسمِ «الرحمن الرحيم»، كما قلنا، وتشخّصُهُ والمظهرُ الأتمّ له، وبالتالي، عندما تنادي: «يا حسين» فإنّك، في الواقع، تُسمّي باسمِ الله. وأمّا إذا لم يُسمِّ الإنسانُ حتى على كلِّ لقمةٍ يتناولُها، فإنّ إبليسَ يُقاسِمُه طعامَه وشرابَه، ويتحوّلُ هذا الطعامُ والشرابُ إلى مرضٍ عندَ الإنسان، فيُصابُ بصداعٍ في الرأسِ أو ألمٍ في المعدةِ أو في أيٍّ من أعضاءِ

(١) خزينة الأسرار، ص٩١.
(٢) سورة الإسراء، آية ٦٤.
(٣) أسرار الشهادات، ج٣ ص٢٨٢.

جسدِه، وهو مع ذلك لا يدري مِن أين أتى ذاك الألمُ وكيف يزول. وأكثرُ من هذا، فإنّ عواقبَ غفلةِ الإنسانِ عن التسمية، لا تقتصرُ على الآلامِ الجسديّةِ فحسب، بل تتعدّاها إلى الأمراضِ النفسيةِ والروحيّةِ أيضًا. كما وردَ في الرواياتِ أنّ على الإنسانِ أن يُسمّي حينَ يرتدي ثوبَه حتى تخرجَ الشياطينُ منه، ولعلّ التمزُّقَ الذي يطرأُ على الثوبِ أو الحذاءِ سببُه عدمُ تسميةِ الإنسان عليه قبل ارتدائِه. غيرَ أنّ باستطاعةِ الإنسانِ أن يتداركَ كلَّ هذه التبعاتِ ويمنعَها من الحدوثِ إذا واظبَ على التسميةِ عند كلِّ فعلٍ يقومُ به، لذا وجبَ أن لا يستخفَّ أحدٌ بالبسملة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

قال رسول الله ﷺ: «مَن رفعَ قرطاسًا من الأرض مكتوبًا عليه [فيه] بسم الله الرحمن الرحيم إجلالًا لله ولاسمه عن [من] أن يُداس، كان عند الله من الصّدّيقين وخفّفَ عن والديْه وإن كانا مُشرِكين»[2]، وأسماءُ اللهِ الذين ذكرَهم عزّ وجلّ في الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3] هم أهلُ البيتِ عليهم السلام، إذ إنّهم أسماؤُه التعيّنيةُ والتشخصيّةُ، وقد وردَ في دعاءِ علقمة: «وَبِاسْمِكَ الَّذي جَعَلْتَهُ عِنْدَهُمْ وَبِهِ خَصَصْتَهُمْ دُونَ الْعالَمينَ». فإذا قامَ الإنسانُ برفعِ هذا الإسمِ عن الأرضِ ووضْعِه في مكانٍ عالٍ، يُكتَبُ عند الله من الصّدّيقين ويُخَفَّفُ عن والديه وإنْ كانا مُشرِكَيْن. ويُروى أنّه كان هناك رجلٌ عاشَ في زمانِ الإمام موسى الكاظم عليه السلام يُدعى بشر الحافي، وكان معروفًا عنه أنّه يشربُ الخمرَ ويقضي معظمَ أيامِه بالملاهي والمعاصي ولكنّه وجدَ طريقَ الهدايةِ على يدَي الإمام الكاظم عليه السلام ثم بلغَ ما بلغَ من الزهدِ والمقام. ويُحكى أنّه في أحدِ الأيام، كان بشرٌ يسير على الطريق وإذا

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠١.
(٢) مستدرك الوسائل، ج١ ص٣٢٣؛ لآلىء الأخبار، ج٣ ص٣٣٦.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

به يجد قطعةً مكتوبًا عليها «بسم الله الرحمن الرحيم» وكانت تطؤها أقدامُ الناسِ المارّين على ذاك الطريق، فالتقطَها واشترى بدراهمَ كانت معه طِيبًا ثم طيّبَ تلك القطعةَ وجعلَها في شقٍّ حائط، فرأى في النومِ كأنّ قائلًا يقول: «يا بشر طيّبْتَ اسمي فلأطيّبَنَّ اسمَك في الدنيا والآخرة، فلمّا أصبحَ تاب»[١] وكلُّ ذلك ببركةِ «بسم الله الرحمن الرحيم».

ولمّا قُذِفَ نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام في النّار، «نزلَ عليه جبرئيل وقال: بسم الله الرّحمن الرّحيم، يا نارُ كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم»[٢]. لقد كان الأنبياءُ والأئمةُ والأولياءُ عليهم السلام كلّهم يُسمّون باسمِ الله، أفَنَظنُّ أنفسَنا أعلى مقامًا منهم! وها هو الإمام العسكري عليه السلام يُوصِينا قائلًا: «قولوا عند افتتاحِ كلِّ أمرٍ صغيرٍ أو عظيمٍ بسم الله الرحمن الرحيم»[٣]. ويقول أميرُ المؤمنين عليه السلام لأحدِ أصحابِه: أمَا علمْتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حدّثَني عن الله عزّ وجل أنّه قال: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لم يُذكرْ فيه بسم الله فهو أبتر»[٤]. ويَروي المفضل بن عمر عن الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه أنّه قال: «إحتجبوا من الناسِ كلّهم ببسم الله الرحمن الرحيم وبِقُلْ هو اللهُ أحد، إقرأها عن يمينِك وعن شمالِك ومن بين يديكَ ومن خلفكَ ومن فوقكَ ومن تحتك، وإذا دخلْتَ على سلطانٍ جائرٍ فاقرأها حين تنظرُ إليه ثلاثَ مرات واعقدْ بيدِكَ اليسرى ثم لا تفارقْها حتى تخرجَ من عندِه»[٥]. وعنه عليه السلام أيضًا أنّه قال: «ولربما تركَ بعضُ شيعتِنا في افتتاحِ أمرِه بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنُه اللهُ عزّ وجل بمكروهٍ ليُنبّهَه على شكرِ الله تبارك

---

(١) الكنى والألقاب، ص١٦٨.
(٢) أسرار الكتاب في أمّ الكتاب، ص١٢٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج٤ ص١١٩٣؛ التوحيد، ص٢٣٤.
(٤) تفسير البصائر، ج١ ص٢٢٣.
(٥) تفسير نور الثقلين، ج١ ص٧.

وتعالى والثناءِ عليه ويَمحقَ عنه وصمةَ تقصيرِه عند تركِه قولَ بسم الله الرحمن الرحيم»[١].

كما وردَ في الرواية أنّه «لو كانتِ الأشجارُ أقلامًا والبحارُ مدادًا واجتمعَتِ الجنُّ والإنسُ والملائكةُ كُتّابًا وكتبوا معنى بسم الله الرحمن الرحيم ألفي ألفَ سنةٍ لما قدروا على كتابةِ عشرِ عشيرة»[٢]، وتُذكِّرُ هذه الروايةُ بفضائلِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، حيث وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لو كانتِ البحارُ مدادًا والغياضُ أقلامًا والسماواتُ صحفًا والجنُّ والإنسُ كتّابًا، لَنَفَدَ المدادُ وَكَلَّتِ الثقلان أن يكتبوا معشارَ عشرِ فضائلِ عليّ عليه السلام»[٣]. وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال لأحدِ أصحابِه عندما تعثّرتْ دابّتُه وأوقعَتْهُ أرضًا: «لا تقلْ تعسَ الشيطانَ [لعن اللهُ الشيطان] فإنّه يعظمُ حتى يصيرَ مثلَ البيتِ ويقول بقوتي صرعْتُه، ولكن قلْ بسم الله فإنّك إذا قلْتَ ذلك تصاغرَ الشيطانُ حتى يصيرَ مثلَ الذّباب»[٤].

وإنّ «بسم الله الرحمن الرحيم» هي مفتاحُ كلِّ شيء، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٥]، وقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «بنا فتحَ الله وبنا ختمَ الله»[٦]. وفي روايةٍ عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، قال: «ليلةَ أُسريَ بي إلى السماءِ عُرضَ عليّ قلبُ جميعِ الجنان، فرأيتُ فيها أربعةَ أنهار: نهرٌ من ماء ونهرٌ من خمر ونهرٌ من عسل ونهرٌ من لبن، (كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١ ص٧ ـ ٨.
(٢) خصائص وأسرار تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم»، ص٩٧.
(٣) بحر المعارف، ص٤٢٣.
(٤) كنز العمال، ج١ ص٢٤٧ ح١٢٤٤.
(٥) سورة الأنعام، آية ٥٩.
(٦) كامل الزيارات، ص١١٧.

وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾). فقلت: يا جبرئيل من أينَ تجيء هذه الأنهار، وإلى أين تذهب؟ قال: تذهبُ إلى حوضِ الكوثر، (السلامُ عليكِ مولاتي يا فاطمة)، ولا أدري مِن أين تجيء. فادعُ الله تعالى ليُعلّمَكَ أو يُريك، فدعا ربَّه فجاءَ ملكٌ فسلّمَ على النبي ﷺ وقال: يا محمد غمِّضْ عينَك. قال: فغمضْتُ عيني، ثم فقال: إفتح عينَك ففتحت، فإذا أنا عند شجرةٍ ورأيت قبّةً من درّةٍ بيضاءَ ولها بابٌ [من ياقوتٍ أخضر وقِفل] من ذهبٍ أحمر وقفل، لو أنّ جميعَ ما في الدنيا من الإنسِ والجنِّ وُضعوا على تلكَ القبّةِ لكانوا مثلَ طائرٍ جالسٍ على جبلٍ [أو لوزةٍ أُلقيَتْ في البحر]، فرأيتُ هذه الأنهارَ الأربعةَ تخرجُ [تجري] من تحتِ هذه القبّة. [فلمّا أردْتُ أن أرجع، قال لي ذلك الملك: لمَ لا تدخلُ في القبّة؟ قلت: كيف وعلى بابِها قفل؟ وكيف أفتحُه؟ قال لي: إفتح. قلت: كيف أفتحُه وليس لي مفتاح؟ قال لي: في يدِك مفتاحُه. قال أين مفتاحه؟ قال مفتاحُه بسم الله الرحمن الرحيم، (يعني أنتَ مفتاحُه يا رسول الله)، لمّا دنوتُ من القفل وقلت «بسم الله الرحمن الرحيم» انفتحَ القفل [فدخلْتُ في القبّةِ فرأيتُ هذه الأنهارَ الأربعةَ تجري من أربعةِ أركانِ القبّة، فلمّا أردتُ الخروجَ قال لي ذلك الملك: هل نظرْت؟ قلت: نعم، قال: أنظر ثانيًا. فلمَا نظرْتُ ورأيتُ مكتوبًا على أربعةِ أركانِ القبّةِ «بسم الله الرحمن الرحيم» ورأيْتُ نهرَ الماءِ يخرجُ من ميم «بسم الله» ونهرَ اللّبنِ يخرجُ من هاء «الله» ونهرَ الخمرِ يخرجُ من ميمِ «الرحمن» ونهرَ العسلِ يخرجُ من ميمِ «الرحيم»، فعلمْتُ أنّ أصلَ هذه الأنهارِ الأربعةِ من البسملة، فقال الله عزّ وجل: يا محمد، من ذكر[ني] [ب]هذه الأسماء من أمّتِك [وقال] بقلبٍ خالصٍ من الرياء: «بسم الله الرحمن الرحيم» سقيْتُه من هذه الأنهار [الأربعة]»[1].

(١) نفحات الرحمن، ج١ص٤٨؛ خزينة الأسرار الكبرى، ص٨٨.

وفي الرواية: «لمّا نزلَتْ بسم الله الرحمن الرحيم، فرِحَ أهلُ السماوات وما بها من الملائكة واهتزَّ العرشُ لنزولِها ونزلَ معها من الملائكة ما لا يُحصي عددَه إلاّ الله وازدادَتِ الملائكةُ إيمانًا وتحرّكَتِ الأفلاكُ ودَنَتْ لعظمتِها الأمْلاك، وكانت مكتوبةً على جبهةِ آدم قبل أن يُخلقَ بخمسمائة عام، وكانت على جناحِ جبرئيل يومَ نزولِه على إبراهيم الخليل لمّا قذفوه بالنار فنزلَ عليه جبرئيل وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، يا نارُ كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، وكانت مكتوبةً على عصا موسى وكانت كتابتُها بالسّريانيةِ ولولاها ما انفلقَ له البحر، وكانت على لسانِ عيسى حين تكلّمَ بالمهدِ صبيًّا وكان يتلوها على الموتى فيُحيَون بإذنِ الله تعالى، وكانت مكتوبةً على خاتمِ نبيِّ الله سليمان»[1]. كما رُويَ أنّه «لمّا رَكِب النبي نوح عليه السلام السفينةَ وخافَ من الغرقِ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، فنُجّيَ مِن الغرقِ هو ومَن معه»[3]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لمّا سُئِلَ عن فضلِه على الأنبياءِ الذين أُعطوا من الفضلِ الواسعِ والعنايةِ الإلهيّة: «والله قد كنتُ مع إبراهيم في النار وأنا الذي جعلْتُها بردًا وسلامًا، وكنتُ مع نوح في السّفينةِ فأنجيْتُه من الغرق، وكنتُ مع موسى فعلّمْتُه التوراة، وأنطقْتُ عيسى في المهدِ وعلّمْتُه الإنجيل، وكنتُ مع يوسف في الجُبّ فأنجيْتُه من كيدِ إخوتِه، وكنتُ مع سليمان على البساطِ وسخّرْتُ له الرّياح»[4]، فأميرُ المؤمنين عليه السلام هو تعيُّنُ البسملةِ وتشخُّصُها ومعناها.

ويُروى أنّ النبي موسى عليه السلام كان يتوقّعُ نزولَ العذابِ على فرعون بعدما

(١) أسرار الكتاب في أمّ الكتاب، ص١٢٠.
(٢) سورة هود، آية ٤١.
(٣) أسرار الكتاب في أمّ الكتاب، ص١٢٦.
(٤) الأنوار النعمانية، ج١ ص٣١.

ادّعى الربوبيةَ قائلًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[١]، فأوحى الله تعالى إلى موسى: «لعلّكَ تريدُ إهلاكَه، أنت تنظرُ إلى كفرِه وأنا أنظرُ إلى ما كتبَه على بابِه»[٢]، وكان قد كتبَ «بسم الله الرحمن الرحيم» على بابِ قصرِه قبل ادّعائِه الرّبوبية، فلمّا محا فرعون البَسْمَلةَ عن الباب، أنزلَ اللهُ العذابَ عليه، إذ إنّ الله عزّ وجل لا يُنزِلُ عذابَه على مَن يكتبُ عبارةَ «بسم الله الرحمن الرحيم» على بابِ داره، فقد ورد في الحديث: «مَن كتبَ لفظةَ بسم الله على بابِه الخارج أمِن من الهلاك ولو كان كافرًا»[٣]، والله عزّ وجلّ أعلم به.

وكذلك فإنّه حين وصلَ كتابُ سليمان النبيِّ عليه السلام إلى بلقيس، «رَأَتْ البسملةَ على ظهرِه فارتبكَتْ وأخذَتْ الكتابَ بكلِّ احترامٍ وقالت لِجُلَسائِها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٤]»[٥]، ولقاءَ احترامِها وتقديرِها لعبارةِ «بسم الله الرحمن الرحيم»، مَنَّ الله عزّ وجل عليها بالإيمانِ والزواجِ من نبيِّ الله سليمان، وكلُّ هذا ببركةٍ من الله الرحمن الرحيم.

وفي الروايات أيضًا أنّ «مَن قرأَ البسملةَ عندَ النوم إحدى وعشرين مرة أمِنَ في تلكَ الليلةِ من الشيطانِ ومن شرِّ الإنسِ والجنِّ والحريقِ ومن موتِ الفجأةِ ويُدفعُ عنه كلُّ بلاءٍ وآفة»[٦]. و«مَن قرأَ البسملةَ بعددِ المرسلين عليهم السلام

(١) سورة النازعات، آية ٢٤.
(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج١ ص٧٩ ـ ٨٠؛ وذكره كتاب مفاتيح الجنان مرويًا عن الكفعمي في مفاتيح الغيب.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة النمل، آية ٢٩ ـ ٣٠.
(٥) أسرار الكتاب في أمّ الكتاب، ص١٢٦.
(٦) خصائص وأسرار تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم»، ص١١٣.

ثلاثمئة وثلاثة عشر مرة (على عددِ أصحابِ صاحبِ الزمان) **وبعدها صلّى على النبي ﷺ مئة مرة، يرزقه الله تعالى من حيثُ لا يحتسبُ بفضلِه وكرمِه بين يديه»**[1].

وخيرُ رزقٍ ينزلُ على الإنسانِ هو عشقُ المولى حسين بن عليّ عليه السلام، فـ«بسم الله الرحمن الرحيم» مُتعيّنةٌ فيه عليه السلام، كما بات معلومًا. وبالتالي، حين نذكر الحسين عليه السلام، فإننا نسمّي باسمِ الله الذي سبقَتْ رحمتُه عدلَه، وهل في الوجودِ كلّه رحمةٌ تصلُ إلى أعتابِ رحمةِ الحسين بن علي عليه السلام؟ ثمّ، أفلا نقتدي بمولانا الحسين بن عليّ عليه السلام، روحي له الفداء؟ فهو في يومِ العاشرِ من المحرّمِ حين رماه اللعينُ بسهمٍ مثلّثٍ وقعَ على صدرِه، انحنى على سرجِ جوادِه لينزعَ ذاك السهمَ وهو يقول: **«بسم الله وبالله وعلى ملّةِ رسول الله، اللّهم إنّكَ تعلمُ أنّهم يقتلون رجلًا ليسَ على وجهِ الأرضِ ابنُ بنتِ نبيٍّ غيره»**، ثمّ استخرجَ السّهمَ من قفاه فانبعثَ الدّمُ كالميزاب، فوضعَ كفّيه تحتَ الجرحِ ولمّا امتلأتا بالدّم، رمى به نحو السّماءِ فلم يسقطْ منه قطرةٌ إلى الأرض، ثمّ وضعَ يدَه تحتَ الجرحِ مرّةً أخرى ولمّا امتلأتْ بالدماءِ لطّخَ بها رأسَه ولحيتَه الشريفة وقالَ: **«هكذا أكونُ حتى ألقى اللهَ تعالى وجدّي رسول الله ﷺ وأنا مخضّبٌ بدمي مغصوبٌ عليّ حقي»**.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) خصائص وأسرار تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم»، ص١١٤.

محمّد ﷺ صلاةٌ وصلةٌ ووصال

قال الفضيل بن يَسَار: دخلتُ على أبي عبد الله الحسين عليه السلام أنا ومحمّد بن مسلم فقلْنا: «ما لنا وللناس، بكم والله نأتَمّ، وعنكم نأخذ، ولكم والله نُسَلِّم، ومَن وَلَّيتُم والله تَوَلَّينا، ومَن بَرِئتم منه بَرِئْنا منه، ومَن كَفَفْتُم عنه كَفَفْنا عنه. فرفعَ أبو عبدالله عليه السلام يدَه إلى السّماء فقال: واللهِ هذا هو الحقُّ المبين»[1]، هذه الرواية هي دستورٌ ومنهجٌ للشيعيّ الموالي في سيْرِهِ وسلوكِه، فهل تنطبقُ هذه الروايةُ علينا؟ هل هذا هو حالُنا مع إمامِ زماننا؟ نلتفتُ إليه وحدَه دونَ الناسِ ونأتمُّ به ونأخذُ عنه، لا عن غيره أيًّا يَكُن، ونُسلِّم له ونتولّاه ونتبرأُ من عدوِّه؟

قال نبيُّنا الأعظم ﷺ: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين، كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي وإنّهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ ما إنْ تمسّكْتم بهما لن تضلّوا»[2]. لقد ترَكَ لنا النبيّ الأعظم ﷺ كتابَ الله وعترتَه، فهل نعرف ما هو كتابُ الله تعالى ومَن هم عترةُ النبيّ ﷺ؟ وما دُمْنا لا نعرفُهما، كيف لنا أن نتمسّكَ بهما؟ والسّؤالُ الأهمّ: من أين ينبغي علينا أن نأخذَ هذه المعرفة؟ ورد في الروايةِ السّابقة: «وعنكم نأخذ»، إذًا، فنحن من رواياتِ

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٢ ص٢٢٦.

أهلِ البيت عليهم السلام نتعرّفُ عليهم. والإمامُ الصّادق عليه السلام يقول: «مَن لم يعرفْ أمْرَنا من القرآن لم يتنكّبِ الفتن»[1]، فإذا لم يعرف الإنسانُ أمرَ الإمامِ وحقيقتَه ومقامَه ومنزلتَه، سيقعُ في الفتنِ والمِحَن ولن يستطيعَ الخروج منها. فلنعرفِ الإمامَ بلسانِ الإمام؛ يقولُ أمير المؤمنين عليه السلام: «الإمامُ كلمةُ[2] الله وحجّةُ الله ووجهُ الله ونورُ الله وحجابُ الله وآيةُ الله... ظاهرُه أمرٌ لا يُمْلَكُ وباطنُه غيبٌ لا يُدْرَك، واحدُ دهرِه وخليفةُ الله في نهيه وأمْرِه، لا يوجدُ له مثيلٌ ولا يقومُ له بديل، فمَن ذا ينالُ معرفتَنا أو يعرفُ درجتَنا أو يشهدُ كرامتَنا أو يدركُ منزلتَنا، حارَتِ الألبابُ والعقولُ وتاهتِ الأفهامُ في ما أقول، تصاغَرتِ العظماءُ وتقاصَرَتِ العلماءُ وكلَّتِ الشّعراءُ وخَرِسَت البُلَغاء ولكنَتِ الخطباء وعجزَتِ الفصحاء وتواضعَتِ الأرضُ والسّماءُ عن وصفِ شأنِ الأولياء... والإمامُ يا طارق بشرٌ ملكيّ وجسدٌ سماويّ وأمْرٌ إلهيّ وروحٌ قدسيّ ومقامٌ عليّ ونورٌ جليّ وسرٌّ خفيّ، فهو ملكيُّ الذاتِ إلهيُّ الصّفات...»[3]، فكلُّ الوجودِ يعجزُ عن وصفِ شأنِ الإمام صلوات الله وسلامه عليه.

نُذَكِّرُ بالرواية القائلة: «مَن لم يَعْرِفْ أمْرَنا من القرآن لم يَتَنكَّبِ الفِتَن»؛ لدى المخالفين وبعضِ الشيعة، الذين عاشروهم، اعتقادٌ راسخٌ بأنّ مقامَ جبرئيل أعظمُ من مقامِ النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وهذا غير صحيح، فالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله يقول: «لي مع الله وقتٌ لا يسعُه مَلَكٌ مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا مؤمن امتحنَ الله قلبَه للإيمان»[4]، وجبرائيل من الملائكةِ المقرّبين. كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما خَلَقَ اللهُ خَلْقًا أفضلَ منّي ولا أكرَمَ عليه منّي.

---

(١) الكافي، ج١ ص٧.

(٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، سورة يونس، آية ٨٢.

(٣) بحارالأنوار، ج٢٥ ص١٦٩ ـ ١٧٤ ب٤؛ مشارق أنوار اليقين، ص١١٤ ـ ١١٧.

(٤) بحار الأنوار، ج١٨ ص٣٦٠.

قال عليّ عليه السلام: فقلتُ: يا رسول الله، فأنت أفضلُ أم جبرئيل؟ فقال ﷺ: يا عليّ، إنّ الله تبارك وتعالى فضّلَ أنبياءَه المرسَلين على ملائكتِه المقرّبين وفضّلَني على جميعِ النبيّين والمرسَلين والفَضلُ بعدي لك يا عليّ وللأئمّةِ من بعدِك وإنّ الملائكة لخدّامُنا وخدّامُ محبّينا»[1]. ورسولُ الله ﷺ يقول أيضًا: «أنا من الله والكلُّ مني»[2]، و«كنتُ نبيًّا وآدمَ بين الماء والطين»[3]، فهذا يعني أنّه ﷺ كان نبيًّا قبلَ وجودِه العنصريّ في هذا العالم، لا أنّه أصبح نبيًّا حين بلغَ الأربعين من العمر، وكذلك يقول مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «كنتُ وليًّا وآدم بين الماء والطين»[4]، ذلك أنّ عليًّا عليه السلام هو نفسُ رسولِ الله ﷺ بنصّ القرآن الكريم في آيةِ المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[5]، فالّذي كان حاضرًا وقتَ المباهلة هو رسول الله وأمير المؤمنين والسيدة فاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، فمحمّد وعليّ هما نفسٌ واحدة، والله تعالى يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[6] ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[7].

إذًا، كان رسولُ الله ﷺ نبيًّا قبلَ وجودِه العنصريّ في هذا العالمِ وبالتالي كان واصلًا إلى الحقيقةِ قبلَ أن ينزلَ عليه القرآن، بدليلِ خطابِ الله تعالى له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[8]، أي لا

(١) عيون أخبار الرضا، ج٢ ص٢٣٧.
(٢) الأربعين في حبّ أمير المؤمنين، ج١ ص١٤٥.
(٣) بحار الأنوار، ج١٦ ص٤٠٢.
(٤) بحر المعارف، ص٤٥٧.
(٥) سورة آل عمران، آية ٦١.
(٦) سورة النساء، آية ١.
(٧) سورة لقمان، آية ٢٨.
(٨) سورة طه، آية ١١٤.

تقرأ القرآنَ قبلَ أن يَنزِلَ عليك جبرئيلُ بالوحي، وقوله كذلك: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1]، تأكيدٌ على أنّ النبيّ ﷺ كان على علمٍ مُسبَقٍ بالسُّوَرِ والآياتِ القرآنيّة التي كانت تنزلُ عليه، فالقرآنُ الكريم بكلِّه كان موجودًا عنده ﷺ من قبلِ نزولِ الوحي، ولكنّ تنزيلَ القرآنِ وظهورَه كان من أجلِ النّاس.

إنّ جبرئيل هو مظهرُ العقلِ الكلّي، وكان يستمدُّ الحقائقَ من باطنِ رسولِ الله ﷺ، ثمّ يُترجِمُها بقالبِ الألفاظِ والكلماتِ والأحرف، وينقلُها إلى النبيّ ﷺ ظاهرًا، فالحقيقةُ أنّ جبرائيل كان يأخذُ من رسول الله إليه وكان واسطةً للفيضِ بين النبي والخلق. والله عزّ وجلّ يصفُ نبيَّه الأعظم ﷺ بالقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[2] فرسولُ الله ﷺ هو الذّكر، حيث يقول ﷺ: «الذِّكْرُ أنا»[3]، وأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول: «فأنا الذِّكْر الذي عنه ضلّ... والقرآن الذي إياه هُجِر»[4]، وكما قلنا فإنّ محمّدًا وعليًّا صلوات الله عليهما نفسٌ واحدة، فالرسول ﷺ هو القرآن أيضًا. وبالتوازي، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[5]، فرسولُ الله ﷺ هو نفسُ الوحي الذي يوحَى، وكلُّ ما اشتُقَّ من الوحي يرتبطُ به. لهذا، ينبغي أن نُعيدَ النّظرَ بمعرفتِنا بالنبيّ ﷺ.

ولنُتابعْ مسألةَ معرفةِ رسول الله ﷺ بالنظرِ في القرآن الكريم الذي هو الحَكَمُ في كلّ شيء. يتوجّهُ الله عزّ وجلّ إلى رسولِه ﷺ بالقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[6]، ماذا يعني: «ألم ترَ»؟ أليس معناها: ألم تشاهد؟ فرسولُ الله ﷺ كان موجودًا قبلَ خلقِ السماوات

(١) سورة القيامة، آية ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.
(٢) سورة يس، آية ٦٩.
(٣) الكافي، ج١ ص٢١٠.
(٤) تفسير البرهان، ج٤ ص١٣٢.
(٥) سورة النجم، آية ٤.
(٦) سورة إبراهيم، آية ١٩.

والأرض وشهِدَ خلقَهما، وفي روايةٍ عن الإمام الجواد عليه السلام يقول: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يَزَلْ متفرّدًا بوحدانيّتِه ثم خلقَ محمّدًا وعليًّا وفاطمة صلوات الله عليهم فمكثُوا ألفَ دهرٍ ثم خلقَ جميعَ الأشياء فأشْهَدَهُم خَلْقَها وأجرى طاعتَهم عليها وفوّض أمورَها إليهم فهم يُحِلّون ما يشاؤون ويُحَرّمون ما يشاؤون ولن يشاؤوا إلا أن يشاءَ الله تبارك وتعالى. يا محمّد، هذه الديانةُ مَن (تقدّمها) مَرقَ ومَن تخلّفَ عنها محقَ ومَن لَزِمَها لَحِق، خذْها إليك يا محمّد»[1]. كما يقول تعالى لرسوله الأكرم ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[2]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[3]، ممّا يعني أنّ النبيّ الأعظم ﷺ كان موجودًا، بغضّ النظرِ عن كيفيّةِ وجودِه سواء نورًا أو روحًا أو غير ذلك، ويرى النبيّ موسى والنبيّ إبراهيم ويشاهدُ كلَّ ما يجري عليهما وعلى كلِّ الأنبياءِ في كلِّ الأزمنة.

هناك الكثيرُ من مثيلاتِ هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[4]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[5] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾[6] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[7] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾[8]، كلُّ الآياتِ القرآنية التي يخاطبُ الله تعالى فيها نبيَّه بعبارةِ «ألم ترَ» هي دليلٌ على مشاهدةِ النبيّ الأعظم ﷺ لكلِّ تلكَ الوقائعِ

(١) الكافي، ج١ ص٤٤١.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٤٦.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٨.
(٤) سورة الحجّ، آية ١٨.
(٥) سورة الحجّ، آية ٦٣.
(٦) سورة النور، آية ٤١.
(٧) سورة لقمان، آية ٢٩.
(٨) سورة فاطر، آية ٢٧.

والحقائق، مِن خَلْقِ السماوات والأرضِ ونزولِ الماء وتقلّبِ اللّيل والنهار. كما يخاطبُ الله تعالى نبيَّه ﷺ بالقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[1]، ما هو الظلّ؟ إنّه عبارةٌ عن الموجودات، فمَدُّ الظلِّ يعني خَلْقَ الموجودات، ولو شاءَ الله ما خَلَق شيئًا على الإطلاق.

علينا أن نقرأ القرآنَ الكريم بتدبّرٍ وتمعّنٍ وتفكّر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]، فها هو النبيّ الأعظم ﷺ بنصّ كتابِ الله تعالى، كان شاهدًا على خلقِ المخلوقاتِ والموجودات، وقد نزلَ مع أهلِ البيت عليهم السلام إلى هذه الدنيا لكي يُخرِجونا من الظلماتِ إلى النور، «خَلَقَكُمُ الله أَنْوارًا فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ حَتّى مَنَّ عَلَيْنا بِكُمْ»[3]. وعلى الرغمِ من وضوحِ كلامِ الله تعالى، إلا أنّ المخالفين وبعضَ الشيعة يفسّرون «ألم ترَ» بـ«ألم تسمع» و«ألم تعلم» وكأنّ الله تعالى لا يعرفُ أيَّ كلمةٍ يجب أن تُقال؟ فمعنى الرؤيةِ مختلفٌ كليًّا عن السّمَع، ولو كان الله تعالى يريد أن يقولَ للرّسول: ألم تسمع، لقال. إنهم يُشيعون هذا التفسيرَ فقط لكي يُنكِروا مقامَ النبيّ الأعظم ويَنْفوا حقيقةَ امتلاكِه وجودًا سابقًا لوجودِه العنصريّ في هذا العالم، إلا أنَّ ما يُنكِرونه، في الواقع، هو كتابُ الله تعالى. بالله عليكم، كم مرّةً قَرَأْتُم القرآن؟ هل يَصْعُبُ فهمُ عبارة «ألم ترَ» على أنّ معناها: ألمْ تشاهد؟ هل عَرَفنا، الآن، لماذا حين يظهرُ مولانا صاحبُ الزمان عليه السلام يقول الناسُ إنّه أتى بدينٍ جديد؟ إنّه لن يأتي بدينٍ جديد بل سيأتي بدينٍ من كتابِ الله الموجودِ بينَ أيدينا ولكنّه سيكون جديدًا بالنسبة إلينا نحن! أوَلم تستغربوا الآن معنى الآياتِ التي ذكرناها؟ مع العلمِ أنّها ليست بجديدة.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[4] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة الفرقان، آية ٤٥.
(٢) سورة محمد، آية ٢٤.
(٣) الزيارة الجامعة الكبيرة.
(٤) سورة الحجّ، آية ٦٥.

جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١]، إلى مَن يتوجّهُ الله تعالى بـ«لكم»؟ تشير «لكم» إلى الأئمة عليهم السلام، فالله عزّ وجلّ سخّرَ كلَّ ما في الأرض لأهلِ البيت عليهم السلام، ألا نقرأ في حديثِ الكساء: «ما خَلَقتُ سَماءً مَبنِيَّةً وَلا أرضًا مَدحيَّةً وَلا قَمَرًا مُنيرًا وَلا شَمسًا مُضيئةً وَلا فَلَكًا يَدُورُ وَلا بَحرًا يَجري وَلا فُلكًا يَسري إلاّ في مَحَبَّةِ هؤلاءِ الخَمسَةِ الَّذينَ هُم تَحتَ الكِساءِ»؟ هل سخّرَ الله تعالى لنا ما في الأرض؟ لا، إنّ هذا لهم فقط، فهذه الآية تدلُّ على الولايةِ التكوينيةِ لأهلِ البيت عليهم السلام. كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[٢]، مَن هم الذين أعطاهم الله عزّ وجل كلَّ شيء سألوه إياه؟ هل أعطانا اللهُ كلَّ شيءٍ سألْناه إياه نحن؟ هل أعطى اللهُ أنبياءَه كلَّ ما سألوه؟ لقد أرادَ النبيّ موسى عليه السلام أن يتعلّمَ من الخضرِ فلم يحصلْ على ما أراد، إذًا فحتى الأنبياء لم يُعطَوا سُؤلَهم كلّه. وحدُهم أهلُ البيت عليهم السلام هم مَن أُعطوا كلَّ شيء. وقد قال سيّدُ الشهداء الحسين بن عليّ صلوات الله وسلامه عليهما: «والله ما خَلَقَ اللهُ شيئًا، إلا وقد أمَرَه بالطّاعةِ لنا»[٣]، وهذه الطاعةُ تكوينيةٌ لا تشريعية. فهم إنْ شاؤوا، تصرّفوا بهذه الموجوداتِ بما أمَرَها الله عزّ وجلّ بالطّاعةِ لأهلِ البيت طاعةً باطنيّةً جبريّة، وهم بمقدورِهم أن يفعلوا ما يشاؤون، لأنّ اللهَ سخّرَ لهم ما في السماوات وما في الأرض، إلا أنّهم يتركون الأمورَ لتجري في مجاريها الطبيعيّة.

إنّنا نجهلُ مقاماتِ أهلِ البيت عليهم السلام، «مَنْ لم يعرفْ أمْرَنا (أي مقامَنا) من القرآن، لن يتنكّب الفِتَن»[٤] أي لن يعرفَ الحقَّ مع مَن هو. ألم يكن بمقدورِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يقضي على كلّ مَن دخلوا دارَه وكَسَروا ضلعَ السيّدة فاطمة عليها السلام؟ ألم يكن قادرًا على إيقافِهم

(١) سورة الجاثية، آية ١٣.
(٢) سورة إبراهيم، آية ٣٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٦ ص٢٤٠.
(٤) الكافي، ج١ ص٧.

وإبعادِهم عنها وهي التي ماتَتْ من كثرةِ الضرب، كما قال إمامنا الصّادق عليه السلام؟ بلى، كان قادرًا ولكنّ الله لم يشأ ذلك، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1]. إنّ أهلَ البيتِ عليهم السلام ليسوا مثلَنا، بحيث أنّه إذا نزلَ عليهم بلاءٌ يلجأون فورًا إلى الدعاءِ ويستخدمون كلَّ ما لديهم من قدراتٍ حتى يرفعوه عنهم، فهم مع ما لهم من ولايةٍ وتصرّفٍ في الكون، إلا أنّ أمْرَهم دائمًا أمرُ الله ونهيَهم نهيُ الله، لا يسبقون اللهَ تعالى بقولٍ ولا بفعلٍ ولا بتفكيرٍ ولا بخاطرةٍ ولا بأيّ شيءٍ آخر، بل بأمرِه يعملون. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، فعندما يشاءُ محمّدٌ وعليٌّ صلى الله عليهما وآلهما معنى ذلك أنّ اللهَ تعالى قد شاء، فهؤلاء هم أهلُ البيت عليهم السلام.

وإليكم هذه الرواية التي تبيّنُ جانبًا من شأنِ الرسولِ الأعظم صلى الله عليه وآله، فقد وردَ عن أبي بصير عمّن روى عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «جاءَ قومٌ من المنافقين إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله (المنافقون هم الذين ظاهرُهم الإسلام وباطنُهم الكفر) وقالوا: زَعَمْتَ يا محمّد أنّ الله تبارك وتعالى اتخذَ إبراهيمَ خليلًا، فما الذي صنعَ بك؟ قال: اتخذَني حبيبًا والحبيبُ أقربُ من الخليلِ إلى خليله. قالوا: فإنّك زَعَمْتَ أن اللهَ كلّمَ موسى تكليمًا، فما صنعَ بك؟ قال: صَنَع بي ما صنعَ بموسى وزادَني عليه أنّ اللهَ كلّمَه فوقَ الأرضِ وكلّمَني في حُجُبِ النورِ فوقَ السّماء. قالوا: إنك زَعَمْتَ أنّ اللهَ ألانَ الحديدَ لداود حتى عَجَنَه بيدِه بلا نارٍ وقدّره في السّرد وعمِل منه الدّروع والخوذ، فما الذي صنعَ بك؟ قال: صنعَ بي ما صنعَ بداود وزادَني عليه أنّي علوتُ على جبلِ أبي قُبيس على ناقتي العضباء مُشرفًا على جميعِكم وأنتم تريدون إخراجي من مكة فَرَكِبْتُ ناقتي في الحجرِ الصّلد في رأسِ أبي قُبيس، ولُيِّن لي الحجرُ حتى غاصَت وهي باركةٌ وانقلبْتُ مستلقيًا على قفاي

(١) سورة الأنبياء، آية ٢٦.
(٢) سورة التكوير، آية ٢٩.

فَلَانَ لي الحجرُ حتى تبيّنَتْ لي صورةُ ظهري وقفاي وتخطيطُ شعري في الحجر، وها أنتم تنظرون إليه ولن يخفى ذلك الأثرُ ما دامَت السماواتُ والأرض»[1]، (لا يزالُ جبلُ أبي قبيس موجودًا بمكّة، فاللّعناءُ تمكّنوا من أن يخفوا كلَّ شيءٍ يتعلقُّ بمعاجزِ رسول الله ﷺ وبأهلِ البيت عليهم السلام، ولكن كيف لهم أن يخفوا جبلًا؟!) قال الحسين بن حمدان الخصيب صاحبُ الكتابِ الذي تُنقَلُ فيه هذه الرواية: «أنا رأيتُ مَبْرَكَ النّاقةِ وأثرَ رداءِ رسول الله في الحَجر فوقَ الجبلِ سنة إثنين وثمانين ومئتين قبل أن حججْتُ، ومعي جمعٌ كثيرٌ من الحجاج، وتمسّحْنا بالموضعِ وصلّيْنا عنده». نُكمل الرواية: «وهذا سيفٌ من أسيافِكم فأعطونيه، حتى أجعلَه ما شئتم بيدي، فقالوا: هذا سيفٌ من أسيافِنا فقطّعْه لنا إبْرًا مُثقَبة إلى الأسفلِ بلا نار، فأخذَ رسول الله ﷺ سيفًا من أسيافهم فلم يزلْ يقطّعُه بيده إبْرًا مُثقَبة إلى الأسفلِ بلا نارٍ حتى (أتى) على آخرِه. وقال: أتحبّونَ أن أقطعَ لكم حمائلَه إبرًا؟ قالوا: هو مِن أديم يا محمّد. قال: يجعلُه الله حديدًا، (إذا لم يملكِ الإنسانُ نورًا بباطنه، لن يصدّقَ الرسولَ ولو رأى ألفَ معجزةٍ في الظاهر، ولهذا كان الكفّارُ يتّهمونه وأميرَ المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما بالسّحر)، وضربَ بيدِه المباركة إلى حصًى رضراضٍ كان جالسًا عليه فقبضَ منه قبضةً وقال: يا حصى، سبِّح اللهَ بكل لغةٍ في كفّي، فنطقَ ذلك الحصى بثلاثٍ وسبعين لغة يُثبِتُها من عَرَفها بتسبيحِ الله وتقديسِه وتمجيدِه، والشهادةُ لرسولِ الله بالرسالةِ ولعليٍّ بالإمامة. (هل آمنوا؟ لا، بل أكملوا كلامَهم) قالوا: يا محمّد، فقد زعمْتَ أنّ داود كانت تسبّحُ معه الجبالُ بالعشيّ والإشراقِ والطّيرُ محشورةٌ كلٌّ له أوّاب. قال النبي ﷺ: أنظروا بأعْيُنِكم واسمعوا بآذانكم ماذا تجيبُ الجبال، ثم صاحَ رسولُ الله ﷺ: يا جبالَ مكة ومَن حولها والريحَ والتّلاعَ أجيبيني بإذنِ الله ويا أيّها الطير آوي

(١) الهداية الكبرى، ص٦٧.

إليّ بإذن الله. قال: فصاحت جبالُ مكة وما حولها والريحُ والتلاعُ وكلُّ شُعبٍ بمكة لبيكَ لبيكَ يا رسولَ الله إجابةً لدعوتِك وطاعةً لأمرك، وأقْبَلَتِ الطيورُ من كلِّ جانبٍ صغارًا وكبارًا، بريًا وبحريًّا وجبليًّا وسهليًّا حتى انفرشَت بمكة وسطوحاتها وطرقاتها وحَجَبَتِ الطيرُ السّماءَ بأجنحتِها عنهم. فقال المنافقون: فقد زعمْتَ أنّ الله أعطى لعيسى إحياءَ الميّتِ وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ وأن يَخْلُقَ من الطينِ كهيئةِ الطيرِ فينفخُ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ونَبّأَ بني إسرائيل بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم ونحن نسألُك أن تُحيي لنا ميتًا. (عندما وجدَهم النبيّ ﷺ لا يزدادون إلا عنادًا مع كلِّ مُعجزة، سلّطَ عليهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام). فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وقال له: ائتني ببردتَي السّحابِ وقضيبَي الممشوق ثم كلِّمَه بكلامٍ خفيّ لا يُفهَم، (كان أهلُ البيت عليهم السلام يتكلّمون مع بعضهم البعض أكثرَ الأحيان باللّغةِ السّريانية حين لا يريدون إفهامَ مَن حولهم)، ثم قال: إنطلقْ يا عليّ معهم إلى بلاطةٍ من بلاطِهم فأَحْيي لهم مَن أرادوا من الموتى، فلمّا انتهوا إلى البلاطةِ بظهرِ شعبِ بني سعد، قالوا: يا عليّ، هذا قبرُ سيّدٍ من ساداتِنا من أكابرِ قريش وقد ماتَ قريبًا وقد دفنّاه بالأمسِ وهو قريبُ العهد بالحياة، أَحْيِه لنا حتى نسألَه. فدنا أمير المؤمنين من القبرِ وتكلّمَ بكلامٍ خفيٍّ ثم ركلَ القبرَ برجلِه، فارتجّتِ الأرضُ وزُلزِلَتْ حتى خافوا على أنفسهم، (ظلّوا يطلبون المعجزاتِ من النبيّ ﷺ حتى أرسلَ معهم أميرَ المؤمنين عليه السلام ليهزَّ لهم العصا التي بداخلِهم ويخافوا على أنفسهم)، فقالوا: يا عليّ، أقِلْنا، أقالكَ اللهُ، فقال عليّ: ليس الأمرُ لي، بل الأمرُ إلى رسول الله، وهذا ميّتُكم فكلّموه فإذا هم بالقبرِ قد انشقَّ وخرجَ الرجلُ من أكفانِه بعينِه واسمِه ونسَبِه فقال: يا ويلكم يا منافقِي قريش، ما أجرأكم على ما أنا فيه من العذاب، أوَلم أؤمنْ بمحمد حتى شهرتموني في الدنيا؟ (تبيّن أنّهم مَن قتله لأنّه كان على وشكِ أن يؤمِنَ

بمحمّد ﷺ)، فولّوا هاربين إلى رسولِ الله. قالوا: يا رسولَ الله، أقِلْنا أقالَك الله. فقال رسول الله ﷺ: إنكم لا تتمرّدون عليّ وإنما تمرّدُكم على الله، اللّهم لا تُقِلْهم فإنّي لا أُقيلُهم، فأرسلَ النبي ﷺ إلى أمير المؤمنين بعد أن رَدَّ الميتَ في قبره، فكان هذا من دلائلِه ﷺ»[1].

ختامًا، نُسلّط الضوءَ على سِمةٍ فريدةٍ امتاز بها رسولُ الله ﷺ ولكنّ أغلبَ الناس يجهلُونها. لقد كان الرسولُ الأعظم محمّد ﷺ مظهرًا تامًّا للجمال الإلهيّ، إذ تجلّت فيه مراتب الجمال كلّها. ومن المعلوم أن للجمال مراتب قد تتجلّى إحداها أو أكثر في شخصٍ ما، ومنها: جمالُ الإطلالة: الذي يظهر بجمالِ الوجه والهيئة ويبعثُ السّرورَ في قلب النّاظِر. جمالُ اللّسان: حيث يؤمِّنُ كلامُ صاحب هذه المرتبة الجمالية الحنانَ والطّمأنينة والأمان والأنسَ للقلب، في حين يؤمِّنُ للعقلِ الحكمةَ. جمالُ العينَين: بحيث إذا رمَق أحدًا بطَرْفِه يأسِرُه ويغيّرُ وجودَه. جمالُ اليدَين: يكفي أن تُسَلِّمَ عليه حتى تشعُرَ بالودِّ والحبِّ والأمانِ والسَّكينة. جمالُ الأذُنَيْن: بحيث إذا تكلَّمْتَ أمامَه، يُصغي إليك ويَسمَعُك باهتمام، فتشعر بالأُنس والرّاحة، وإذا كرّر كلامَك، يبعثُ فيك إحساسًا مختلفًا وتجدُ كلامَه أكثر جمالًا. جمالُ الحُضْن: ويبعثُ في القلبِ الطمأنينةَ والأمانَ والسَّكينةَ. من الصّعبِ للغاية أن نجدَ شخصًا جامعًا لكلّ مراتبِ الجمال هذه، غير أنها مجموعةٌ فقط بشخصِ النبيّ محمّد ﷺ، ومنه تَسْرِي في بقيّة الأشياء، فكلُّ الجمال الذي نراه في هذا العالم ناشئٌ من الجمال المحمّدي الذي هو أصلُ الجمال في الوجود فقد أسَرَ الكونَ بجمالِ وجهِه وعينيه ويديه وصوتِه وحنانِه ورحمتِه، وتقول الروايةُ عن أبي عبد الله عليه السلام: «استأذَنَتْ زُليخا على يوسف عليه السلام، فقيل لها: إنا نكرهُ أن نَقْدِمَ بكِ عليه لِمَا كان منك إليه، قالت: إني لا أخافُ من يخافُ اللهَ، فلما دخَلَتْ قال

(١) الهداية الكبرى، ص٦٧ ـ ٦٨.

لها: يا زليخا، مالي أراكِ قد تغيَّر لونُك؟ قالت: الحمد لله الذي جعلَ الملوكَ بمَعْصِيَتِهم عبيدًا، وجعلَ العبيدَ بطاعَتِهم مُلوكًا. قال لها: ما الذي دعاكِ يا زليخا إلى ما كان منك؟ قالت: حُسْنُ وجهِكَ يا يوسف. فقال: كيف لو رأيتِ نبيًّا يقالُ له محمّد ﷺ يكون في آخرِ الزمان أحسنَ منّي وجهًا وأحسنَ مني خُلُقًا وأسمَحَ مني كفًّا؟ قالت: صدقتَ. قال: وكيف علمتِ إني صدَقتُ؟ قالت: لأنك حين ذكرتَه وقع حبُّه في قلبي. فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف عليه السلام إنّها قد صدَقَتْ، إني قد أحببتُها لِحُبّها محمّدًا ﷺ، فأمَرَه الله تبارك وتعالى أن يتزوّجها»[1]. ويُروى أنّها بعدما تزوّجت به، استحوذَ الجمالُ المحمديّ على كلِّ وجودِها وطغى على حبِّها للنبيّ يوسف عليه السلام وتَعَلُّقِها به، وكلُّ هذا لمجرّدِ سماعِها عن الجمال المحمدي من لسان النبيّ يوسف عليه السلام الذي عبّر عمّا هو مكنونٌ في قلبه.

و«السلامُ من الله والتسليمُ على محمّدٍ أمينِ الله على رسالتِه وعزائمِ أمرِه ومعدنِ الوحي والتنزيلِ الخاتمِ لما سَبَق والفاتحِ لما استُقبِلَ والمهَيمِنِ على ذلك كلّه والشاهدِ على الخلق، السّراجِ المُنيرِ والسلامُ عليه ورحمة الله وبركاته»[2]. وهو الذي بُعِث رحمةً للعالمين، فكان الناس نقمةً عليه وعلى أهل بيته، «فَلَوْ عايَنَكُمُ المُصْطَفى وَسِهامُ الأُمَّةِ مُغْرَقَةٌ فِي أَكْبادِكُمْ وَرِماحُهُمْ مُشْرَعَةٌ فِي نُحُورِكُمْ وَسُيُوفُها مُولَغَةٌ فِي دِمائِكُمْ؛ يَشْفِي أَبْناءُ العَواهِرِ غَلِيلَ الفِسْقِ مِنْ وَرَعِكُمْ وَغَيْظَ الكُفْرِ مِنْ إِيمانِكُمْ وَأَنْتُمْ بَيْنَ صَرِيعٍ فِي المِحْرابِ قَدْ فَلَقَ السَّيْفُ هامَتَهُ، وَشَهِيدٍ فَوْقَ الجَنازَةِ قَدْ شُكَّتْ أَكْفانُهُ بِالسِّهامِ، وَقَتِيلٍ بِالعَراءِ قَدْ رُفِعَ فَوْقَ القَناةِ رَأْسُهُ...»[3].

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٢ ص٢٨١؛ عدّة الداعي، ص١٦٤؛ علل الشرائع، ج١ ص٥٥.

(٢) تهذيب الأحكام، ج٦ ص٢٥.

(٣) الزيارة الجامعة لأئمة المؤمنين، مفاتيح الجنان.

ولاية عليٍّ ولاية الله

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1] كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى جعل لأخي عليّ بن أبي طالب فضائلَ لا يُحصي عددَها غيرُه»[2]؛ فهذه النعمة هي نعمة الولاية، «فمَنْ ذكرَ فضيلةً من فضائلِه مُقرًّا بها؛ غفرَ الله له ما تقدّمَ من ذنبِه وما تأخّرَ، ولو وافى يومَ القيامةِ بذنوبِ الثقلين»، فأحيانًا يتكلم الإنسانُ بروايةٍ أو فضيلةٍ ولكنّه يكون شاكًّا فيها وغيرَ متيَقّنٍ بها، أمّا إذا كان مُقرًّا بتلك الفضيلة، فالله يغفرُ له ما تقدّمَ من ذنبِه وما تأخّر، ولو كانَتْ ذنوبُه بقدرِ ذنوبِ الإنسِ والجنّ! وعندما يتكلّمُ الإنسانُ عن فضيلةٍ من فضائلِ أمير المؤمنين أو حتى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام نفسه فهو يُثبتُ بذلك عظمةَ الله تعالى وقدرته، في حين أنّ مَن يستثقلُ هذه المنقبة أو تلك الفضيلةَ فكأنّه يقول إنّ الله عزّ وجل لا يقدرُ على أن يخلق مخلوقًا بهذه العظمة، فيكون بذلك قد استخفّ بقدرةِ الله عزّ وجلّ.

«ومَن كتب فضيلةً من فضائلِ عليّ بن أبي طالب، لم تزلِ الملائكةُ تغفر له ما بَقِيَ لتلك الكتابة رَسْمٌ»؛ فهذه العبارةُ لها علاقةٌ بكتابةِ وطباعةِ الكتب

---

(١) سورة النحل، آية ١٨.

(٢) أمالي الصدوق، ص٢٠١ ح١٠.

عن فضائلِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، «ومَن استمعَ إلى فضيلةٍ من فضائل عليّ بن أبي طالب غفرَ الله له الذنوبَ التي اكتسبَها بالإستماع»؛ فالذنوبُ المتأتيّةُ من سماعِ الغيبةِ والنميمةِ والغناء، مثلًا، تُغفرُ بالاستماعِ إلى فضيلةٍ من فضائلِ أمير المؤمنين عليه السلام. «ومَن نظرَ إلى كتابةٍ في فضائلِه غفرَ الله له الذنوبَ التي اكتسبَها بالنظر»؛ وهكذا تطهرُ العينُ التي نظرَتْ إلى الحرامِ لأنّ العينَ الملوّثةَ التي ترى الحرامَ لا تقدرُ على رؤيةِ صاحب الزمان عليه السلام، ولذلك وجَبَ تطهيرُها. ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «النظرُ إلى عليٍّ عبادةٌ وذكرُه عبادة»[1].

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «خيرُ النّاسِ مِن بعدنا مَن ذاكرَ بأمرِنا ودعا إلى ذِكرنا»[2]، فهل نذكرُ أمرَهم سلام الله عليهم وهل ندعو الآخرين إلى ذكرهم؟ أو هل نجلسُ مع أولادِنا وأحبّائِنا في كلّ يومٍ ونذكرُ الروايات التي تبيّنُ مناقبَ أمير المؤمنين عليه السلام؟ إعلموا أنّه ليس أيًّا كان يُوفَّق لذكرِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ففي الرواية: «لا يقبلُ اللهُ إيمانَ عبدٍ إلّا بولايته والبراءةِ من أعدائه»[3]، فإذا كان عند الإنسانِ ولايةٌ لأهلِ البيت عليهم السلام ولكنّه يفتقرُ إلى البراءةِ الحقيقيّة من أعدائهم ـ أي الأوّل والثاني والثالث ـ لا يقبلُ الله عزّ وجل إيمانَه أصلًا. ومثلُ هذا الشخصِ لا يشعرُ بالأنسِ في صلاتِه ولا ينجذبُ لقراءةِ القرآنِ أو الدّعاء لأنّ ثمّةَ خللًا بولايتِه بسببِ عدمِ تبرُّئِه كما ينبغي من أعداءِ عليٍّ عليه السلام.

وفي ما يتعلّق بالبراءة الحقيقية، ينقل جابر بن يزيد الجعفي هذه الرواية: «شكوْتُ من بني أميّة وأشياعِهم إلى الإمام المبينِ أطهرِ الطاهرين زينِ

---

(١) أمالي الصدوق، ص٢٠١ ج١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج١ ص٢٠٠.

(٣) المناقب، ص ٣٢؛ عنه كشف الغمة، ج١ ص١٠٩.

العباد وسيّد الزهّاد وخليفةِ الله على العباد عليّ بن الحسين صلوات الله عليهما، فقلت: يا ابنَ رسول الله، قد قتلونا تحتَ كلّ حجرٍ ومَدَر واستأصلوا شأفتَنا وأعلنوا لَعْنَ مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على المنابرِ والمناراتِ والأسواقِ والطرقات، وتبرّؤوا منه حتّى أنهم لَيجتمعون في مسجدِ رسول الله ﷺ فيلعنون عليًّا عليه السلام علانيةً لا يُنكِرُ ذلك أحدٌ ولا ينْهَر... فدعا الإمام صلوات الله عليه وآله ابنَه محمّد عليه السلام فقال: يا بنيّ، قال: لبيك يا سيدي، قال: إذا كان غدًا، فاغدُ إلى مسجد رسول الله ﷺ وخذ معك الخيطَ الذي أُنزِلَ مع جبرئيل على جدّنا ﷺ فحرِّكْه تحريكًا ليّنًا ولا تحرّكْه شديدًا الله الله فيهلك الناس كلّهم. قال جابر: فبَقيتُ مُتفكِّرًا مُتعجّبًا من قوله عليه السلام، فما أدري ما أقول لمولاي عليه السلام. فغَدَوْت إلى محمد عليه السلام وقد بقي عليّ ليل، حِرْصًا أن أنظرَ إلى الخيطِ وتحريكه، فبينما أنا على دابّتي، إذ خرج الإمام عليه السلام فقُمْتُ وسَلّمْتُ عليه فردّ عليّ السّلام... قال جابر: فمضيتُ معه إلى المسجد فصلّى ركعتين ثم وضعَ خدَّه في التراب وتكلّمَ بكلماتٍ ثم رفعَ رأسَهُ وأخرجَ من كمّه خيطًا دقيقًا يفوحُ منه رائحةُ المسكِ وكان أدقَّ في المنظرِ من خيطِ المَخيط، ثم قال: خُذ إليك طَرَفَ الخيطِ وامشِ رويدًا وإياك ثم إياك أن تحرّكَه، قال: فأخذتُ طرَفَ الخيط ومشيت رويدًا... فقلت: ما فعلتَ به يا ابن رسول الله؟ قال: ويحك أُخْرُج إلى الناس وانظر ما حالهم، قال: فخرجتُ من المسجد فإذا صِياحٌ ووَلْوَلَة من كلِّ ناحية وزاوية وإذا زلزلة وهدّة ورجفة، وإذا الهدّةُ أَخْرَبَتْ عامّةَ دور المدينة وهلكَ تحتَها أكثرُ من ثلاثين ألفَ رجلٍ وامرأة... قال جابر: فبَقِيتُ مُتَحيِّرًا أنظر إلى الناس يبكون ويصيحون ويُوَلْوِلُون ويَغْدون زُمَرًا إلى المسجد فرحِمتُهُم حتى والله بَكِيتُ لبكائهم، وإذا لا يدرون من أين أتوا وأُخِذوا، فانصرفتُ إلى الإمام الباقر عليه السلام وقد اجتمعَ الناسُ له وهم يقولون: يا ابن رسول الله، ما ترى ما نزلَ بنا بحرمِ رسول الله ﷺ

وقد هلكَ الناسُ وماتوا فادْعُ اللهَ عزّ وجلّ لنا، فقال لهم: إفزعوا إلى الصلاةِ والصدقة والدعاء، ثم سألني فقال: يا جابر ما حالُ الناس؟ فقلت: يا سيّدي، لا تسأل، يا ابن رسول الله خَرِبَتِ الدّور والقصور، وهلكَ الناسُ ورأيتُهم بغيرِ رحمةٍ فَرَحِمْتُهم، فقال: لا رَحِمَهم الله أبدًا، أمَا إنّه قد بَقِيَ عليك بقيّةٌ لولا ذلك ما رَحِمْتَ أعداءَنا وأعداءَ أوليائنا، ثم قال عليه السلام: سُحْقًا سُحْقًا، بُعْدًا بُعْدًا للقوم الظالمين»[1].

فَلْنَنظرْ إلى قلوبنا، هل عندنا براءةٌ حقيقيّةٌ من أعداءِ عليّ عليه السلام؟ إذا لم يكنِ الأمرُ كذلك، لن يقبلَ اللهُ تعالى إيمانَنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا عبد الله، أحبِبْ في الله، وأبغضْ في الله، ووالِ في الله وعادِ في الله، فإنّك لا تنالُ ولايتَه إلا بذلك، ولا يجد رجلٌ طعمَ الإيمان، وإنْ كَثُرَت صلاتُه وصيامه، حتى يكون كذلك... (فسأل رجلٌ الرسولَ صلى الله عليه وآله عن السبيل إلى ذلك) فأشار له رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عليّ عليه السلام فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى، فقال صلى الله عليه وآله: وليُّ هذا وليُّ الله، فوالِه، وعدوُّ هذا عدوّ الله، فعادِه، ووالِ وليَّ هذا ولو أنه قاتلُ أبيك وولدك، وعادِ عدوّ هذا ولو أنّه أبوك وولدك»[2]. أليس جابرٌ هو مَن أتى إلى الإمام وشكى له ما يفعله بنو أميّة؟! ومع ذلك رحِمَهم لمّا نزل العذابُ عليهم! لقد أنزل الإمام عليه السلام العذابَ عليهم لأنه أمْرُ الله عزّ وجلّ، ألا نقول في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وأمره إليكم»[3]؟ فهم إرادةُ الله وأمره تبارك وتعالى. ولتقريبِ الصورة، أنظروا إلى الروح والجسد، فبالروحِ يمشي الإنسانُ ويرى ويسمع ولكنّها غير ظاهرةٍ في عالمِ المادّة ولا علاقة لها به، وهكذا فإنّ الله عزّ وجلّ يرى

(١) صحيفة الأبرار، ج٤.
(٢) الأمالي، ص ٦١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٩٧ ص ٣٤٤.

ويُبصر ويبطش ويتكلم بأهل البيت عليهم السلام وقد ورد في الحديث القدسيّ: «...وما تقرَّب إليّ عبدٌ بشيء أحبَّ إليّ مما افترضْتُ عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إنْ دعاني أجبْتُه وإن سألَني أعطيْتُه»[1]، وعندها «يتحوّلُ وجوده (أي الإنسان) إلى وجودِ حقّ، يرى الحقُّ سبحانه، في مرآةِ جماله، الموجودات الأخرى، بل يتحوّل إلى موجودٍ منسجمٍ مع المشيئة. وإذا كان الإنسان كاملًا، انسجمَ مع المشيئة المطلقة، وصارت روحانيّته عينَ مقامِ الظهور الفعلي للحق عزّ وجل. وفي هذه الصورة يرى به الحقُّ المتعالي ويسمع ويبطش، ويصيرُ هو الإرادةَ النافذة للحقّ ومشيئتَه الكاملة، وعلمَه الفعليّ»[2]. ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا يد الله»[3]، كما قال الإمام موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليهما عن الأئمة عليهم السلام: «فهؤلاء الناطقون المبلِّغون عنه، المتصرِّفون في أمره ونهيه، فبهم تظهر قدرته، ومنهم تُرَى آياته ومعجزاته، وبهم ومنهم عبادة نفسه، وبهم يُطاع أمرُه، ولولاهم ما عُرِفَ الله»[4]، فبأهلِ البيت عليهم السلام تظهرُ قدرة الله عزّ وجل وبهم يُعرَف الله تعالى حتى بالنّسبة للأنبياء، فلا يظنّنَّ أحدٌ أنه يستطيع أن يعرف الله عزّ وجلّ من غير طريقِ أهلِ البيت عليهم السلام.

عن كامل التمّار، قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «إجعلوا لنا ربًّا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم»، فمشكلةُ العَلَويّين تكمنُ في أنّهم لا يجعلون فوقَ

(١) الكافي، ج٢ ص٣٥٢.
(٢) الأربعون حديثًا، السيد روح الله الخميني، ص٥٢٧.
(٣) التوحيد، ص١٦٤.
(٤) بحار الأنوار، ج٣٥.

عليّ بن أبي طالب ربًّا، ثم قال: «ما عسى أن تقولوا؟ والله ما خرج إليكم من علمِنا إلا ألفًا غير معطوفة»[١]، فمِن أصلِ ثمانية وعشرين حرفًا، وهي أحرف الأبجدية، لم يخرج إلينا من أهل البيت عليهم السلام إلا حرفٌ واحد، أما بقيّةُ الأحرف فسيُظهِرُها صاحبُ الزمان عليه السلام حين يخرج، وهي عبارةٌ عن مقاماتهم وأسرارهم التي لا يعرفها أحد. فهل سيقدر الكلُّ على تحمّلِ هذه المقامات؟ لا ولهذا يقول له البعض: إرجعْ يابن فاطمة، لا حاجةَ لنا بك، فهنا يُبان طاهرُ المولِد ممّن هو غير ذلك.

قال الإمام عليّ عليه السلام: «كان الله ولا شيء معه»[٢]، أي قبل خلْقِ عالمِ الأنوار والأرواح وكلّ العوالم الأخرى، وحين سُئل الإمام عليه السلام أين كنتم؟ قال: «كنّا في كينونيته»[٣]، أي كنّا في هذا الـ «كان». وقال الله تعالى: «كنتُ كنزًا مخفيًا فأحبَبْتُ أن أُعرَفَ فخلقْتُ الخلقَ لكي أُعرَف»[٤]، عندما تحبّ شخصًا يبقى هذا الحبّ مكنونًا في داخلِكَ إلى أن تعبّر عنه بالكلام وعند ذلك يعرف ذلك الشّخص كم تحبّه، فهذه الأحرف والكلمات التي تخرج منّا هي عبارةٌ عن الخلقِ بالنسبة إلى الله تعالى، إذ إنّ أهلَ البيت عليهم السلام كانوا في كينونيته مكنونين إلى أن خلقَهم الله تعالى، ولذلك يقولون: «إنّا صنايع ربنا»[٥] فهم الخلقُ كلّ الخلق، حيث نقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وَأَجْسادُكُمْ فِي الأَجْسادِ، وَأَرْواحُكُمْ فِي الأَرْواحِ، وَأَنْفُسُكُمْ فِي النُّفُوسِ»، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإنَّ الدَّهرَ فينا

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص٥٩.
(٢) بحار الأنوار، ج١٥ ص٢٧.
(٣) الهداية الكبرى، ص٤٣٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٨٧ ص١٩٩.
(٥) الاحتجاج، ج١ ص٢٦٠.

قُسِمَتْ حُدُودُهُ ولنا أُخِذَتْ عُهُودُهُ»[١]، وحدُّ الشيء هو ماهيّته. وهم عليهم السلام أسماءُ الله الحسنى، «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبلُ الله من العباد عملًا إلا بمعرفتنا»[٢]، فلقد خلقَهم الله تعالى لكي يُعرَف بأسمائه، فأسماءُ الله عزّ وجلّ تدلُّ عليه وتشير إليه، ولكن ليست هي هوَ. لاحظوا، ما الذي يُخرج الكلامَ إلى الخارجِ حين يريدُ الإنسانُ أن يتكلّمَ بما هو مكنونٌ بباطنه؟ إنّه الهواء، ففي حالِ غيابِ الهواء لا يخرجُ الكلام من الحنجرة. فالعناصرُ الثلاثة اللازمة لتحقّقِ الكلامِ هي الأحرفُ والهواءُ والذاتُ المكنونة. فالذاتُ كأنّها الله عزّ وجل والهواءُ أهلُ البيت عليهم السلام والأحرف المخلوقات والموجودات، فلا يمكن أن تظهر هذه الموجودات بلا الهواء الذي هو أهل البيت عليهم السلام. وإذا استطعتَ أن تصف كيف هو الهواء، يمكنك عندها أن تصف كيف هم أهل البيت عليهم السلام! يقول تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[٣]، يعني أنّ كلّ بني آدم أصلُهم من نفخةٍ واحدةٍ من روح الله عزّ وجلّ، فما بالكم إذا نفخَ الله تعالى روحَه كلّها في أحدٍ ما، كيف يكون؟ لا يكون إلا كمحمّد وعليّ وفاطمة صلوات الله عليهم.

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤]، وقد ورد في الحديث: عن محمد بن جعفر الآدمي وأثنى عليه ابنُ غالب الحافظ عن أحمد بن عبيد بن ناصح، عن الحسين بن علوان، عن همام بن الحارث، عن وهب بن منبه قال: «إنّ موسى عليه السلام نظر ليلةَ الخطابِ إلى كلّ شجرةٍ في الطّور، وكلّ

(١) عقد الدُّرر، ص٩٠ ـ ٩٩.
(٢) الكافي، ج١ ص١٤٣.
(٣) سورة الحجر، آية ٢٩.
(٤) سورة القصص، آية ٣٠.

حجَرٍ ونباتٍ تنطقُ بذكرِ محمّد واثني عشر وصيًّا له من بعده، فقال موسى: إلهي، لا أرى شيئًا خَلَقْتَه إلا وهو ناطقٌ بذكرِ محمّد وأوصيائه الإثني عشر، فما منزلةُ هولاء عندك؟ قال: يا ابن عمران، إني خَلَقْتُهم قبل خَلْق الأنوار، وجَعَلْتُهُم في خزانة قُدْسي يرتعون في رياضِ مشيتي ويتنسّمون من روحِ جبروتي، ويشاهدون أقطارَ ملكوتي، حتى إذا شِئتُ مشيّتي، أَنْفَذْتُ قضائي وقدري. يا ابن عمران، إنّي سَبَقْتُ بهم استِبَاقِي، حتّى أُزَخْرِفَ بهم جِناني، يا بن عمران، تمسَّكْ بذكرهم فإنهم خَزَنَةُ علمي وعيبةُ حِكْمَتي، ومعدن نوري، قال حسين بن علوان: فَذَكَرْتُ ذلك لجعفر بن محمّد عليه السلام فقال: حَقٌّ ذلك، هم اثنا عشر من آل محمّد: عليّ والحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ ومَن شاء الله...»[1].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «شاطئُ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراتُ، والبقعة المباركة هي كربلاء»[2].

فلعلّ المقصودَ من أنّ موسى عليه السلام «نظر إلى كلِّ شجرة في الطور» هو أنّه نظر إلى حبيب بن مظاهر وزهير بن القين ومُسْلِم وبُرَير وسائر الأصحاب، أمّا الشجرةُ التي ناداه الله منها فهي الإمام الحسين عليه السلام.

حين يقول الله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[3] ماذا يقصد تأويلًا بذلك؟ هل يقصد شجرة التّين والزيتون؟ وحين يقول: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[4] هل يقصد الشمس والقمر؟ يقول عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[5]، أي أنه يضرب مثلًا حتى يعقل

(١) بحار الأنوار، ج٥١ ص١٤٩.
(٢) التهذيب، ج٦ ص٣٨.
(٣) سورة التين، آية ١.
(٤) سورة الشمس، آية ١ ـ ٢.
(٥) سورة العنكبوت، آية ٤٣.

العالمون ماهيّةَ الشمسِ والقمر الحقيقية، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا الشمس وعليّ القمر»[١]. ويقول تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[٢] فالمقصود في هذه الآية ليس القمرَ الظاهريّ فحسب، بل أيضًا الإمام عليه السلام، فكما أنّ القمر في كل منزلٍ يتغيّر شكلُه وظهوره إلى أن يصبح في آخر منزلٍ له باهتَ الضوء، فكذلك الإمام يتنزّل في كلّ مرتبة من مراتبِ عالم الوجود إلى أن يصلَ إلى عالم الدنيا وهو آخر منزل له، وكلّما ارتقى الإنسان أكثر بمعرفة الإمام، كلّما رأى نوره ساطعًا أكثر.

لقد قالت الشجرة: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. فأيُّه أعظم، أن يتكلّمَ اللهُ من الشجرةِ أو أن يتكلّمَ من رأسِ الحسين بن عليّ عليه السلام؟! يقولون إنّه لَمِن الخرافاتِ أن يتكلّمَ رأسُ الحسين بن عليّ بالقرآن، ولكنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٤]، فإذا لم تقبلوا بروايةٍ ما، إعرضوها على القرآن، وهذا القرآن يقول إنّ اللهَ أنطقَ الشجرة، فهل صعبٌ أن يُنطِقَ رأسَ الحسين عليه السلام؟! وإذا كان الله تعالى يقولُ عن العبدِ المؤمن: «كنتُ لسانَه الذي ينطقُ به»[٥] فكيف بأهلِ البيت عليهم السلام؟!

بالعودةِ إلى الرواية، قال موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه: «إلهي لا أرى شيئًا خلقْتَه إلا وهو ناطقٌ بذكر محمدٍ وأوصيائه الإثني عشر»، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٦] فكلُّ الوجودِ يسبّحُ بحمده، شاءَ ذلك أم أبى. «يا بن عمران، تمسَّكْ بذكرهم فإنّهم خَزَنَةُ

(١) شرح إحقاق الحق، ج٦ ص٢٢٤.
(٢) سورة يس، آية ٣٩.
(٣) سورة القصص، آية ٣٠.
(٤) سورة النساء، آية ٥٩.
(٥) الكافي، ج٢ ص٣٥٢.
(٦) سورة الإسراء، آية ٤٤.

علمي وعيبةُ حكمتي ومعدنُ نوري» يعني أنّهم أصلُ النورِ الذي خُلِقَتْ منه الأنوار، وبتعبيرٍ آخرَ هم نورُ الأنوار. وقد ورد في دعاء الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام في ليلة القدر: «أنتَ نورُ النور وربُّ الأرباب، أحَطْتَ بجميع الأمور، سبحان مَن ليس كمثلِه شيء»[١]، ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢]، فمَن هو المثل الأعلى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ، أنتَ حجّةُ الله، وأنتَ بابُ الله، وأنتَ الطريقُ إلى الله، وأنتَ النبأ العظيم، وأنتَ الصراطُ المستقيم، وأنتَ المثل الأعلى»[٣]. فكيف يمكنُ للمثلِ الأعلى أن تُحصى فضائلُه؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا حذيفة، إنّ حجّةَ الله عليكم بعدي عليّ بن أبي طالب، الكفرُ به كفرٌ بالله والشركُ به شركٌ بالله والشّكُ فيه شكٌّ في الله والإلحادُ فيه إلحادٌ في الله والإنكارُ له إنكارٌ لله والإيمانُ به إيمانٌ بالله لأنّه أخو رسول الله ووصيّه وإمامُ أمّته ومولاهم»[٤]، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٥] إنّ المشركَ هو مَن يجعلُ مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام شريكًا في الخلافة، ومَن يجعل معه شريكًا، يجعل مع الله شريكًا، فالرواية تقول: الشّركُ به شركٌ بالله!

وورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأهلِ الطّائفِ لأَبْعَثَنّ إليكم رجلًا كنفسي يفتحُ اللهُ به الخير، سوطُه سيفه، فتُشرِف الناس لها، فلمّا أصبحَ دعا عليًّا فقال: إذهب إلى الطائف ثم أَمَرَ اللهُ النبيّ صلى الله عليه وآله أن يدخلَ إليها بعد أن دخلَها عليّ، فلمّا صار إليها كان عليّ على

(١) العمل السابع من أعمال ليلة القدر الثالثة والعشرين، مفاتيح الجنان.
(٢) سورة النحل، آية ٦٠.
(٣) عيون الأخبار، ص١٨١.
(٤) أمالي الصدوق، ص٢٦٤.
(٥) سورة يوسف، آية ١٠٦.

رأسِ الجبل فقال له رسول الله: إثبتْ فثبتَ فسمعْنا مثلَ صريرِ الرّحا، فقيل: ما هذا يا رسول الله؟ فقال إنّ الله عزّ وجل يناجيه عليه السلام»[١].

وعن أبي جعفر محمّد بن عليّ، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لمّا أُسْرِيَ بي إلى السّماء فَصِرْتُ في السّماء الدنيا حتّى صِرْتُ في السّماء السّادسة فإذا أنا بشجرةٍ لم أرَ شجرةً أحسنَ منها ولا أكبر منها، فقلت لجبرئيل: يا حبيبي ما هذه الشجرة؟ قال: طوبى يا حبيبي، قال: فقلت: ما هذا الصوت العالي، الجهوري؟ قال: هذا صوت طوبى، قلت: أيّ شيءٍ يقول؟ قال: يقول: واشوقاه إليك يا عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٢]، أمّا في هذه الدنيا، فالمشتاقون إلى أمير المؤمنين قلّة!

ورد في الحديث عن جابر بن يزيد الجعفي عن جابر بن عبدالله قال: «كان لأمير المؤمنين صاحبٌ يهوديّ قال وكان كثيرًا ما يألفه وإنْ كانت له حاجةٌ أسعفَه فيها، فماتَ اليهوديّ، فحزنَ عليه واستبدَّت وحشتُه له، (لا تظنّوا أنّ الشوقَ الذي يأخذُنا إلى كربلاء هو صادرٌ منّا، بل إنهم عندما يشتاقون لنا، نشتاقُ إليهم وعندما يفكّرون بنا، نفكّر بهم)، قال: فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وهو ضاحكٌ فقال له: يا أبا الحسن، ما فعل صاحبك اليهوديّ؟ قال: قلت: مات، قال: أَغُمِمْتَ به واستبدَّت وحشتكَ عليه؟ قال: نعم يا رسول الله، قال أفتحبّ أن تراه محبورًا؟ قال: نعم بأبي أنت وأمي. قال: إرفع رأسك وكُشِطَ له عن السماء الرابعة فإذا هو بقُبّة من زبرجدة خضراء معلّقة بالقدرة. فقال له: يا أبا الحسن، هذا لمَن يحبّك من أهلِ الذمّة من اليهود والنصارى والمجوس وشيعتُك المؤمنون معي ومعك غدًا في الجنة»[٣]، أنظروا أين أحَلّ اللهُ تعالى هذا اليهوديّ لحبّه لعليّ بن

(١) بصائر الدرجات، ص٤١١.
(٢) بحار الأنوار، ج٨ ص١٥٠.
(٣) الأصول الستة عشر، ص ٩٦.

أبي طالب! وقد ورد في الحديث القدسيّ: «لأُدْخِلَنَّ الجنَّةَ مَن أطاع عليًّا وإنْ عصاني، ولأُدخلنَّ النَّارَ مَن عصاه وإنْ أطاعني»[١].

ولنرتقِ أكثر في فضائلِ أمير المؤمنين عليه السلام. قال الله عزّ وجل في مُحكمِ كتابه الكريم على لسان نبيّه عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾[٢]، ألم ينسُبِ النبي عيسى الخالقيةَ لنفسه؟ كلُّ واحدٍ منّا يتكلّمُ ويتنفّسُ ويقومُ بأيِّ عملٍ بأمْرِ الله تعالى وإذنِه ولكنّنا نقومُ بهذه الأعمالِ فورًا من دونِ طلبِ الإذن لفظًا. وهكذا هو الإمام، فهو يتصرّفُ كما نتصرّفُ بإذنِ الله ولكن تلقائيًّا وعلى نطاقٍ أكبرَ وأوسعَ منّا بكثير. وكما منَحَنا الله عزّ وجلّ الإرادةَ لنقومَ بأيِّ عملٍ ضمنَ قدرتِنا التي خوّلَنا إيّاها، فقد منحَ الإمامُ الإرادةَ للقيام بأيّ عملٍ ضمن قدرته التي خوّلَه إياها، ونحن نقول في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وبكم يُمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلا بإذنه». ومن هنا، فإنّ الإمام عليه السلام يخلق بإذن الله تعالى، وليس من قبيلِ استجابةِ الدّعاء بل من قبيلِ عمَلِ عيسى عليه السلام، فعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال: «قلت: الأئمة يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبيًا شيئًا قط إلا وقد أعطاه محمدًا صلى الله عليه وآله، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكل ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: نعم، ثم الحسن والحسين عليهما السلام، ثمّ من بعد كلّ إمامٍ إمامًا إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدثُ في كلّ سنة وفي كلّ شهر. ثم قال: إي والله في كلّ ساعة»[٣]. لذلك تقول الآية: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[٤] و«الخالقين»

(١) الجواهر السَنيّة، ص٣٠٤.
(٢) سورة آل عمران، آية ٤٩.
(٣) بصائر الدرجات، ص٢٠٥.
(٤) سورة المؤمنون، آية ١٤.

جَمْعُ خالق، ممّا يعني أنّ هناك أكثرَ من خالقٍ ولكنّ الله عزّ وجل أحسن الخالقين. وعندما يُصدّقُ الإنسانُ بحقيقةِ أنّ أهلَ البيت عليهم السلام هم هكذا، تبتعد عنه الشياطين ولا تعود قادرةً على الإقترابِ منه أبدًا.

والآن، إليكم هذه الرواية: عن أبي علي محمد بن همام، عن جعفر بن محمد بن مالك الفزاري، عن محمد بن صدقة، عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي خالد الكابلي قال: قال الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام لمّا سألْنَاه عن هذه الآية ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ قال: «إنّ قنبرًا مولى عليّ عليه السلام أتى منزلَه يسألُ عنه وخَرَجَت إليه جارية يُقال لها فضّة، قال قنبر: فقلتُ لها: أين عليّ بن أبي طالب؟ وكانت جاريتُه فقالت: في البروج، قال قنبر: وأنا لا أعرف لأمير المؤمنين عليه السلام بروجًا، فقلت: وما يصنع في البروج؟ قالت: هو في البروج الأعلى يقسِّم الأرزاق، ويعيّنُ الآجال، ويخلقُ الخلق، ويميت ويحيي، ويُعِزّ ويذلّ، قال قنبر: فقلتُ: والله لأخبِرَنّ مولاي أمير المؤمنين بما سمعْتُ من هذه الكافرة، فبينا نحن كذلك إذ طلعَ أميرُ المؤمنين عليه السلام، وأنا متعجّبٌ من مقالتِها فقال لي: يا قنبر ما هذا الكلام الذي جرى بينك وبين فضة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ فضّة ذكرت كذا وكذا، وقد بقيت متعجّبًا من قولها، فقال عليه السلام: يا قنبر وأنكرتَ ذلك؟ قلت: يا مولاي أشدّ الإنكار، قال: يا قنبر ادنُ مني، (لن تصدّق بهذه الروايات إلا عندما يأذنُ لكَ إمامُ الزمان ويُدنيك منه) فدنوتُ منه فتكلّم بشيء لم أفهَمْه، ثم مسَح يده على عيني، (أي أعطى القابليّة لهاتين العينين حتى تَرَيَا الأشياء التي لا تُرى، والإمامُ بالحقيقة مسحَ على عينيه حتى يبصرَ قلبُه لأنّ العينَ أداةُ القلبِ واللسانَ أداةُ العقل)، فإذا السماوات وما فيهن بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام كأنها فلكة أو جوزة؛ يلعب بها كيف ما شاء وقال: والله إني قد رأيت خلقًا كثيرًا يُقبِلون ويدبرون ما علمتُ أنّ الله خلق ذلك الخلق كلّهم، فقال لي: يا قنبر، قلت: نعم يا أمير

المؤمنين، قال: هذه لأوّلنا وهو يجري لآخرنا، ونحن خلقناهم[1]، وخلقنا ما فيهما وما بينهما وما تحتهما، ثم مسح يدَه العليا على عيني، فغابَ عني جميع ما كنتُ أراه حتى لم أرَ منه شيئًا، وعدتُ على ما كنتُ عليه من رَأْيِ البصر»[2].

فالله عزّ وجلّ أعطى أهلَ البيت عليهم السلام هذه القدرةَ ولكن أغلبَ الناسِ لا

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية ٤٩). وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «قلت: الأئمة يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبيًا شيئًا قط إلا وقد أعطاه محمدًا صلى الله عليه وآله، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكل ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال نعم، ثم الحسن والحسين عليهما السلام، ثم من بعد كل إمام إمامًا إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر. ثم قال: إي والله في كل ساعة»، (بصائر الدرجات، ص٢٠٥).
ومن كلام للسيد روح الله الخميني: «كما أننا العباد الضعاف قادرون على الأعمال البسيطة مثل الحركة والسكون وأفعال أخرى صغيرة، فإنّ العباد المخلصين لله سبحانه والملائكة المجرّدين، قادرون على أعمال عظيمة من الإحياء والإماتة والرزق والإيجاد والإعدام. وكما أن ملك الموت يقوم بالإماتة، وعمله هذا لا يكون من قبيل استجابة الدعاء، وإن إسرافيل موكل بالإحياء، وإحياؤه لا يكون من قبيل استجابة الدعاء أو التفويض الباطل فكذلك الوليّ الكامل، والنفوس الزكية القوية، مثل نفوس الأنبياء والأولياء، قادرة على الإعدام والإيجاد والإماتة والإحياء، بقدرة الحق المتعال، وليس هذا من التفويض المحال، ويجب أن لا نعتبره باطلًا. ولا مانع من تفويض أمر العباد، إلى روحانية كاملة، تكون مشيته فانية في مشيئة الحق، وإرادته ظلال لإرادة الحق، ولا يروم إلا ما يريده الحق، ولا يتحرك إلا إذا كان موافقًا للنظام الأصلح، سواء كان في الخلق والتكوين أو التشريع والتربية... إعلم أن لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام مقامًا روحانيًا شامخًا، في السّير المعنوي إلى الله، يفوق قدرة استيعاب الإنسان حتى من الناحية العلمية، وأسمى من عقول ذوي العقول وأعظم من شهود أصحاب العرفان... إن الأحاديث المأثورة في طينة أبدانهم، وخلق أرواحهم ونفوسهم، وفي ما مُنحوا من الاسم الأعظم، والعلوم الغيبية الإلهية من علوم الأنبياء والملائكة، ومما هو أعظم مما لا يخطر على بال أحد، وهكذا الأخبار المنقولة في فضائلهم في مختلف الأبواب من الكتب المعتبرة وخاصة كتاب أصول الكافي، إن مثل هذه الأخبار كثيرة بقدر تبعث على تحيّر العقول، ولم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم عليهم الصلوات إلا أنفسهم»، الأربعون حديثًا، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨ ـ ٥٧٩.

(٢) صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦.

يعتقدون بهذا الكلام ومنهم من يرى أنّ هذا غلوّ. وفي حين لا يجد الناس مشكلة في أن يقول شخصٌ ما إنّه يعتمد على فلانٍ أو فلان في أمرٍ يهمّه، ولكنّهم إذا سمعوا أحدًا يقول إنّه يعتمد على أهل البيت عليهم السلام يتّهمونه بالكفر والشّرك! ومثال آخر على ظلمِ الناس لأهل البيت عليهم السلام أنهم لا يصدّقون أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: «يا حار همدان مَن يَمُت يرني»[1]، أي أنّه لو مات مليون شخص في اللحظة نفسها، فكلّهم سيَرَوْن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، في حين أنهم سرعان ما يقبلون بأنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم في العروق!

هؤلاء هم أهل البيت عليهم السلام، وهم فوق كلّ ما قيل، ألم يصرّحوا بأنه «ما خرج إليكم من علمنا إلا ألفٌ غير معطوفة»[2]. إنّ عدمَ التصديقِ بمقاماتهم إشارةٌ إلى عدمِ محبّتِهم بل إلى بغضِهِم من قبلِ البعض! «والله ما يُبغِضُك أحدٌ إلا شاركتُ أباه فيه كما هو في القرآن ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾»[3]، فهذا كلامُ إبليس! والعجيبُ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام امتلكَ كلَّ هذه القدرةِ ومع ذلك سكَتَ يومَ خروجِهِ من الدارِ لأنّه كان مأمورًا بالسكوتِ من الله تعالى، فأهلُ البيت عليهم السلام ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[4] وقد رضوا بكلّ ما أجراه الله تعالى عليهم. أما إذا امتلك أحدُنا مثلَ هذه القدرة، فلا يمكن له أن يرضى بالسّكوت، ذلك أنّنا نعمل بناءً على أهوائِنا لا بناءً على رضى الله تعالى. أما سيّد الشهداء عليه السلام فكان كلما اشتدّ عليه الأمر، يقول: «أَرَضيتَ يا ربّ، خذ حتى ترضى».

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

---

(١) أمالي الطوسي، ص ٤٢.
(٢) رجال الكشي، ص٣٠٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٣٩ ص١٨٠.
(٤) سورة الأنبياء، آية ٢٧.

ذكرُ عليٍّ وحبّه عبادة

يقول رسول الله ﷺ: «زيّنوا مجالسَكم بذكرِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[1].

ورد في الرّوايات أنّ سيّدَ الشهداءِ عليه السلام خطَبَ في القومِ خُطَبًا كثيرةً يَعِظُهُم ويَهدِيهم إلى طريقِ الحقيقةِ لكنّه في آخرِ كلامٍ له معهم، توجّهَ إليهم قائلًا: «يا ويلكم، علامَ تقاتلوني؟ على حقٍّ تركتُه، أم على سُنّةٍ غيّرتُها، أم على شريعةٍ بدّلْتُها؟! فقالوا: بل نقاتلُك بغضًا منّا لأبيك، وما فُعِلَ بأشياخِنا يومَ بدرٍ وحنين، فلمّا سمعَ كلامَهم بكى»[2]، وسحبَ سيفَه ونزلَ إلى القومِ محاربًا لهم بنفسه. لقد ظهرَت الضغائنُ يومَ العاشرِ من المحرّم وكُشِفَ المستور، حيث صرّحُوا بأنّهم أرادوا قتلَ الحسين عليه السلام بُغضًا بأبيه، لا لأنه أباه فقط، بل لأنّه عليّ بن أبي طالب. ومن هنا، إنْ لم نعرفْ عليًّا عليه السلام، لن ندري ما السّببَ الحقيقيَّ الذي من أجله حاربَ الحسين القومَ في كربلاء.

في دعاءِ الندبةِ نقول: «فأَوْدَعَ قلوبَهم أحقادًا بدريّةً وخيبريّة وحنينيّة وغيرهنّ، فأضبَّتْ على عداوتِه وأكبَّتْ على منابذتِه»، تقولُ الروايات إنّه

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٨ ص٢٠١.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته، ص١٣٢؛ ينابيع المودة، ص٤١٦ مع اختلاف يسير.

حين وُضِعَ رأسُ الحسين عليه السلام أمامَ يزيد لعنه الله صارَ يُنشد قائلًا: «ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا، جَزَعَ الخزرج من وقْعِ الأسَل لأهَلّوا واستهلّوا فرحًا...»، لقد صارَ يتمجّدُ بأنّه قتلَ الحسينَ عليه السلام وأخذَ لهم بالثأرِ من عليّ عليه السلام الذي يبغضونه، في حين يقول رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّ عليّ عليه السلام إنه: «لا يبغضُه إلا ثلاثة: لِزَنيّةٍ أو منافقٍ أو مَن حَمَلَتْه أمُّه في بعضِ حيضِها»[1].

إنّ مَن لا يعرفُ عليَّ بن أبي طالب، لن يعرفَ مَن هو الحسين بن عليّ عليهما السلام. إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام غريبٌ، فحتّى شيعتُه لا يعرفونه، ولهذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، ما عرفَ اللهَ إلا أنا وأنت وما عرفَني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا»[2]، فلا تخالوا أنّنا نعرفُ اللهَ أو نعرفُ رسولَه، إنّما نحن نعرفُ بعضَ أسماءِ الله وصفاتِه (وهم عليهم السلام أسماء الله وصفاته) وبعضَ ما ورد عنه صلى الله عليه وآله. لا يزالُ النّاسُ في خلافٍ حول ما إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله معصومًا أم لا، وإذا كان معصومًا، هل هو كذلك في مقامِ التبليغِ فقط أم في كلِّ الأمور؟ وفي مقامِ الإجمالِ فقط أم في مقامِ التفصيلِ أيضًا؟ فالذي يجادلُ في هذه الحقائقِ إنّما يشيرُ إلى عدمِ معرفتِه بالحقيقةِ المحمديّة، فرسولُ الله صلى الله عليه وآله فاقَ في مرتبتِه الملائكةَ والأنبياءَ جميعهم، إذ في معراجِه تركَه جبرائيل عند سدرة المنتهى وقال: «لو دنوْتُ أنملةً لاحترقت»[3]. كما يقول صلى الله عليه وآله: «لي مع الله وقتٌ لا يسعُه ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ولا مؤمنٌ امتحنَ اللهُ قلبَه للإيمان»[4]. ليس أيًّا كان يقبلُ بمقامِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومقامِ أميرِ المؤمنين، الذي هو نفسه، والسيّدة

(١) كشف اليقين، ٤٢ ـ ٤٣.
(٢) مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥.
(٣) بحار الأنوار، ج١٨ ص٣٨٢.
(٤) بحار الأنوار، ج١٨ ص٣٦٠.

فاطمة، التي هي روحه، ومقام الأئمة عليهم السلام، أي بمقامِ الولايةِ ككلّ، في حين يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ولايةُ عليٍّ مكتوبةٌ في جميعِ صُحُفِ الأنبياء، ولن يبعثَ اللهُ نبيًّا إلاّ بنبوّةِ محمّدٍ وولايةِ وصيِّه عليّ عليه السلام»[1]. كما ورد في الرواية: «إنّ الله تعالى لم يبعثْ نبيًّا من لَدُنِ آدم إلى أن صارَ جدُّك محمّد صلى الله عليه وآله إلا وقد عرضَ عليه ولايتَكم أهلَ البيت، فمَن قَبِلها من الأنبياء، سَلِمَ وتخلّص، ومَن توقّفَ عنها وتتعتعَ في حَمْلها لقيَ ما لقيَ آدم من المعصية، ولقيَ ما لقي نوحٌ من الغرق، وما لقي إبراهيمُ من النار، وما لَقِيَ يوسفُ من الجُبّ، وما لقي أيّوبُ من البلاء، وما لقي داوُودُ من الخطيئة...»[2].

إنّنا نجهلُ الولايةَ ومقاماتِ أهلِ البيت عليهم السلام، ومردُّ ذلك إلى أنّ بعضَ علماءِ الشيعةِ في السّابقِ كانوا يخفون مقاماتِ وفضائلَ أهلِ البيت عليهم السلام تحتَ عنوانِ التقيّة، حيث كانوا يعيشون في أزمنةٍ يحكمُ فيها أعداءُ أهلِ البيت عليهم السلام، أما اليوم وقد صِرْنا أحرارًا فلم تُعُدِ التقيّةُ لازمةً بكليّتها، ويقول إمامنا الصادق عليه السلام: «إنما جُعِلَت التقية ليُحقنَ بها الدّم، فإذا بلغَتِ التقيّةُ الدّمَ فلا تقية، وأيم الله لو دُعيتُم لتنصرونا لقلْتُم: لا نفعل إنما نتّقي، ولكانت التقيةُ أحبَّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم، ولو قد قام القائمُ ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك، ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حدَّ الله»[3]. وقد قال السيد روح الله الخميني قُدِّس سرّه: «انتهى زمنُ العملِ بالتقيّة»[4]، فلقد أصبحْنا بأمانٍ وبإمكانِنا التكلّمُ عن عقيدتِنا بحريّة. ولكن للأسف، لقد أثّرَتِ الفترةُ الطويلة التي اتّبعَ فيها علماؤُنا التقيّةَ سلبًا على

(١) بصائر الدرجات، باب٨ ص٩٢ ح١.
(٢) مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٥١.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٦ ص٢٣٥.
(٤) الفقهاء حكام على الملوك، ص٢٢١.

معتقداتِ الشّيعةِ في هذا الزمان، فبدأَتْ حقيقةُ أهلِ البيتِ تغيبُ شيئًا فشيئًا وصار بعضُ المُعمَّمين يتعمّدون إخفاءَ الرواياتِ التي تُظهِرُ مقاماتهم عليهم السلام، خوفًا من كلام علماء المخالفين، ولعلّ البعضَ يَسْتَعْيِبُ ذكرَ فضائلهم ومناقبهم، حتى صار الناسُ من عوامِ الشيعة إذا سمعوا برواياتٍ معيّنةٍ عن مقاماتِ أهلِ البيت عليهم السلام يظنّون أنّها غير صحيحة ولا يقبلُون بها، وقد قال أحد العلماء وهو جلال الدين الآشتياني، صاحب مقدمة كتاب «مصباح الهداية» للسيّد روح الله الخميني: «حذَفَ البعضُ من أربابِ الحديثِ الرّواياتِ الصّعبةَ مع الإقرار بصحّة سنَدَهِا في كتبهم! وهذا الوضعُ مستمرٌّ حتى اليوم أيضًا. فالظاهرُ أن هناك قرارًا مُتّخذًا في الحوزاتِ الشيعيّة بعدمِ الاعتناءِ بأصول العقائد»[1]، وعُهدةُ هذا الكلامِ على عاتق قائله. إنّ أهلَ البيت عليهم السلام هم أصحابُ هذه المقاماتِ منذ الأزل، وعليه، باتَ علينا أن نتعرّفَ على أهلِ البيت عليهم السلام من جديد من خلال أحاديثهم ورواياتهم.

عندما رأى المسيحيّون أنّ عيسى بن مريم عليه السلام يخلق، قالوا إنّه الله، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2]، في حين تقول الرواية عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «قلتُ: الأئمة يحيون الموتى ويبرِئون الأكمهَ والأبرصَ ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبيًا شيئًا قط إلا وقد أعطاه محمّدًا صلى الله عليه وآله، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكلُّ ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعطاه أميرَ المؤمنين عليه السلام؟ قال: نعم، ثم الحسن والحسين عليهما السلام، ثم من بعد كل إمام إمامًا إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدثُ في كل سنة وفي كل شهر. ثم قال: إي والله في كل ساعة»[3]. فما

(١) مقدمة كتاب مصباح الهداية، ص٢٣٩، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.
(٢) سورة الزّمر، آية ٦٧.
(٣) بصائر الدرجات، ص٢٠٥.

كان النّاسُ ليقولوا، إذًا، لو رأوا رسولَ الله أو عليّ بن أبي طالب وبيدِهما القدرةُ على الخلقِ والشّفاءِ أكثر من أيّ نبيٍّ مضى؟ ثم ما كان ظنُّهم بالله تعالى بعد ذلك؟ مرةً جديدة نذكر هذه الرواية: «يا عليّ، ما عرفَ الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا»[1].

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[2]، هل هذه النعمةُ هي المأكلُ والمشربُ والملبسُ والمسكن...؟ إنّ كلّ هذه الأمورِ تُعَدُّ من أسفلِ مراتبِ النعم، وهي لكلِّ الناس، مِن يهوديّ وبوذيّ وكافر وملحد... ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[3]، ثم ما هي هذه النعمةُ التي نطلبُها كلَّ يومٍ في صلاتِنا حين نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[4]، رُوِيَ أنّ أبا حنيفة سأل الإمامَ الصادق عليه السلام عن هذه الآية، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[5]، فسألَه الإمام: «ما النعيمُ عندَك يا نعمان؟ قال أبو حنيفة: القُوتُ من الطعامِ والماءِ البارد، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: لَئِنْ أوقفَك الله يومَ القيامة بين يَدَيه حتّى يسألَك عن كلّ أكلةٍ أكلتَها أو شربةٍ شربتَها، لَيطُولنّ وقوفُك بين يديه. فسأل أبو حنيفة: فما النعيمُ جُعلت فداك؟ قال عليه السلام: نحنُ ـ أهلُ البيتِ ـ النعيمُ الذي أنعَمَ اللهُ بنا على العباد، وبنا ائْتَلَفوا بعدَ أن كانوا مختلفين، وبنا ألّفَ الله بين قلوبهم وجعلَهم إخوانًا بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهمُ الله للإسلام، وهو النعمةُ التي لا تنقطع، واللهُ سائلُهم عن حقِّ النعيم الذي أنعَمَ به عليهم، وهو النبيّ

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥.
(٢) سورة النحل، آية ١٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٣.
(٤) سورة الحمد، آية ٦ ـ ٧.
(٥) سورة التكاثر، آية ٨.

وعترته»[١]، هذه هي النعمةُ التي لا تحصى! إنّ أهلَ البيت ﷺ هم نعمةُ الله الكبرى.

يقول أبو جعفر ﷺ: «إنّ النبيّ لا يوصَف وكيف يوصَفُ عبدٌ احتجبَ الله بسبعٍ»[٢]، فلا أحدَ يقدرُ على وصفِ النبيّ ﷺ ولا الإمام أيضًا، إذ يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٣]، فمَن هو الإمام المبين؟ إنّنا لا نقدرُ على إحصاءِ مقاماتِ أمير المؤمنين ﷺ ولكنّنا سنتكلّمُ عن بعضِ الروايات التي وصلت إلينا وبيَّنَ فيها رسول الله ﷺ بعضَ مقاماتِ عليٍّ ﷺ، إذ لم يصلْ إلينا من الروايات إلا شيءٌ يسيرٌ لأنّ معاوية وبني أمية لعنهم الله أحرقوا الكثيرَ من المخطوطاتِ الروائيّةِ بقصدِ طمسِ مناقبِ وفضائلِ أميرِ المؤمنين ﷺ وإخفائها.

ورد في الحديثِ أنّ نبيّ الله ﷺ كان في مجلسٍ فجاء عليّ ﷺ فقال له: «مرحبًا بمَن خلقَه الله قبلَ أبيه آدمَ بأربعين ألف سنة، فقال أصحابُ رسول الله: يا رسول الله أكان الإبنُ قبل الأب؟ قال: نعم إنّ الله خلقَني وخلقَ عليًا ﷺ قبل أن يخلقَ آدمَ بهذه المدّة، خلق نورًا فقسّمَه نصفين، فخلقَني من نصفه، وخلق عليًا ﷺ من النصف الآخر قبل الأشياء كلّها...»[٤]. ويقول أمير المؤمنين ﷺ: «كنت وليًّا وآدم بين الماء والطين»[٥] أي قبل عَجْنِه. وهذا ليس بعجيب، إذ عندما نزورُ مولاتنا فاطمة سلام الله عليها نقول: «يا مُمْتَحَنَةُ امْتَحَنَكِ اللهُ الَّذي خَلَقَكِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَكِ، فَوَجَدَكِ لِمَا امْتَحَنَكِ صابِرَةً»، وفي الزيارة الجامعة نقول:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥ ص٦٦٣ ح ١٥.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥ ص٢٨٢.
(٣) سورة يس، آية ١٢.
(٤) بحار الأنوار، ج٢٤ ص٨٨ ح٤.
(٥) بحر المعارف، ص٤٥٧.

«خَلَقَكُمُ اللهُ أنوارًا فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقينَ حَتّى مَنَّ عَلَيْنا بِكُمْ». وعن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآيةُ على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، قام أبو بكر وعمر من مجلسِهما وقالا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا. قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا. قالا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو هذا، إنّه الإمامُ الذي أحصى الله فيه علمَ كلّ شيء»[1]. وعن فاطمة عليها السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «السّعيدُ مَن أحبَّ عليًا في حياته وبعد مماته، والشقيُّ مَن أبغضَ عليًا في حياته وبعد مماته»[2]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... الله قد أعطاني من العقلِ ما لو قُسِّمَ على جميعِ حمقاءِ الدنيا ومجانينِها لصاروا به عقلاءَ ومن القوّةِ ما لو قُسِّمَ على جميع ضعفاءِ الدّنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعةِ ما لو قُسِّمَ على جميعِ جبناءِ الدنيا لصاروا به شجعانًا، ومن الحلمِ ما لو قُسِّمَ على جميعِ سفهاءِ الدّنيا لصاروا به حُلَماء، ولولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَني أن لا أُحدثَ حدثًا حتى ألقاه لكان لي ولكم شأن...»[3]. وعن ابن عبّاس قال: «ما نزلَ في القرآن ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلاّ وعليٌّ شريفها وأميرها»[4]. كما قال نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله: «بُعِثَ عليّ مع كلّ نبيّ سرًّا وبُعِثَ معي جهرًا»[5]، أي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان موجودًا مع كلّ نبيّ من الأنبياء. وقال سلمان المحمدي رضوان الله تعالى عليه: «أيها الناس اسمعوا عنّي حديثي ثم اعقلوه عني، ألا إني أوتيتُ علمًا كثيرًا، فلو حدّثتُكم بكلّ ما أعلم من

(١) معاني الأخبار، ص٩٥ ح١.
(٢) المناقب ص٣٧.
(٣) منهاج السالكين، ص٢٦٩.
(٤) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٤٦٩.
(٥) شرح دعاء الجوشن، ص١٠٤؛ جامع الأسرار، ص٣٨٢ ـ ٤٠١.

فضائل أمير المؤمنين عليه السلام لقالت طائفةٌ منكم: هو مجنون. وقالت طائفة أخرى: اللهم اغفرْ لقاتلِ سلمان... أمَا والذي نفسُ سلمان بيده لو وَلّيتُموها عليًّا عليه السلام لأكلتُم من فوقكم ومِن تحتِ أرجلكم، ولو دعوْتُم الطيرَ في جوِّ السّماءِ لأجابَتْكم، ولو دعوْتم الحيتانَ من البحارِ لأتتْكُم، ولما عالَ ولي الله، ولا طاشَ لكم سهمٌ من فرائضِ الله، ولا اختلفَ اثنان في حكم الله. ولكن أبيْتم فوليتُموها غيرَه، فأبشروا بالبلاء، واقنطوا من الرخاء...»[1].

الكلامُ هنا لا يقتصرُ على الولايةِ في الظّاهرِ والخارجِ فحسب، بل أيضًا في الباطن. ففي الظاهر، أُعْطِيَتِ الولايةُ (بمعنى الحكومة) لغيرِ عليّ عليه السلام، ولكن ماذا عن بواطنِنا هل ولّيْنا عليًّا فيها؟ لو ولّينا علي بن أبي طالب في بواطننا لما اختلَفْنا مع بعضِنا البعضِ ووقعْنا في البلاءات، ولذلك فليُبشِرْ بالبلاءِ كلُّ مَن يضعْ في قلبِه حاكمًا غيرَ عليّ عليه السلام، علمًا أنّ «عنوانُ صحيفةِ المؤمنِ حبُّ علي بن أبي طالب»[2] كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال صلى الله عليه وآله أيضًا: «إذا كان يومُ القيامةِ ونُصِبَ الصّراطُ على جهنّمَ لم يَجُزْ عليه إلا مَن معه جوازٌ فيه ولايةُ علي بن أبي طالب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن ولاية عليّ عليه السلام»[3]. هل نعرف مَن هو عليّ عليه السلام؟ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[4].

أميرُ المؤمنين عليه السلام يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله فأنتَ أفضلُ أم جبرائيل؟»، ألا يعلمُ عليّ عليه السلام مَن أفضل؟ بلى، ولكنه يريد أن يُعلِمَ النّاسَ بمقامِ محمّد صلى الله عليه وآله. فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، إنّ الله تبارك وتعالى فضّلَ أنبياءَه المرسلين على ملائكتِه المقربين وفضّلَني على جميعِ النبيين

(١) بحار الأنوار، ج٢٩ ص٧٩ ـ ٨٠.
(٢) إحقاق الحق، ج١٧ ب١٤٥ ص٢٢٥.
(٣) شرح إحقاق الحق، ج٢١ ص٥١٩.
(٤) سورة النور، آية ١٥.

والمرسلين والفضلُ بعدي لك يا عليّ وللأئمةِ من بعدِك فإنّ الملائكةَ لخدّامُنا وخدّامُ محبّينا يا عليّ...»[١]. ويقول رسول الله ﷺ لسلمان: «إعلمْ يا سلمان أنّه ما ابتُليَ أحدٌ من الأنبياء والأولياء منذ عهدِ آدم إلى الآن ببلاءٍ إلاّ كان عليّ هو الذي نجّاه من ذلك»[٢].

إنّنا لا نتوجّهُ إلى رسول الله ﷺ وإلى أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام بالنّحو الذي يعرفُهم الله تعالى به، بل إنّنا نستصغرُ شأنَهم ومقامَهم. وما يفعلُه الكثيرُ منّا أنّه يجرّبهم بقضاء الحوائج أو بالنذر، فإذا استجيبَ نذرُه يقبلُ بهم وإذا لم يُستَجبْ لا يقبلهم! ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٣]، ومَن لا يقدّرُ الله، لا يقدّرُ أسماءَه وصفاته، فهم عليهم السلام أسماؤه وصفاته، إذ قال أبو عبدالله عليه السلام: «نحنُ واللهِ الأسماءُ الحسنى التي لا يقبلُ اللهُ من العبادِ عملًا إلا بمعرفتنا»[٤].

إنّ أصحابَ الذّنوبِ الكبيرةِ وذوي النفوسِ الضعيفةِ والقلوبِ المريضةِ والعاشقةِ للدّنيا، يمتلكون عقولًا محدودة، لأنّها سُجِنَتْ بسجنِ الدّنيا وعاشرت المخالفين فلمْ تَعُدْ تفهمُ الحقائقَ السّامية. وعندما يغلبُ حبُّ الدّنيا والشهواتِ على قلوبِنا ونغرقُ في المعاصي، هل سنستطيعُ معرفةَ الحقيقة؟ يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥] حين يصبح هناك رينٌ على القلب، يفقدُ هذا القلبُ القدرةَ على الحبّ، فلا يستطيعُ أن يُحِبَّ اللهَ ورسولَه وأميرَ المؤمنين، ولا يستطيع أن يحبَّ عزاءَ الحسين عليه السلام، وإذا قرأَ القرآنَ الكريم لا يشعرُ بعلاقةٍ تربطُه به، كما لا يشعرُ بمحبةٍ تجاهَ

(١) إكمال الدين، ج١ ص٢٥٤.
(٢) صحيفة الأبرار، ج٣.
(٣) سورة الزّمر، آية ٦٧.
(٤) الكافي، ج١ ص١٤٤.
(٥) سورة المطفّفين، آية ١٤.

الصلاة، التي إنْ قُبِلَت قُبِلَ ما سواها وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها، أي أنّ كلّ عباداتي متوقّفةٌ على الصلاة، فإذا لم تُقبَلْ صلاتي يومًا ما، لن تُقبَلَ كلّ أعمالي في ذلك اليوم مهما كانت، ومع معرفتي بذلك أستخفُّ بها، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1]، يُقال إنّ مَن يستيقظُ في وقتِ صلاةِ الصّبح ولا يصلّي، يُنصَبُ له عامودٌ من نار، ومع ذلك لا نكترث! ولعلّ منشأ ذلك أنّنا لا نملكُ تصديقًا بهذه الصلاة لأننا لا نعرفُ حقيقتَها ومدى خطورةِ الإستخفافِ بها، ثم بعد ذلك نشكو من الكآبةِ ومن التّعبِ في هذه الدنيا. لو عَرَفْنا ما هي هذه الصلاة لعظّمناها واحترمناها وقدّرناها، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول: «أنا صلاةُ المؤمن»[2]، فكما أنّ هناك قرآنًا كتبيًا، والذي هو المصحفُ الشريف، وقرآنًا ناطقًا وهو الإمام، فكذلك للصلاة ظاهرٌ، وهو هذه الحركاتُ التي نؤدّيها، ولها باطنٌ هو عليّ عليه السلام والولاية، «فَإِن قُبِلَتَ قُبِلَ مَا سِوَاهَا وَإِن رُدَّت رُدَّ مَا سِوَاهَا»[3]، وقد ورد في زيارةِ المولى صاحب الزمان عليه السلام: «بولايتِكَ تُقبَل الأعمال»[4]، فإذا لم نمتلكْ ولايةَ أمير المؤمنين عليه السلام بالباطن، سترَدُّ كلُّ أعمالِنا، وإذا استخفّينا بالصلاة وتهاونّا بها سيكون ذلك سببًا لعدمِ شعورِنا بالرّوحانية في ليالي القدر، على سبيل المثال، وعدمِ انفتاحِ القلبِ في محرّم والحرمانِ من الرزقِ وبرّ الأولاد وعدمِ الإنتهاءِ عن الفحشاءِ والمنكرِ الذي هو علامةُ قبولِ الصلاة، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[5].

---

(١) سورة الماعون، آية ١ ـ ٢.
(٢) فضائل ابن شاذان، ص٨٣.
(٣) فلاح السائل، ص ١٢٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٩٩ ص١١٧.
(٥) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

في أصعبِ الظروف، تذكّرَ أحدُ أصحابِ الحسين عليه السلام الصلاةَ، فقال له الإمام الحسين عليه السلام: ذكرتَ الصلاة، جعلَكَ الله من المصلّين، وطلبَ الحسين بن عليّ عليهما السلام من أصحابِه أن يحيطوا به حتى يتسنّى له إقامةُ الصلاة، «أشهد أنك قد أقمت الصلاة»[1]، كانوا يرمون السّهامَ عليهم، ولكنّهم تابعوا صلاتَهم وقطعوا بها الزمان والمكان، فلقد صلّوا الدّهرَ بصلاتهم، وأقامَ الحسين عليه السلام الصلاةَ في كلِّ الأزمنة، فما من أحدٍ غيرِه أقامَ الصلاة، إذ إنّ أكثرَ الناسِ وقتَ الشدّةِ يتوقفون عن أداءِ الصلاة. ليتَ إمامَ الزمان عليه السلام يجعلُنا من المصلّين الحقيقيين، كما فعلَ الحسين عليه السلام مع أصحابِه. يقول الامام الصادق عليه السلام: «لا يبالي النّاصبُ صلّى أم زنى وهذه الآية نزلت فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[2]، ذلك أنّهم لا يتولّون عليًا عليه السلام ويقول تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[3]، والويلُ هو وادٍ مخصّصٌ للمصلين الذين هم عن صلاتِهم الحقيقيّةِ ساهون، والصلاةُ الحقيقيةُ كما سبق وذكرْنا هي عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ونختمُ بهذه الرواية في فضلِ حبِّ عليّ عليه السلام، حيث قيل: «سألنا رسولَ الله صلى الله عليه وآله عن عليّ عليه السلام فغضب، فقال صلى الله عليه وآله: ما بَالُ أقوامٍ يذكرون مَن له منزلةٌ عند الله كمنزلتي ومقامٌ كمقامي إلّا النبوّة، ألا ومَن أحبَّ عليًا فقد أحبَّني ومَن أحبَّني رضي الله عنه، ومَن رضي الله عنه كافأه بالجنّة...»[4]، لم يرغبوا في أن يفقهوا أنّ حبَّ رسول الله صلى الله عليه وآله مقرونٌ بحبِّ عليّ، وأنّ رضى الله مقرونٌ بحبِّ عليّ عليه السلام أيضًا. «ألا ومَن أحبَّ عليًا لا يخرجُ من الدّنيا حتّى يشربَ من الكوثر...» ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، والكوثرُ هي

(١) زيارة وارث، مفاتيح الجنان.
(٢) مرآة العقول، ج٢٦ ص٢٣.
(٣) سورة الماعون، آية ٤.
(٤) بحار الأنوار ج: ٣٩ ص: ٢٧٧.

فاطمة عليها السلام، فحبُّ فاطمة لا ينالُه إلاّ محبّو عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

«ويأكلُ من طوبى ويرى مكانَه في الجنّة... ألا ومَن أحبَّ عليًّا قَبِلَ اللهُ صلاتَه وصيامَه وقيامَه واستجابَ له دُعاءَهُ ألا ومَن أحبَّ عليًّا استغفرَتْ له الملائكةُ وفُتِحَتْ له أبوابُ الجنّةِ الثّمانية يدخلُها من أي بابٍ شاءَ بغير حساب... ألا ومَن أحبَّ عليًّا أعطاه كتابَه بيمينِه وحاسبَه حسابَ الأنبياءِ ألا ومَن أحبّ عليًّا هوّنَ اللهُ عليه سكراتِ الموتِ وجعلَ قبرَه روضةً من رياضِ الجنّة...»، فمحبُّ عليّ لا يُحاسبُ كباقي النّاس، «... ألا ومَن أحبَّ عليًّا أعطاه الله في الجنةِ بكلِّ عرقٍ في بدنِه حوراء، وشفّعَ في ثمانين من أهلِ بيته، وله بكلِّ شعرةٍ على بدنِه حوراءَ ومدينةٌ في الجنة»[1]. «ألا ومَن عرفَ عليًّا عليه السلام وأحبَّه بعثَ اللهُ إليه ملكَ الموتِ كما يُبعثُ إلى الأنبياء، ورفعَ عنه أهوالَ منكرٍ ونكير، ونوّرَ قبرَه وفسّحَه مسيرةَ سبعين عامًا، وبيّضَ وجهَه يومَ القيامة. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام أظلَّه اللهُ في ظلِّ عرشِه مع الصدّيقين والشهداء والصالحين، وآمَنَه من الفزعِ الأكبرِ وأهوالِ يومِ الصّاخة. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام تقبّلَ اللهُ منه حسناته، وتجاوزَ عن سيئاته، وكان في الجنةِ رفيقَ حمزة سيّد الشهداء. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام أثبتَ الله الحكمةَ في قلبِه، وأجرى على لسانِه الصّوابَ وفتحَ اللهُ له أبوابَ الرّحمة. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام سُمِّيَ أسيرَ الله في الأرض، وباهى اللهُ به ملائكتَه وحَمَلةَ عرشِه. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام ناداه ملكٌ من تحتِ العرش: يا عبدالله استأنفِ العملَ فقد غفرَ اللهُ لك الذنوبَ كلَّها. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام جاءَ يومَ القيامةِ وجهُه كالقمرِ ليلةَ البدر. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام وضعَ اللهُ على رأسِه تاجَ الكرامة، وألبَسَه حلّةَ العزّ. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام مرّ على الصراطِ كالبرقِ الخاطف، ولم يرَ صعوبةَ المرورِ ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام

(١) فضائل الشيعة، ص٢ ـ ٣.

كتبَ اللهُ له براءةً من النار، وبراءةً من النفاق وجوازًا على الصّراط، وأمانًا من العذاب. ألا ومَن أحبَّ عليًّا عليه السلام لا يُنشَرُ له ديوان، ولا يُنصَبُ له ميزان، وقيل له: أدخلِ الجنةَ بغيرِ حساب. ألا ومَن أحبَّ آلَ محمد صلى الله عليه وآله أَمِنَ من الحسابِ والميزانِ والصراط. ألا ومَن ماتَ على حبِّ آلِ محمد صلى الله عليه وآله صافحَتْه الملائكة، وزارَتْه أرواحُ الأنبياء، وقضى اللهُ له كلَّ حاجةٍ كانت له عندَ الله تعالى. ألا ومَن ماتَ على بغضِ آلِ محمد صلى الله عليه وآله ماتَ كافرًا. ألا ومَن ماتَ على حبِّ آل محمد صلى الله عليه وآله ماتَ على الإيمان، وكنتُ أنا كفيلُه بالجنة. ألا ومَن ماتَ على بغضِ آلِ محمد صلى الله عليه وآله جاء يومَ القيامةِ مكتوبٌ بين عينيه هذا آيِسٌ من رحمة الله. ألا ومَن ماتَ على بغضِ آلِ محمّد صلى الله عليه وآله لم يشمَّ رائحةَ الجنة. ألا ومَن ماتَ على بُغضِ آلِ محمد صلى الله عليه وآله يخرج من قبرِه أسودَ الوجه»[1].

عندما يدخلُ الموالي إلى محضرِ الحسين عليه السلام يتركُ الدّنيا وما فيها خلفه، ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، وينشغلُ فقط بكيفيّةِ حصولِه على محبّةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام، ونَيْلِهِ ما وعدَ به الرّسول صلى الله عليه وآله، ووَعْدُ الرّسولِ هو عينُ وعدِ الله عزّ وجلّ. ولا ينال الموالي ذلك ولا يُعْطَاه إلا بعد أن يَفي بشرط الله تعالى بالزّهدِ في درجاتِ هذه الدنيا وزخرفِها وزبرجها، وعند ذلك يقدّم الله تعالى لهم الذِّكرَ العليّ...

فيا ذكرَ الله يا مولايَ يا عليّ بن أبي طالب، يا أمير المؤمنين، عبدُك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتُه بيدك، سيدي، النّاسُ عبيدُ الدّنيا، أمّا أنا فشرفٌ لي أن أكون عبدًا عندَك يا عليّ، وأنت عبد الله وأخو رسوله، فيا ليتنا كنا معكم سيدي، يا ليتنا استشهدنا بجنبكم، لَفُزْنا فوزًا عظيمًا.

(١) إحقاق الحق، ج٩ ص٤٨٦ ـ ٤٩٠؛ ج١٨ ص٤٩٠ ـ ٤٩٣.

سيدي، روحي لتراب مقدمك الفدا بل ولتراب أقدام ولدك الحسين بكربلا الذي قُتِل عطشانًا غريبًا لا ناصرَ له ولا مُعين.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

فاطمة برزخ النبوّة والولاية

يقولُ إمامنا الباقر بحقِّ جدّتِه الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام: «إنّ فاطمةَ هي ليلةُ القدر، مَن عَرَفَ فاطمة حقَّ معرفتِها فقد أدركَ ليلةَ القدر، وإنّما سُمِّيَتْ فاطمة لأنَّ الخلقَ (من الملائكةِ والأنبياءِ والمرسَلين والأولياء والأوصياء) فُطِموا عن معرفتِها، ما تكامَلَتِ النبوّةُ لنبيٍّ حتّى أقرَّ بفَضْلِها ومحبّتِها وهي الصدّيقةُ الكبرى، وعلى معرفتِها دارَتِ القرونُ الأولى»[1].

كلُّ أنبياءِ الله تعالى كانوا مأمورين بالإقرارِ بنبوّةِ الرّسول الأكرم وولايةِ أهلِ البيتِ صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى وجهِ الخصوص، الإقرارِ بفضلِ الصدّيقة الطاهرة فاطمة عليها السلام ومحبّتِها وإلا ما صاروا أنبياء وما كمُلَت النبوّة لنبيٍّ إلا حين أقرّ فعلًا بفضل السيدة فاطمة عليها السلام ومحبّتها، ويُستنبط من هذه الرواية أنْ ليس كلُّ الأنبياء قد أقرّوا بهذا الفضلِ وهذه المحبّة، ولعلّ الذين كَمُلَتْ نبوّتهم هم فقط أولي العزم من الأنبياء. ولقد سعى كلُّ الأنبياءِ والمُرسَلين إلى أن يعرفوها عليها السلام ولكنّ العقولَ احتارتْ وتاهتْ في معرفتِها ومعرفةِ آلِ بيتِها عليهم السلام جميعًا ولم يتمكن أحدٌ من ذلك، «لأنّ الخلق فُطموا عن معرفتها». ولهذا، إذا أردْنا أن ينظرَ اللهُ تعالى وإمامُ الزمان إلينا، ينبغي علينا أن نُقرَّ بهذه الحقيقةِ الولائيّةِ وإنْ لم نقوَ على معرفتها!

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٢ ص١٠٥.

قال رسول الله ﷺ: «فاطمة حوراءٌ إنسيّة»[١]، فهي حوراءُ ولكنها إنسيّة تلبّسَتْ بلباسِ البشرِ لكي يُطيقَ الناسُ رؤيتَها، كما قال: «فاطمة بضعةٌ مني يرضى اللهُ لِرضاها ويغضبُ لغضبِها»، ليس أنّها ترضى لرضى الله تعالى وتغضبُ لغضبِ الله، لا بل إنّ اللهَ عزّ وجل يغضبُ لها، فهي معيارُ غضبِه تبارك وتعالى. وإذا أردْنا أن نعرفَ عمّن هو راضٍ، فلنبحثْ عمّنْ رضيَتْ عنهم فاطمة عليها السلام! ولقد وصفَ الله تعالى نبيَّه الأعظم ﷺ بأنّه ذِكْرٌ وقرآنٌ مبينٌ بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[٢]، فالنبيُّ صلوات الله عليه هو القرآنُ المبين، وسرُّه في قلبِه، وهو يقول: «فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبيّ»[٣]، وبالتالي، ففاطمة سلام الله عليها هي قلبُ القرآن وسرُّه وهي ليلةُ القدرِ التي اختَزَنَتِ الأسرار. وقد ورد في الصلوات عليها: «اللهم صَلِّ على فاطمة وأبيها وبعلِها وبنيها والسّر المستودع فيها بعددِ ما أحاطَ به علمك»، فَسِرُّ القرآن، مُستَودَعٌ في فاطمة سلام الله عليها كما يظهرُ من الروايات. وسبيلُنا لمعرفةِ هذا السرِّ هو عشقُها سلامُ الله عليها، فإذا لم نتمكّنْ من ذلك، لن نكونَ أهلًا لمعرفةِ ذلك السرِّ وسيبقى مخفيًّا عنّا.

وبعد هذه اللّمحةِ عن مقامِها عليها السلام، لنا أن نتساءلَ: ما هو أصلُ ومنشأُ ظهورِ فاطمة عليها السلام؟ فلنرَ أولًا ما أصلُ أمير المؤمنين ورسول الله صلّى الله عليهما وآلهما، ثم بعد ذلك نتكلّمُ في أصلِ فاطمة عليها السلام.

قال الله تعالى في مُحكَم كتابِه الكريم: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٣ ص١.

(٢) (سورة يس، آية ٦٩). يقول رسول الله ﷺ: «الذّكر أنا والأئمة أهل الذكر»، الكافي، ج١ ص٢١٠.

(٣) الغدير، ج٧ ص٢٣١.

﴿السَّاجِدِينَ﴾[١]. ورد في الرواية أنّ نورَ رسولِ الله وعليّ صلى الله عليهما وآلهما دخلَ في آدم عليه السلام، ومن آدم بدأ ينتقلُ من نبيٍ إلى نبيٍ وصولًا إلى إبراهيم ومَن بعده، حتّى انقسمَ ذاك النّورُ قسمين وخرجَ مِن أطْهَرِ طاهرَين على الإطلاقِ بعد النبيّ وآله عليهم أفضل الصلاة والسلام وهما عبد الله وأبو طالب، فكان عبد الله والدَ الرسول ﷺ، وأبو طالب والدَ أمير المؤمنين عليه السلام[٢]. ولكن، هل كانت خلقةُ فاطمة كخِلْقَةِ عليّ ورسول الله صلى الله عليهما وآلهما؟ لا. لماذا صعدَ الرسول الأعظم في المعراج؟ هل كان مِن شيءٍ خافٍ عنه؟ ما كان شيءٌ خافٍ عنه ﷺ، فكلُّ أسرارِ الملكوتِ وأسرارِ الوجود، من سماءٍ وأرضٍ وكائنات، احتواها علمُه قبل عروجِه إلى السماء، حيث يقول تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[٣]، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «كنتُ نبيًّا وآدمَ بين الماء والطين»[٤]، فمِن أجل ماذا عرج الرسول إذًا؟ عَرَجَ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[٥] والمقصودُ بـ «نُرِيَه» الرؤيةُ لجميعِ المندرجين تحتَ وجودِه المقدّس صلوات الله وسلامه عليه، ففاطمة وعليّ والأئمة عليهم السلام هم آياتُ الله عزّ وجل، حيث ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما للهِ آيةٌ أكبرُ مني»[٦].

---

(١) الكافي، ج١ ص١٢٥.

(٢) عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نُوِّرَت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الذي نُوِّرَت منه الأنوار، وهو النور الذي خُلِقَ منه محمّدًا وعليًا، فلم يزالا نورَيْن أوّلَين إذ لا شيء كُوِّنَ قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهِرَين مطهّرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهِرَين في عبدالله وأبي طالب عليهما السلام»، الأصول، ج١ ص٤٤١ ـ ٤٤٢.

(٣) سورة طه، آية ١١٤.

(٤) بحار الأنوار، ج١٦ ص٤٠٢.

(٥) سورة الإسراء، آية ١.

(٦) بحار الأنوار، ج٣٦ ص٦٧ ـ ٦٨.

صعدَ رسول الله ﷺ في المعراج لكي يكشفَ حقيقةَ فاطمة ويُنزلَها إلى عالمِ الشهادة، والتي لولاها لما كان الأئمة ولما كان هناك قرآنٌ ناطق، فعنه ﷺ أنّه قال: «فلمّا خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدمَ وأخرَجَني من صُلبه وأَحَبَّ اللهُ عزَّ وجلّ أن يُخرِجَها من صُلبي، جَعَلها تفاحةً في الجنّة وأتاني بها جبرئيلُ عليه السلام... فقال: يا محمّد، إنّ ربَّك يقرئُكَ السّلامَ. قلتُ: منه السّلامُ وإليه يعودُ السّلام. قال: يا محمّد، إنّ هذه تفاحةٌ أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنة. فأخذْتُها وضمَمْتُها إلى صدري، قال: يا محمّد، يقول الله جلّ جلاله كُلْها ففَلَقْتُها فرأيتُ نورًا ساطعًا وفَزِعْتُ منه. فقال: يا محمّد، ما لَك لا تأكُل؟ كُلْها ولا تَخَفْ فإنّ ذلك النّورَ للمنصورةِ في السّماءِ وهي في الأرضِ فاطمة»[1]. لقد فلَقَ رسول الله ﷺ تلك التفاحةَ قسمين، فأخذ قسمًا منها وأكلَه، وأحسّ ببردِها ونورِها في جوفِه، إذ يقول ﷺ: «أكلتُها وتحوّلَتْ ماءً في صلبي»[2]، ثمّ حين نزلَ إلى الأرض، واقَعَ خديجةَ الكبرى سلام الله عليها، فأحسَّتْ بذلك الوجودِ المقدّسِ في داخلِها باللحظةِ نفسها. ففاطمة عليها السلام لم تتقلّبْ في السّاجدين، ولم تأتِ عبر آدم عليه السلام. وما من روايةٍ واحدة تتحدّثُ عن أنّ نبيًّا من الأنبياء أو إمامًا من الأئمة قد صعدَ إلى السماء وأكل شيئًا من الجنة فأصبح بصلبِه مثلَ ذلك النّور، وَحدُها فاطمة خُصّصَتْ بهذه الخلقة. أمّا القسمُ الآخر من التفّاحة، فخُلقَ منه سيفُ ذو الفقار كما تقول الروايات. ويُسأَل النبي الأعظم ﷺ: أين كانت فاطمة عليها السلام قبل ذلك؟ فيقول: «كانت في حُقّةٍ تحتَ ساقِ العرش»[3] وحينما أضاءت، أضاءَ كلُّ شيء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٣ ص٤.

(٢) أمالي الصدوق، ص٥٤٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٣ ص١.

لقد أعطى الله عزّ وجلّ فاطمةَ عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله حتى يُرضِيَه، ألم يُخاطبْه قائلًا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[١]؟ ثمّ في آية أخرى يقول عزَّ مَن قائل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[٢]، فالرّضا والرّضوانُ وكلُّ الأئمةِ الأطهارِ كانوا من تلكَ الراضيةِ المرضية، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... ونحن فروعُ الزيتونة»[٣]، فالزيتونةُ هي فاطمة عليها السلام وهي الشجرة المباركة، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾[٤]، وأنوارُ الأئمةِ كلُّهم توقدُ من هذه الشجرة المباركة، إذ إنّهم «الأنوار العلويّة المشرقة من شمس العصمة الفاطمية»[٥]. فهل يمكن لعقلِنا أن يتصوّرَ ماهيّةَ شأنِ أهلِ هذا البيت عليهم السلام وحقيقته؟

تقول الرواية: «بيتُ عليّ وفاطمة من حجرةِ رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين وسقفُ بيتِهم عرشُ ربِّ العالمين»، إنّ سقفَ بيتِ عليّ وفاطمة هو عرشُ ربِّ العالمين، والعرشُ هو الوجودُ بأسره، ممّا يعني أنّ كلَّ الوجودِ هو سقفُ بيتِهم عليهم السلام. والمقصودُ بهذا البيت، بيتُهم الحقيقيّ لا ذاك الذي كانوا يقطنون فيه. «وفي قعرِ بيوتُهم فرجةٌ مقشوطةٌ إلى العرش، معراجُ الوحيِ والملائكةُ تنزلُ عليهم بالوحي صباحًا ومساءً وفي كل ساعةٍ بطرفةِ عينٍ والملائكةُ لا ينقطعُ فوجُهم فوجٌ ينزل وفوجٌ يصعد»، فهذه الفرجةُ هي معراجُ الوحي، ممّا يعني أنّ الوحيَ الذي كان يصلُ إلى الأنبياء كلّهم، كان من قعرِ بيوتِهم يسطع، إلى أن تقول الرواية: «ولا يجدون لبيوتهم سقفًا غير العرش وما من بيتٍ من بيوتِ الأئمةِ منا إلاّ وفيه معراج الملائكة»[٦]، فمَن

---

(١) سورة الضحى، آية ٥.
(٢) سورة الكوثر، آية ١.
(٣) بحار الأنوار، ج٢٦ ص٢٥٩.
(٤) سورة النور، آية ٣٥.
(٥) مشارق أنوار اليقين، ص١١٤ ـ ١١٧؛ بحار الأنوار، ج٢٥ ص١٦٩ ـ ١٧٤.
(٦) بحارالأنوار، ج ٥٢ ص٩٧.

يرى هذه الحقيقة؟ وهل يُسمح لأيٍّ كان بأن يراها؟ لا يرى النّاسُ الأمورَ بطريقةٍ متشابهة، حتى بهذا النظرِ الماديِّ الظاهري. فالبعضُ يمتلكُ نظرًا حادًّا فيرى عن بعيدٍ وعن قريبٍ على حدّ سواء، ولكن هناك مَن لا يرى عن بُعد بل يرى عن قربٍ فحسب، أو العكس. وهذا الواقع ذاتُه يسري على عالمِ المعنى والباطن. وبالتّالي، فإنّ هناك من الناس مَن يعرفُ أهلَ البيت ولكنّ مبلغَهم من العلمِ قليلٌ، إذ لم يرَوا كلَّ تلك الحقيقة ولم يعاينوها حتى يعرفوها ويصدّقوها ويتكلّموا بها. فرؤيةُ البعضِ محدودةٌ أيضًا بالباطن، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[1]، وتتوقّفُ هذه الرؤيةُ على صدقِ طلبِ الإنسانِ ومحبتِه ونيتِه. هل نعرفُ مَن هي فاطمة لنحضرَ مجلسَها أو نتلفظَ باسمها؟ وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام: «لِمَ سُمِّيَت فاطمة؟ قال: لأنّ الخلقَ فطمُوا عن معرفتِها»[2]، فأنّى للمحدودِ أن يُدركَ ظلَّ اللهِ عزّ وجلّ! وما يتيسّرُ لنا معرفتُه بظاهرِه، هو ما بيّنَه أهلُ البيتِ عليهم السلام فقط. كما سئل الإمام الصادق عليه السلام: «لم سُمِّيَت فاطمة بالزهراء؟ قال: لأنّها كانت تزهرُ في كلّ يومٍ ثلاثَ مرّاتٍ لأميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب»[3]، كانت تزهرُ بالنورِ الأصفر والنورِ الأبيض والنورِ الأحمر، عندَ الصباح والظهر والمغرب ولهذه الأنوارِ علاقةٌ بعالمِ المعنى، فهل ندري ما حقيقةُ هذه الأنوارِ التي كانت تزهرُ بها لأمير المؤمنين عليه السلام؟ وينبغي الإلتفاتُ إلى أنّ فاطمة سلام الله عليها ليسَت لنا، إنّما هي أنسٌ لرسولِ الله وعليّ بن أبي طالب وأهل البيت عليهم السلام، حيث قالوا: «نحن حُجَجُ الله على خَلْقه، وجدُّتنا فاطمة حجّةُ الله علينا»[4]، كما أنّنا لا نقول في دعاءِ التوسّلِ عن فاطمة

(١) سورة المعراج، آية ٦ ـ ٧.
(٢) معجم أحاديث الإمام المهدي، ج٥ ص٥٠١.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣ ص١.
(٤) تفسير أطيب البيان، ج١٣ ص٢٢٦.

سلام الله عليها: «يا حجّةَ الله على خلقه». وبعد كلّ ما تقدّم، على الجميع أن يعلمَ ويعقلَ ويُدركَ ويفهمَ مَن قتلَ ذاك اللعين!

ورد في الصلوات الخاصّة بمولاتنا فاطمة عليها السلام: «اللهم كُنْ أنتَ الطالبَ لها ممَّن ظلَمَها واستخفّ بحقّها، وكنِ الثائرَ اللهمّ بدَمِ أولادها»[1]، وقد ورد في زيارتها صلوات الله وسلامه عليها: «اللّهم العنْ مَن استخفَّ بحقِّها»[2]. فالله سبحانه وتعالى هو مَن سيطالبُ بحقِّ فاطمة مِن كلّ مَن ظلمَها واستخفَّ بحقِّها وهو الذي سيثأرُ لها ولأولادِها، فمَن هو الظالمُ المستخفُّ بحقِّها؟ لقد ذكرَ عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ظالمَها بقوله: «كانت أمُّنا صدّيقة، ابنةَ نبيٍّ مُرْسَل، وماتَتْ وهي غَضْبَى على قومٍ فنحنُ غِضَابٌ لغَضَبها»[3]. فعلى مَن غضبَتْ فاطمة وقالت لعليّ: «أوصيكَ أنْ لا يشهدَ أحدٌ جنازتي مِن هؤلاء الذين ظلموني وأخذوا حقّي فإنّهم أعدائي وأعداءُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولا تتركْ أن يُصلّي عليَّ أحدٌ منهم، ولا من أتباعهم، وادفنّي في اللّيل إذا هدَأتِ العيونُ ونامَتِ الأبصار»[4]؟ يؤكّدُ التاريخُ أنّه ما مِن أحدٍ مشى خلفَ جنازةِ فاطمة سلام الله عليها إلا عدّةُ أفرادٍ لم يتجاوزْ عددُهم عددَ أصابعِ اليد، من بينهم سلمان والمقداد وعمّار وأبو ذر، فكلُّ أمّةِ النبي ذاك الوقت لم تمشِ خلفَ جنازتها، وعلى رأسِهم اللّعناءُ الأوّل والثاني والثالث، وكلُّ من لم يمشِ خلفَها فهو ظالمٌ لها، وكلُّ مَن ظلمها، سيطالبُ الله عزّ وجل بحقِّها منه. أما المستَخِفُّ بحقِّ فاطمة سلام الله عليها فهو كلُّ قائلٍ بأنّها مثلُ باقي النساء، حيث وردَ في الصلاة عليها: «التي انتجَبْتَها وفضّلْتَها

(١) بحار الأنوار، ج٩١ ص٧٤.
(٢) زيارة السيدة فاطمة عليها السلام.
(٣) شرح نهج البلاغة، ج٦ ص٤٨ ـ ٤٩.
(٤) النواصب، ص٩٠.

واخترتها على نساءِ العالمين»، وكذلك كلُّ منكِرٍ لمقاماتها وفضائلها ومناقبها وعَظَمَتِها، فالله عزّ وجل سيعاقِبُ المستخفّين بحقّ فاطمة سلام الله عليها وسيوقفُهم ويسألهم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[1].

إن فاطمة عليها السلام قد دعَت للعُصاةِ من أمّةِ أبيها محمّد صلى الله عليه وآله في آخرِ لحظاتِ حياتها الشريفة علّهم يعقلون ويُبصرون، إذ تقولُ أسماء أنها رأتْها رافعةً يَدَيْها إلى السّماء وهي تقول: «اللّهم إنّي أسألُكَ بمحمد المصطفى وشوقِه إليّ، وببَعْلي عليّ المرتضى وحزنِه عليّ، وبالحسنِ المجتبى وبكائِه عليّ، وبالحسين الشهيد وكآبَتِه عليّ، وببناتي الفاطميّات وتحسّرهِنّ عليّ، (أنْ) تَرْحَمَ وتغفِرَ للعصاةِ من أمّةِ محمّد، وتُدخِلَهم الجنّة، إنّك أكرمُ المسؤولين، وأرحمُ الراحمين»[2].

بعد حادثةِ الدّار، مَرِضَت فاطمة عليها السلام مرضًا شديدًا، ومَكَثتْ أربعين ليلةٍ في مرضِها، فلمّا نُعِيَت إليها نفسُها قالت لعليّ عليه السلام: يا ابن عمّ، إنّه قد نُعِيَتْ إليّ نفسي وإنّني لا أرى ما بي إلا أنّني لاحقةٌ بأبي ساعةً بعد ساعة، وأنا أُوصيكَ بأشياءَ في قلبي. قال لها عليّ: أَوْصي بما أحببتِ يا بنت رسول الله. فجلسَ عند رأسِها وأخرَجَ مَن كان في البيت، ثم قالت: يا بن عمّ، ما عَهِدْتَني كاذبةً ولا خائنةً ولا خالَفْتُكَ منذ عاشَرْتَني. فقال: معاذَ الله، أنتِ أعلمُ بالله وأبرّ وأتقى وأكرمُ وأشدُّ خوفًا من الله، مِن أن أُوَبِّخَك بمخالفة، وقد عزَّ عليَّ مفارقتُك وفقدُك إلا أنّه أمرٌ لا بدَّ منه، واللهِ جدّدْتِ عليَّ مصيبةَ رسول الله، وقد عظمَتْ وفاتُك وفقدك، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون من مصيبةٍ ما أفجَعَها وآلمها وأمَضَّها وأحزَنها، هذه والله مصيبةٌ لا عزاءَ لها، ورزيّةٌ لا خلفَ لها، ثم بكيا جميعًا ساعة. ثمّ أخذ عليٌّ رأسَها

(١) سورة الصافات، آية ٢٤.

(٢) وفاة فاطمة الزّهراء عليها السلام، ص٧٧ ـ ٧٨.

وضمَّها إلى صدرِه ثم قال: أَوْصيني بما شئتِ، فإنّك تجديني فيها أَمضي كما أمرتِني به، وأختارُ أمرَكِ على أمري. ثم قالت: جزاكَ الله عني خيرَ الجزاء، وأوْصَتْه بوصاياها، منها: أوصيكَ يا ابن عمّ، أن تتخّذَ لي نعشًا، فقد رأيتُ الملائكةَ صوّروا صورتَه، فقال لها: صِفيهِ لي، فوصَفَتْه، فاتّخذه لها.

وفي روايةٍ عن ابن عباس قال: «لما تُوفِّيَت ﷺ، شقَّت أسماءُ جيبَها وخرَجَتْ فتلقّاها الحسنُ والحسينُ فقالا: أين أمّنا؟ فسكتَتْ، فدخلا البيتَ فإذا هي ممتدّة، فحرَّكَها الحسين فإذا هي ميتة، فقال: يا أخاه، آجرَكَ الله في الوالدة، وخرجا يُناديان: يا محمّداه، يا أحمداه، اليوم جُدِّدَ لنا موتُك، إذ ماتَتْ أمُّنا. ثم أخبرا عليًّا وهو في المسجد، فغُشِيَ عليه حتى رُشَّ عليه الماء ثم أفاقَ فحمَلَهما حتى أدخلَهما بيتَ فاطمة وعند رأسِها أسماءُ تبكي وتقول: وايتامى محمّد، كنّا نتعزّى بفاطمة بعدَ موتِ جدِّكما، فَبِمَن نتعزّى بعدها؟ فكَشفَ عليٌّ عن وجهِها، فإذا برقعةٍ عند رأسِها فنظرَ فيها فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أَوْصَتْ به فاطمة بنت رسول الله ﷺ. أَوْصَت وهي تشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا عبدُه ورسوله وأنّ الجنةَ حقّ والنارَ حقّ وأنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنّ الله يبعثُ من القبور. يا عليّ، أنا فاطمة بنت محمّد، زَوَّجَني اللهُ منك لأكونَ لك في الدّنيا والآخرة، أنتَ أَوْلى بي من غيري، حنِّطني وغَسِّلْني وكَفِّنّي بالليل وصَلِّ عليَّ وادفِنّي بالليل ولا تُعْلِم أحدًا وأستوْدِعُك اللهَ وأقرئ على ولدي السّلام إلى يوم القيامة».

فلمّا جنَّ الليل، غسَّلَها علّي ووَضعَها على السّرير، وقال للحسن: ادْعُ لي أباذرّ، فدَعَاه فحملاه إلى المُصلّى، فصلّى عليها ثم صلّى ركعتين، ورفعَ يديه إلى السّماء فنادى: هذه بنتُ نبيِّك فاطمة، أَخْرَجْتَها من الظّلماتِ إلى النور، فأضاءَتِ الأرضَ ميلًا في ميل. فلمّا أرادوا أن

يَدْفِنوها، نودوا من بقعةٍ من البقيع: إليَّ إليَّ، فقد رُفِعَ تُربَتُها منّي. فنظروا، فإذا هي بقبرٍ محفور، فحملوا السّريرَ إليها فدفنوها، فجلس عليٌّ على شفيرِ القبر فقال: يا أرض، استودعتُكِ وديعتي، هذه بنت رسول الله. فنودي منها: يا عليّ، أنا أرْفَقُ بها منك، فارجعْ ولا تهتَمّ..»[1]. وهناك عليٌّ آخر لكنْ في كربلاء، أراد أن يَدْفِنَ أباه الحسين عليه السلام لكنّه وجده جثةً بلا راس، عاري اللّباس، مُقَطّع الأعضاء... لقد نُودِيَ أميرُ المؤمنين عليه السلام بعد دفْنِ فاطمة عليها السلام بأن ارجِع ولا تهتمّ، لكن لهفي على الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام كيف رجع إلى عمّته زينب من دفْن والده؟ رجع ومِلؤُه الهمّ والغمّ، إذ كيف سيُخْبِرُ النّساء والأطفال بما رآه وشاهده في كربلاء؟ وكيف وارى الأجساد الطاهرة في الثرى؟

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) بحار الأنوار، ج٤٣ ص٢١٤ ـ ٢١٥.

غربة إمام الزمان عليه السلام

وردَ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «خيرُ الإخوانِ مَن إذا فقدْتَه لم تحبَّ البقاءَ بعده»[1]. قد يكونُ لدينا الكثير من الإخوان في هذه الدّنيا، ولكنّ خيرَهم مَن يكون أخًا في الله عزّ وجل، وهذا هو الذي إذا فقدْتَه لم تحبَّ أن تبقى بعدَه، وقد وردَ في الحديث: «وهل الدينُ إلّا الحب؟»[2]، فهذا الأخُ يمثّلُ قلبَك ودينك. إذ تقول الرواية: «المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يخالل»[3]. ومن هنا نفهمُ عبارةَ أبي الفضل العباس عليه السلام حين قال: «إنّي أحامي أبدًا عن ديني»، فدينُه هو الحسين عليه السلام، وهو الذي ناداه في آخرِ لحظاتِ حياته: أخا يا حسين أدرِكْ أخاك. إذًا، فالأخوّةُ إمّا تكونُ للدنيا أو تكونُ للآخرة وهي الأخوّةُ في الله تعالى. وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إذا اتخذَكَ وليُّك أخًا فكنْ له عبدًا وامنحْهُ صدقَ الوفاءِ وحسنَ الصفاء»[4].

مَن هو خليلُنا وخيرُ إخواننا في الله؟ ينبغي أن يكونَ هذا الشخصُ هو إمامُ زماننا عليه السلام، ولكن هل الواقعُ هكذا؟ لقد فقدْنا إمامَ زماننا ونحن لا نراه ولا نسمعُ صوتَه، فلماذا لا زلنا نحبُّ البقاء؟ في حين أنّنا نرى في

---

(١) ميزان الحكمة، ج١ ص٤٦.
(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص٢١٩.
(٣) أمالي الطوسي، ص٥١٨.
(٤) غرر الحكم، ٤١٤١.

كربلاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام قال لعليّ الأكبر عليه السلام: «يا علي، على الدنيا بعدَك العفا»، وذلك لأنّه كان خيرَ الإخوانِ بالنسبة إليه، فما المانعُ من أن يكونَ هذا الأخُ هو ولَدُك أو ابنتُك؟ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمة»[1]، فقد يكونُ كِلَا الأب والإبن من أبناءِ أميرِ المؤمنين ورسول الله صلى الله عليهما وآلهما في مقامِ الولايةِ الباطنيّ.

إنّ المحبةَ التي يُفتَرَضُ أن تكونَ لصاحبِ الزمان عليه السلام نعطيها لغيرِه، وذلك بسببِ حبّنا للدنيا وزينتِها، مع أنّنا نعلمُ بأنّ صاحبَ الزمان عليه السلام يرى مقامَنا ويسمعُ كلامَنا وإذا سلّمْنَا عليه يردُّ سلامَنا، حيث وردَ في الزيارة: «أشهدُ أنّك ترى مقامي وتسمع كلامي وتردّ سلامي». إنّنا في هذا المجلسِ نذكرُه ونصلّي عليه ونسلّمُ، ولكنّه عالِمٌ ببواطنِنا وحقائقِنا وسرائرِنا، فإذا حضرَ ونظرَ إلى قلوبِنا ورآها مشغولةً بحبِّ الدنيا وأهوائِها وأحزانِها وغافلةً عن محبّةِ الله وعشقِه، كيف سيخرجُ من المجلس؟ إذا نظرَ إلى أحدِنا ليُسلّمَ عليه، سيراه مشغولًا بالدنيا، وإذا نظرَ إلى آخر، سيراه مغمومًا على ولدِه، وآخرَ مشغولًا بمرضِه وأحزانِه وآلامِه وشجونِه، وآخر يفكّرُ باللحظةِ التي سيتزوّجُ أو يُنْجِبُ فيها، يُقلِّبُ نظرَه في الحاضرين، فيرى أنّ هذا قد تغلغلَ حبُّ الدّنيا في قلبِه، وذاك يفكرُ بالجاهِ والمنصب، وثالثٌ يفكّرُ بشهوتِه ورغباتِه وهكذا... فكيف سيكونُ حالُ قلبِه الشّريفِ في تلك اللحظات؟ علمًا أنّنا نحن الذين نستدعي إمامَ زمانِنا حين نعقدُ مجلسًا، إذ نعلم أنّه ما من مجلسٍ إلّا ويحضرُ فيه عليه السلام، ولكن ماذا يجدُ في قلوبِنا حينما يحضر!

إنّنا نلتجئُ إلى أهلِ البيتِ عليهم السلام في كلّ شيء إلّا في الحبّ والعشق، حيث نطلبُه من غيرهم، في حين يقول الله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا

(١) بحار الأنوار، ج٣٦ ص١١.

﴿وَزَكَوٰةً﴾[١]، فهذا نبيّ الله يحيى عليه السلام لم يُرِد الحنانَ من أحدٍ إلّا من الله تعالى، بينما لا نستأنِسُ نحن لا بصلاةٍ ولا بقرآنٍ ولا بدعاءٍ ولا بمجلسٍ لأنّ أنفسَنا تشعرُ بالملَلِ والإنقباضِ والكسلِ بعدَ مدّة، وهذا طبيعيّ إذ كيف لشخصٍ يسكنُ حبُّ الدنيا في قلبِه أن يستأنسَ بالآخرة؟

إنّنا نُسَوِّدُ وجوهَنا أمامَ صاحبِ الزّمان، أوَلا يكفي أنّه يبكي صباحًا ومساءً على مصابِ جدِّه الحسين وعمّتِه زينب عليهما السلام بدلَ الدموع دمًا؟ ومع ذلك، نُبكّيه ونُحْزِنُه ولا نكترثُ لحاله، ولا نطرقُ بابَه إلا لمصلحة. ورد في الرواية: «وأكثروا الدُّعاءَ بتعجيلِ الفرج، فإنّ ذلك فرجُكم»[٢]، ولكنّنا لا ندعو بتعجيلِ الفرجِ كلَّ يومٍ لأن لا مصلحةَ لنا بذلك. يُحكى أنّ أحدَهم رأى صاحبَ الزّمان عليه السلام في منامِه وقد أصبح هناك مجرى على خدّيه من كثرةِ البكاء، فسأله: سيدي مِمَّ بكاؤك؟ قال عليه السلام: «لقد آذانا جهلاءُ شيعتِنا»[٣]، إنّنا نحن الّذين نؤذيه ونُبكيه ونُسِرُّ الشياطينَ بذلك. فبماذا سنُجيبُ حين يُوقِفُنا أهلُ البيت عليهم السلام ويسألوننا عمّا فعلْناه بإمامِ زمانِنا وكيف خفّفْنا عنه وبماذا خدمْناه؟

إنّ صاحبَ الزمان عليه السلام يرانا، كيف لا وهو الذي خاطبَنا في رسالتِه للشيخ المفيد قائلًا: «فإنّا نحيطُ علمًا بأنبائِكم ولا يعزبُ عنّا شيءٌ من أخباركم... إنّا غير مُهمِلين لمراعاتِكم ولا ناسِينَ لذكرِكم ولولا ذلك لنزلَ بكم الأواء (الشدّة والضيق والمرض) واصطلمَكُم الأعداء، فاتّقوا اللهَ جلّ جلاله... فليعملْ كلُّ امرئٍ بما يقربُ به من محبّتنا ويتجنّبُ ما يُدنيه من كراهتِنا وسخطِنا فإنّ أمرَنا بغتة فجاءةً حين لا تنفعُه توبةٌ ولا يُنجيه من

---

(١) سورة مريم، آية ١٣.

(٢) كمال الدين، ٤٨٥.

(٣) الإحتجاج، ج٢ ص٢٨٩.

عقابِنا ندمٌ على حوبة»[١]. إنّه سلامُ الله عليه ينتظرُ مَن كان قلبُه مفعمًا بالعشقِ لله عزّ وجل لا لنفسِه وللدنيا وحطامها، وهو ينتظرُ العاشقَ الذي لا يكترثُ لأيّ شيءٍ يجري عليه، بل يسلّمُ للقدرِ والقضاءِ ولا يقترحُ على ربّه شيئًا ولو ذُبِحَ من الوريد إلى الوريد كأصحابِ الحسين عليه السلام، الذين لم يدْعوا الله عزّ وجل أن يرفعَ البلاءَ عنهم، بل رضوا بكلّ ما جرى عليهم، بخلافِنا نحن، حيث لا نرضى بالقضاءِ والقدر الذي يجري علينا ولا نشكرُ الله على جزيلِ نعَمِه، فالعاشقُ الحقيقيُّ هو الذي إذا أُعطيَ شيئًا يشكرُ الله ويثني عليه كثيرًا، فكيف إذا كان هذا الشيءُ هو أعظمُ النِّعم، أي ولايةُ أهلِ البيت عليهم السلام ومحبّتهم؟ والعاشقُ الحقيقيُّ يحفظُ حقَّ المحبّة، فسواء أنعمَ عليه محبوبُه أو ابتلاه يبقى يحبُّه في كلِّ الأحوال. ماذا نتعلّمُ من السيرةِ الحسينية؟ أم أنّنا فقط نسمعُ أصواتًا تدخلُ إلى مسامعِ أذنٍ ثم تخرجُ من الأخرى؟ ونردّدُ ما يُقال لنا من دونِ فعل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[٢].

هل هناك مجنونٌ بحبِّ قائمِ آلِ محمد عليه السلام كعابسٍ الذي نزلَ إلى الميدانِ وكان شيخًا كبيرًا وعندما لم يتقدّمْ إليه أحدٌ يقاتلُه، رمى بسيفِه ودرعه، فنادوه: يا عابس ما بالك أَجُنِنتَ؟ فقال لهم: إنّ حبَّ الحسين أجنّني؟ مَن الذي أجنّنا نحن؟ حبُّ أولادنا، أم حبُّ أزواجنا؟ لقد رفعَ الإمام الحسين عليه السلام التكليفَ عمّن كانوا معه في كربلاء وقال لهم: إنّ هذا اللّيلَ قد غشيَكُم فاتخذوه جملًا، فرحلَ الكثيرون ولكنّ أصحابَه المخلصين لم يتخلّوا عنه ولم يخذلوه ولم يفضّلوا الدّنيا ومُلكَها، كما فعل عمر بن سعد الذي طمعَ بمُلك الريّ، بل فضّلوا الموتَ مع إمامهم الحسين عليه السلام على

(١) الإحتجاج، ج٢ ص٤٩٥.
(٢) سورة الصّف، آية ٣.

البقاءِ في الحياةِ بعده. فهل نحن هكذا مع إمامِ زماننا؟ لا. لقد عشقُوا الموتَ لأنّ فيه اللّقاءَ بالمحبوب، فمتى سنتعلّمُ منهم الحبَّ والعشقَ والوفاء؟ ويُروى أنّه حين جاء عزرائيل عليه السلام ليقبضَ روحَ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام قال له: أحبيبٌ يقبضُ روحَ حبيبِه؟ فقال له الله: أحبيبٌ يكرهُ لقاءَ حبيبه؟ فعندما سمع هذا الكلام، قال: اقبضْ روحي يا عزرائيل. أمّا نحن فلا نحبُّ الموت، سُئلَ أبو ذرّ: ما بالُنا نكرهُ الموت؟ فقال: لأنّكم عمّرْتُم دنياكُم وخرّبْتُم آخرتكم فلا تحبّون أن تنتقلوا من دارِ عمارٍ إلى دارِ خراب!

إنّ أصحابَ إمامِ الزمان عليه السلام لا ينظرون إلى أيّ شيءٍ غير محبوبهم. فهو عليه السلام ينتظرُ ممهّدين حقيقيّين له، ولا يريدُ أناسًا جلَّ تفكيرِهم مصبوبٌ على دنياهم ومشاكلِهم وهمومهم وقلوبهم المكسورة. إنّه يطلبُ أناسًا لا يبالون أوَقعوا على الموتِ أو وقعَ الموتُ عليهم، وإذا أصيبوا بالمرضِ أو الافتقارِ أو التمحيصِ أو البلاءِ حمدوا الله وشكروه لأنّ كلَّ شيء من المحبوبِ محبوبٌ. دَعَوْنا صاحبَ الزمان عليه السلام إلى أن يدخلَ إلى مجلسِنا وقلوبنا، ولكنّه لا يظهرُ ولا يتجلّى ولا يسكنُ في قلبِ عبدٍ مملوءٍ بحبِّ الدّنيا، إنّه ينتظرُنا حتى نطهّرَ قلوبَنا، وحينئذ يدخلُ إليها ويسكن فيها. غير أنّ هذا القلبَ لا يطهرُ إلّا بماءٍ خاصّ، وهذا الماءُ هو دموعُنا على الحسين بن عليّ عليهما السلام. إنّ الحسين عليه السلام هو الذي يطهّرُ قلوبَ شيعتِه من حبِّ الدنيا ومن كلّ دنَسْ، وفي الرواية عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أوّلُ قطرةٍ من دمِ الشهيد كفارة لذنوبه»[1]، فقد غُفِرَت ذنوب شيعته[2] من أوّلِ

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج١٨ ص٢٩٣.

(٢) يقول تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (سورة الفتح، آية ٢)، المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال سأله رجل عن هذه الآية فقال: «والله ما كان له ذنب ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة عليّ عليه السلام ما تقدم من ذنبهم وما تأخر»، بحار الأنوار، ج٦٨ ص٢٤.

قطرةِ دمٍ سالت منه عليه السلام. يقولُ الإمام الرضا عليه السلام: «فعلى مثلِ الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاءَ يحطُّ الذّنوبَ العظام»[1]. فعندما نطهّرُ قلوبَنا بالبكاءِ على الحسين بن عليّ عليهما السلام، تدخلُ فاطمة وأمير المؤمنين وصاحب الزمان عليهم السلام إلى هذا القلب، وحينما تتوسّطُ فاطمة عليها السلام قلبَك، تبكي فيه على ولدِها عليه السلام، فتجري الدّموعُ من عينيكَ. يقول الإمام الحسين عليه السلام: «أنا قتيلُ العَبرَة، لا يذكرُني مؤمنٌ إلاّ بكى»[2]، لو كان أبو عبد الله الحسين عليه السلام بيننا ونريدُ أن نودّعَه، كيف نبكي عليه؟ ألا نبكي بكاءَ الفاقدين؟ تصوّروا حالَ قلبِ مولاتنا فاطمة عليها السلام لو حضرت في محفلِ العزاءِ ورأَتْ أحدًا منا يبخلُ بدموعِه على الحسين بن عليّ؟ لأجل هذا، إذا لم تستطعْ أن تبكي فتباكى ولا تتركْ فاطمة سلام الله عليها تبكي لوحدها. مولاتي يا فاطمة، بحقّ غريب كربلاء، أنظري إلينا واغمرينا بعباءتك، وأَخْرِجي حبَّ غيرِكم من قلوبنا.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) أمالي الصدوق، ص١٩٠.

(٢) كامل الزيارات، ص١١٧.

محمّد وآل محمّد
مبدأُ ظهورِ الأسماءِ والصفاتِ وغايته

قال الإمام الحسين عليه السلام: «إلهي... عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيبًا»[1].

إنّ المسلمين يؤمنون، نظريًّا، بوجودِ الله تعالى وإحاطتِه بكلّ الوجود ولكنّهم عمليًا، لا يرون أنّ اللهَ رقيبٌ على كلِّ شيء، ولهذا، يصدرُ منهم الذّنبُ والمعصية. إنّ هذا الوجودَ فيه من القوانينِ والأنظمة ما يُستدَلُّ به على وجودِ المُدَبِّر والصّانع، فما من سببٍ في هذا الكون إلا وله مسبّبٌ وما من معلولٍ إلا وله علّة. فمثلًا، لو لم يكن هناك شمسٌ، لمَا كانت هناك حرارةٌ والتي هي إحدى عِللِ الحياةِ على الأرض، وكذلك الحالُ مع الهواءِ والماء، فعلّةُ الحياةِ معلولةٌ لهذه العناصر، ولكن ما علّةُ وجودِ هذه العناصر أصلًا؟ علّةُ وجودِها بلا شكّ هي الله تعالى، ولكن كيف نستدلّ، علميًّا، على وجودِ الله عزّ وجل؟ وكيف نصلُ إلى مقامٍ نرى فيه ما يراه أميرُ المؤمنين عليه السلام حين يقول: «ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ اللهَ قبلَه وبعده ومعه وفيه»[2]؟ لا يمكن تحقيقُ ذلك إلا من خلالِ معرفةِ أسماءِ الله وصفاته، ولكن من أين ننتزعُ هذه الأسماء والصفات؟ على سبيل المثال، عندما تلِدُ

(١) دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.
(٢) تفسير مواهب الواهب، ج٢ ص٣٦.

المرأةُ طفلًا، يظهر في هذا الشأن والمقام اسمُ الله الخالق وحين يمرضُ الإنسانُ ويتناول الدواءَ ليحصلَ على الشفاء، يظهرُ اسمُ الله الشافي، والأبُ المُعيلُ لأسرتِه هو مظهرٌ لاسمِ الله الرزّاق لأنّه مصدرُ الرّزقِ بالنسبة لعِيَاله، وكذلك إبليس هو مظهرٌ لاسمِ الله المُضِلّ ويقعُ على مَن لا يريدُ الهداية، وحين يحبُّ الإنسانُ أحدًا ويتودّدُ إليه، يظهرُ فيه اسمُ الله الودود، وحياتُنا بحدّ ذاتها تدلُّ على أنّ هناك مُحييًا وحيًّا نستمدُّ منه الحياة، وامتلاكُنا للقدرةِ يدلّنا على أنّ هناك قادرًا تُستَمَدُّ منه القدرةُ وكذلك الحالُ مع كلِّ شيء في هذا العالم. فكلُّ الموجوداتِ هي مظاهر للأسماءِ الإلهيّة ولكن بلحاظ، حيث تختلفُ شدّةُ التمظهرِ وضعفُه باختلافِ هذه الموجوداتِ عن بعضها البعض، فالناس العاديّون ليسوا كالأنبياءِ والأولياءِ في هذا المجال، والأنبياءُ والأولياءُ ليسوا كالنبيّ الأعظم ﷺ، فهو المظهرُ الأتمُّ والإسمُ الجامعُ والحاكمُ على جميعِ الأسماءِ والصفات الإلهية المعبَّر عنه بالإسم الأعظم. فكلُّ شيءٍ في هذا العالم هو آياتٌ صغرى تدلّ على أسماء الله تعالى أمّا النبي الأعظم ﷺ والأئمةُ عليهم السلام فهم الآياتُ الكبرى بل والعظمى، «ما لله آية أكبر مني»[1].

عن أبي هاشم الجعفري قال: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي (الجواد) صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَلَهُ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ فِي كِتَابِهِ، وَهَلْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ هِيَ هُوَ؟ إلى أن قال صلوات الله وسلامه عليه: بَلْ كَانَ الله تَعَالَى ذِكْرُهُ وَلَا خَلْقَ، ثُمَّ خَلَقَهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ يَتَضَرَّعُونَ بِهَا إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ، وَهِيَ ذِكْرُهُ، وَكَانَ الله سُبْحَانَهُ وَلَا ذِكْرَ، وَالْمَذْكُورُ بِالذِّكْرِ هُوَ الله الْقَدِيمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ، وَالْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ مَخْلُوقَاتٌ، وَالْمَعْنِيُّ بِهَا هُوَ الله»[2].

---

(١) تفسير القمي، ج٢ ص٤٠١.

(٢) الكافي، ج١ ص١١٦.

وعن صادق آل محمّد صلوات الله عليه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ اسْمًا بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مَنْعُوتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ... فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعًا لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ، فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا... فَالظَّاهِرُ هُوَ الله وَتَبَارَكَ وَسُبْحَانَ... لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ... ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْمًا فِعْلًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا فَهُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمُقْتَدِرُ الْقادِرُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْبارِئُ الْمُنْشِئُ الْبَدِيعُ الرَّفِيعُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْبَاعِثُ الْوَارِثُ، فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَتَّى تَتِمَّ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ اسْمًا وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾»[1].

إنّ الأسماءَ والصّفاتِ الإلهيةَ لَهِيَ متكثّرةٌ في مقام الفكرِ ولكنّها واحدة في مقامِ الحقيقة والواقع فلا يوجدُ في الظاهرِ شيءٌ اسمُه قدرة وحياة ولطف وقهر و... بل مظهرُ اسم القادر والحي والعالم و... والإنسانُ هو المخلوقُ الأوحدُ الذي يمكن أن تظهرَ فيه كلُّ الأسماءِ والصفات ويكون مربوبًا للاسم الأعظم.

إنّ تفاوتَ ظهورِ الأسماءِ الإلهية في الخلق يرجعُ إلى تفاوتِهم في رفعِ الحجبِ بينهم وبين الله تعالى، ولهذا نجدُ أنّ اسمَ الله الخالقَ قد يتجلّى في بشرٍ محدّدين دونَ غيرهم. وفقط عندما تنتفي كلُّ الحجُبِ بيننا وبين الله، تظهرُ كلُّ الأسماءِ الإلهيّة فينا، كمَثَلِ أشعّةِ الشمسِ والمرآةِ التي يظهرُ شعاعُ النّورِ فيها بحسبِ شكلِها وحالتها، فإذا كانت متّسخةً، لن يظهرَ فيها النّورُ

(١) الكافي، ج١ ص١١٢.

جليًّا بعكسِ ما إذا كانت صافية، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «المُؤمِنُ مِرآةُ المُؤمِنِ»[١]، بمعنى أنّ المؤمنَ العبدَ هو مرآةٌ لاسمِ الله المؤمن.

قال اللهُ تعالى في كتابِه المنزَلِ على لسانِ نبيّ الله عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢]، فكم اسمًا لله تجلّى وظهرَ في النبيّ عيسى عليه السلام بناءً على هذه الآية؟ لقد تجلّى وظهرَ فيه كلٌّ من اسمِ الله الخالقِ والشافي والبارئ والمحيي.

ويقول الله تعالى في كتابِه العزيز الحكيم: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٣]، في هذه الآية وردَت لفظةُ «الخالقين» بصيغةِ الجمع، ما يدلُّ على وجودِ أكثرِ من خالق، ولكنّ اللهَ أحسنُهُم، ولا شكَّ في أنّ كلَّ خلقٍ هو بمشيئةِ الله وإذنِه، لأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بظهورِ اسمِ الله الخالقِ في أحدِ الموجودات، كالنبيّ عيسى عليه السلام، إذ لا يوجد شيءٌ يمكن أنْ يُقاسَ بالله تعالى إطلاقًا، فالحقّ تعالى ليس في مورد المقايسة مع أحد. وقد ورد في الحديثِ عن الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام أنّه قال: «نحنُ واللهِ الأسماءُ الحسنى»[٤]، وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال: «نَحنُ الأسماءُ الحُسنَى الَّتي إذا سُئِلَ اللهُ عزّ وَجلّ بِها أجابَ»[٥]، فكلّ الأسماءِ الإلهيةِ بتمامِها وكمالِها قد ظهرَتْ في أهلِ البيت عليهم السلام، وذلك لفناءِ ذواتهم وإنيّتهم وكلِّ وجودِهم في الله عزّ وجلّ، فلم يبقَ لهم رسمٌ ولا تعيّنٌ ولا ظهورٌ إلا به ومنه وإليه، «وهي هو إثباتًا وإيجادًا وعيانًا ويقينًا لا هي هو كلًا ولا

(١) تحف العقول، ص١٧٣.
(٢) سورة آل عمران، آية ٤٩.
(٣) سورة المؤمنون، آية ١٤.
(٤) الكافي، ج١ ص١٤٣.
(٥) المحتضر، ص١٣٦.

جمعًا ولا إحصاءً ولا إحاطة»[١]، وقد ورد في تفسيرِ الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[٢] عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى علّمَ آدمَ عليه السلام أسماءَ حُجَجِ الله تعالى كلّها ثم عرضَهم وهم أرواح على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنكم أحقّاءُ بالخلافةِ في الأرضِ لتسبيحِكم وتقديسِكم من آدم، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾...»[٣]. هذه هي الحقيقةُ ولكنْ مَن يقبلُ بها؟ إنّ عزرائيل هو قابضُ الأرواح، وهو مظهرُ اسمِ الله المميت، والكلُّ يقبل بهذا، ولكن إذا قيل إنّ عليّ بن أبي طالب أو النبيّ محمّد صلى الله عليهما وآلهما هو قابضُ الأرواحِ يُواجَهُ هذا القول بالرّفض، رغم أنّهم عليهم السلام هم الذين قالوا: «نحنُ واللهِ الأسماءُ الحسنى»[٤]، فكلُّ الوجودِ يرجعُ إليهم، «وَإيابُ الخَلقِ إلَيكُم، وَحِسابُهُم عَلَيكُم» وهم يرجعون إلى الله تعالى.

لا يمكنُ للإنسانِ أن يعرفَ الذاتَ الرّبوبية، بل أقصى ما يمكنُ معرفتُه هو اسمُ الله، «فليس اللهَ عرفَ مَن عرفَ ذاتَه»[٥]، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام. وكما مرّ، فقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام قوله: «نحن والله الأسماء الحسنى»[٦]، كما ورد عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: «نحن صنايعُ ربِّنا والخلقُ بعدُ صنايعُنا»[٧]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا من الله والكلُّ

(١) الهداية الكبرى، الباب٤ ص٢٧٧.
(٢) سورة البقرة، آية ٣١.
(٣) تفسير كنز الدقائق، ج١ ص٢٢٥.
(٤) الكافي، ج١ ص١٤٣.
(٥) تحف العقول، ص٦٢.
(٦) الكافي، ج١ ص١٤٣.
(٧) كتاب الغيبة، ص١٧٣ ح٧.

مني»[١]. إنّ أصلَ خلقةِ محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم هو النور، حيث قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ ما خلقَ اللهُ نوري»[٢]، فمِن أين جاءَ هذا النور؟ الإمام الكاظم عليه السلام يقول: «إنّ الله تبارك وتعالى خلقَ نورَ محمّدٍ من نورٍ اخترعَه من نورِ عظمتِه وجلالِه وهو نورٌ لاهوتيّ... فلمّا أرادَ أن يخلقَ محمّدًا ﷺ منه قسمَ ذلك النورَ شطرين فخلقَ من الشطر الأول محمّدًا ومن الشطر الآخر عليّ بن أبي طالب، ولم يخلقْ من ذلك النورِ غيرهما، خلقَهما الله بيدِه ونفخَ فيهما بنفسِه لنفسِه، وصوّرَهما على صورتِهما وجعلَهما أمناءَ له، وشهداءَ على خلقه، وخلفاءَ على خليقته، وعينًا له عليهم، ولسانًا له إليهم، قد استودعَ فيهما علمَه، وعلّمَهما البيان، واستطلَعَهُما على غيبه، وجعلَ أحدَهما نفسَه والآخرَ روحَه ولا يقومُ أحدُهما بغيرِ صاحبِه، ظاهرُهما بشريّة، وباطنُهما لاهوتية...»[٣]. وعندما نزورُ مولاتَنا فاطمة سلام الله عليها نقول: «السلامُ عليكِ يا ممتحنةُ امتحنَكِ الذي خلقَكِ قبل أن يخلقَك»[٤]، فقد خلقَها اللهُ نورًا وروحًا قبل أن يخلقَها في هذا العالم كما هو حالُ كلِّ الأئمةِ عليهم السلام فوجودُهم سلام الله عليهم يختلفُ عن وجودِ باقي البشرِ والمخلوقاتِ أجمع، حتى ولو كان ظهورُهم مماثلًا لهم، كما أنّهم مختلفون في موتِهم عليهم السلام، إذ يقول رسول الله ﷺ: «إنّه يموتُ مَن ماتَ منّا وليس بميّت»[٥]، فالموتُ عندهم حياة، لأنّهم باقون ببقاءِ الله.

---

(١) الأربعين في حبّ أمير المؤمنين، ج١ ص١٤٥.
(٢) بحار الأنوار، ج٥٤ ص١٧٠ ح١١٧.
(٣) غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام، ج١ ص٣٧.
(٤) زيارة أمير المؤمنين والسيدة فاطمة عليهما السلام يوم الأحد، مفاتيح الجنان.
(٥) نهج البلاغة، ج١ ص١٥٤، الخطبة ٨٧.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قد أعطانا ربّنا عَزّ وجلّ الإسمَ الأعظمَ الذي لو شئنا خَرَقْنا السماوات والأرض والجنة والنار، ونعُرجُ به إلى السماءِ ونهبطُ به إلى الأرض، ونُغرِّبُ ونُشرِّقُ وننتهي به إلى العرشِ فنجلسُ عليه بين يدي الله عَزّ وجلّ ويُطيعُنا كلُّ شيء حتى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والبحار والجنة والنار، أعطانا اللهُ ذلك كلَّه بالإسم الأعظم الذي عَلّمَنا وخَصَّنا به، ومع هذا كلّه نأكلُ ونشربُ ونمشي في الأسواق، ونَعملُ هذه الأشياء بأمرِ ربّنا، ونحن عبادُ الله المكرَمون الذين ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾»[1].

وعن المفضّل أنّه قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: كيف كنتم حيثُ كنتم في الأظلة؟ فقال: يا مفضل، كنا عند ربّنا، ليس عنده أحدٌ غيرَنا في ظلّةٍ خضراء، نسبّحُه ونقدّسُه ونهلّله ونمجّده، وما من ملكٍ مقرّبٍ ولا ذي روحٍ غيرنا حتى بدا له في خلقِ الأشياءِ فخلقَ ما شاءَ كيف شاءَ من الملائكةِ وغيرهم ثم أنهى علمَ ذلك إلينا»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «... إنّ قلوبَنا غيرُ قلوبِ الناس، إنّا مطيعون مُصفّون مُصطفون، نرى ما لا يرى الناس، ونسمعُ ما لا يسمعُ الناس...»[3].

كما ورد في إحدى الروايات أنّ قومًا أتوا إلى الحسين عليه السلام وقالوا: «حدِّثنا بفضائلكم، قال: لا تطيقون، وانحازوا عنّي لأشير إلى بعضكم، فإنْ أطاقَ سأحدّثكم، فتباعدوا عنه، فكان يتكلّم مع أحدهم حتى دُهِشَ ووَلِه وجعل يَهيمُ ولا يجيب أحدًا، وانصرفوا عنه»[4].

---

(١) القطرة، ج١ ص٧٥ ح١٩.
(٢) الكافي، ج١ ص٤٤١.
(٣) كامل الزيارات، ص٣٤٢.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٤ ص١٨٣.

هل نعرف نحن مَن هو الله؟ أو هل يمكن لنا معرفته؟ قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ، ما عرفَ اللهَ إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفَكَ إلا الله وأنا»[١]. إنّنا جاهلون بأسماءِ الله وصفاته، فنحن نقبلُ بأنّ إبليس يجري مجرى الدم في العروق ولكن إذا قلنا إنّ رسول الله وأمير المؤمنين وأهل البيت هم هكذا لا نقبل!

إنّ الأسماءَ الإلهية كما ذكرْنا تظهر في كلِّ الموجودات ولكن بِنِسَب. وللأسماء الإلهية حاكمٌ عليها ليضبطَ عملَ كلّ واحدٍ منها، فمثلًا لو لم يكن هناك اسمٌ له الحاكميّة على باقي الأسماء، لكَانَ اسمُ الله الخالق قد عمِل بلا ضابطة ما يؤدي إلى حصول طفرةٍ وخللٍ في الخلق، وكذلك الحالُ مع اسمِ الله المميت والمحيي والرازق... والحاكمُ على كلّ الأسماء هو اسمُ الله الأعظم الذي يضعُ ضابطةً لعملِ كلّ اسم. فاسمُ الله الأعظم، الذي هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يحدّد لكلّ اسمٍ أوّلَه وآخرَه وظاهرَه وباطنه. وكذلك الأمر في عالمِ الأعيانِ (الظاهر)، فالإمام المعصوم هو الإمامُ المبين الذي أحصى الله تعالى فيه كلَّ شيء وجعلَه المرجعَ لكلِّ شيء وهو قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، وكذلك هو الكتابُ المبين[٣].

يُحكى أنّ نبيَّ الله موسى بن عمران عليه السلام، خاطبَ ربَّه في أحدِ الأيام

---

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص١٢٥.

(٢) سورة يس، آية ١٢.

(٣) من كلام للإمام الصادق عليه السلام: «وقال لصاحبكم أميرالمومنين عليه السلام: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾وعلم هذا الكتاب عنده»، (الإحتجاج، ص٢٠٤). وسُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير آية ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: «قلت: في كتاب مبين؟ قال: في إمام مبين»، تفسير نور الثقلين.

فقال: ربّي أَرِني عدلَك ـ أي ظهورَ اسمِ الله العادِل. فقال: إذهبْ إلى شاطئ النهر، فجلسَ هناك يستظلُّ، وجعلَ ينتظرُ ما يكون، فجاء رجلٌ ونزعَ ثيابَه واغتسل، ثم لبسَ ثيابَه وذهبَ، ولكنّه نسِيَ محفظتَه المليئةَ بالمال، فمرّ رجلٌ ثانٍ وأخذَ المحفظة، ثم جاءَ بعد ذلك رجلٌ ثالثٌ ليغتسل، وبعد فترة تذكّرَ الرجلُ الأوّلُ محفظتَه، فرجعَ لأخْذِها ولكنّه لم يجدْها، ووجدَ الثالثَ يسبحُ في ذلك المكان، فلم يشكَّ في أنّه أوّلُ مَن جاء إلى المكان، فسألَه عن المال، فقال: لا عِلمَ لي به. فقال: لا أرى غيرَك هنا، وأنا منذ قليلٍ غادرْتُ هذا المكان، وظلَّ ملازمًا له حتّى قتلَه، فتعجّبَ موسى عليه السلام من ذلك فأوحى الله إليه: هذا عدلي؛ إنّ صاحبَ المحفظةِ كان قد سرقَ من والدِ الرّجُلِ الثاني مقِدارَ ما في المحفظة، وإنّ الثالثَ المقتولَ كان قد قتلَ والدَ القاتل، وكلٌّ منهم يجهلُ ذلك، وبِعَدْلي استرجعَ كلٌّ منهم حقَّه... فلولا أنّ الله أوضحَ لنا ما جرى لَمَا فهمْنا شيئًا، ولهذا كان لا بدَّ من وجودِ اسمِ الله الهادي.

قد نستغربُ أمورًا كثيرة تجري من حولِنا، هذا لأنّنا لا نلتفتُ إلى عملِ أسماءِ الله وظهورِها وجريانِها فينا وفي كلّ هذا العالم. وحتى نُحَصّلَ المعرفةَ بالأسماءِ الإلهية وعملِها، علينا التوجّهُ إلى اسمِ الله الأعظم الذي يتجلّى بشكلٍ تامٍ في النبيّ والإمام المعصوم، والذي هو مُستبطَنٌ بهم ويظهرون به متى ما شاؤوا.

إنّ بعضَ السّالكين يقومون بأذكارٍ وأورادٍ معيّنةٍ لظهورِ اسمٍ من أسماءِ الله تعالى فيهم كاسمِ الله الحكيم أو الرزاق أو الودود... فيتوجّهون إلى اسمٍ واحدٍ من الأسماءِ ولكنّهم يغفلونَ عن الإسمِ الأعظمِ الحاكم على كلّ الأسماء. ولكن من جهةٍ أخرى علينا الإلتفاتُ إلى أنّ المعصومَ قد يظهر باسمٍ أو أكثر وقد يظهرُ باسمِ الله الأعظمِ وقد لا يظهر به، فلا يزال بعضُ

النّاس حتى اليوم يتساءلون عن سببِ سكوتِ أمير المؤمنين عليه السلام وقتَ حادثةِ الدّار وهو اسمُ الله الأعظم! وعن سببِ لجوءِ الإمام الحسن عليه السلام إلى الصّلحِ مع معاوية بينما ثار الإمام الحسين عليه السلام على يزيد لعنه الله. إنّ ما ينبغي معرفتُه أنّ الإمام عليه السلام هو الاسمُ الأعظم بكلِّ الأحوال، سواء ظهرَ بهذا الإسم أم لم يظهر ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[1]. وفي هذا السياق، يقول السيد روح الله الخميني رضوان الله عليه: «وصلِّ اللّهم على مبدأِ الظهورِ وغايته (محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم هم مبدأُ ظهورِ الأسماءِ والصفاتِ وغايته) وصورةِ أصلِ النّور ومادّتِه الهَيولى الأولى والبرزخِ الكُبرى، الذي دَنا فرفضَ التّعيُّنات فتَدَلّى فكان قابَ قوسَي الوجود...» إلى أن يقول: «لا سيّما خاتم الولاية المحمّديّة (صاحب الزمان)، ومَقْبض فيوضاتِ الأحمديّة، الذي يظهرُ بالرّبوبيّة بعدما ظهرَ آباؤه عليهم السلام بالعبوديّة، فإنَّ العبوديّةَ جوهرةٌ كُنْهُها الرّبوبيّة»[2]، ولكن مع كلِّ هذا ينبغي أن لا نغفلَ أبدًا عن أنّ هناك حاكمًا على الأئمة عليهم السلام وهي الذات الربوبية جلّت وعلَت، حيث قالوا: «إجعلوا لنا ربًّا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم»[3]، فلولاه جلّ وعلا لما كانوا صلوات الله عليهم أجمعين.

تقول الروايات إنّ صاحبَ الزمان عليه السلام عندما يظهر، يرتقي المنبرَ ويتكلّمُ بكلام يجعلُ حتّى أصحابَه الثلاثمئة والثلاثة عشر يجفلون عنه إجفالَ الغنم، فيمسحُ بيده على رؤوسِهم حتى تكتملَ عقولُهم، وبلمسةٍ واحدةٍ من

(١) بحار الأنوار، ج٤٤ ص٢.

(٢) من إجازة السيّد روح الله الخميني الفلسفيّة للميرزا جواد الهمدانيّ عام ١٣٥٤ هجريّ قمريّ، صحيفة نور، ج١ ص٤ ـ ٥ ـ ٦، والنّص في الأصل بالعربيّة.

(٣) مختصر بصائر الدرجات، ص٥٩.

يدِه الشريفة، تبلغُ عقولُهم أعلى المراتب، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وهم عليهم السلام القوّامون بأمرِه، بنصّ الزيارة الجامعة الكبيرة. فالإمامُ صاحبُ الزمان عليه السلام وحدُه مِن بين كلِّ الأئمّة يظهرُ بالاسم الأعظم. لقد تكلّمَ أمير المؤمنين عليه السلام عن الاسم الأعظم، حيث قال: «... أنا وليُّ الأولياءِ أنا الظاهرُ مع الأنبياءِ أنا وليُّ الأنبياء... أنا صاحبُ النهج أنا عصمةُ المحج أنا موصوفُ النون أنا نورُ المسجون أنا مكر الفرقان...»[2]، ولكنّه لم يظهرْ به دائمًا لأنهم عليهم السلام ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أمّا صاحبُ الزمان عليه السلام فهو الوحيدُ الذي سيظهر بالاسمِ الأعظم الجامع للجلال والجمال، فهل سنقبلُ به حاكمًا علينا؟

ورد في الروايات أنّ الإمامَ عليه السلام عندما يظهرُ، يُخْضِعُ مَن حولَه لعدّةِ امتحاناتٍ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[3]. أحدُ هذه الإمتحانات أنّه ينبشُ قبرَي الأوّلَ والثاني فتنبعثُ رائحةٌ كالمسكِ ثم يُخرجُهما غضّيْن طريّين ويضعهُما على شجرةٍ يابسة فتخضرُّ وتُورِقُ أغصانُها ثم يطلبُ من الناس أن يتبرّؤوا منهم، فيتبرأُ البعضُ ويرفضُ البعضُ الآخر ذلك ويقولون: «نحن لم نتبرأ منهما، ولسنا نعلمُ أنّ لهما عندَ الله وعندَك هذه المنزلة، وهذا الذي بدا لنا من فضلِهما، أنتبرّأُ الساعةَ منهما وقد رأينا منهما ما رأينا في هذا الوقت؟... بل والله نتبرأُ منكَ وممّن آمنَ بك...»، ثم بعد ذلك يُحييهما فيعترفان بكلّ جرائمهما، «ثم يصلبُهما على الشجرةِ ويأمرُ نارًا تخرجُ من الأرض فتحرقُهما والشجرةَ ثم يأمرُ ريحًا فتنسفُهما في اليم نسفًا»[4]. هل سنسقطُ في هذا الإمتحان وتتزلزلُ عقيدتُنا؟ هل حقيقةَ أنّ

---

(١) سورة يس، آية ٨٢.

(٢) إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، ج٢ ص١٨٩.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٢.

(٤) مختصر بصائر الدرجات ص١٨٩؛ بحار الأنوار ج٥٣ ص١٢.

هذين وأتباعَهما قد قتلوا فاطمة الزهراء عليها السلام ستتبدّلُ إذا أخرجَهما الإمامُ غضّين طريّين من قبريهما؟ هل سيُخدَعُ المؤمنُ بالظاهرِ الذي رآه وهو يدري أنهما قد قتلا فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهم أجمعين؟

كما أنّه من الامتحاناتِ التي سيُجريها الإمامُ صاحبُ الزمان عليه السلام على الموالين، أنّه وبعد هزيمةِ جيشِ السّفياني، يلجأُ السّفياني إلى الإمامِ ويتوسّلُ إليه أن يمتنعَ عن قتلِه ويتركَه يرحل، فيفعلُ الإمام ذلك. عندها، يضطربُ المؤمنون من هذا الفعل، في حين تقول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. ولهذا فإنّ أصحابَ سيّدِ الشهداء هم أفضلُ الأصحابِ مطلقًا لأنّهم الوحيدون الّذين سلّموا لإمامِهم وما اعترضوا عليه بشيءٍ لا ظاهرًا ولا باطنًا، رغم أنّه أخبرَهم بأنّ الكلَّ سيُقتل وأتاحَ لهم فرصةَ الرحيلِ وأطفأَ السّراجَ وأشاحَ بناظرِه عنهم كي لا يخجلوا ولكنّ أصحابَه الخلّصَ بقوا معه ولم يرحلوا.

على الموالي العاشق أن يكون مع إمامِه في كلِّ حال، «وَالْمَعْرُوفُ ما أَمَرْتُمْ بِهِ، وَالْمُنْكَرُ ما نَهَيْتُمْ عَنْهُ»[2]، لا أن يكون مُنقادًا في علاقتِه مع الإمام وراءَ مصلحتِه الخاصّة. يُحكى أنّ أحدَهم رأى في منامِه أنّه أُدْخِلَ إلى الجنان، فصارَ يتنقّلُ من جنّةٍ إلى جنّةٍ ولكنّه لم يجدْ مُرادَه فسأل أحدَ الملائكة: أين هو مولاي عليّ بن أبي طالب؟ أجابَه قائلًا: إنّه في جهنم. فقال له: إذًا، خُذني إلى جهنم، ماذا أفعل هنا؟ فبشّرَه الملكُ بأنّه فازَ في الإمتحان. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو ضَربتُ خيشومَ المؤمنِ بسيفي هذا على أن يُبغضَني ما أبغَضني، ولو صَببْتُ الدّنيا بجماتها على المنافقِ على

(١) سورة النساء، آية ٦٥.

(٢) زيارة آل يس.

أن يُحبَّني ما أحبّني»[١]. ويقول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[٢].

عندما سُئِلَ رسول الله ﷺ: أأنتَ أفضلُ أم الملائكة؟ قال: «... إنّ الملائكةَ لخدّامُنا، وخدّامُ محبّينا...»[٣]، لم يكن الناسُ على علمٍ بأنّ رسول الله ﷺ أفضلُ من الملائكة وكذلك لم يكن كثيرٌ منهم يعرفون مقاماتِ الأئمةِ عليهم السلام ولهذا قالت السيدة فاطمة عليها السلام حين استشهدَ الإمام الحسين عليه السلام: «بني حسين، قتلوكَ ومن شُرْبِ الماء منعوك وما عرفوا مَن أمّك ومَن أبوك»، وكذلك قال رسول الله ﷺ: «ولدي قتلوك، أترَاهم ما عرفوك، ومن شرب الماء منعوك، يا ولدي، أنا جدّك محمّد المصطفى وهذا أبوك...». اللافتُ في الكلامِ هو الإشارةُ إلى عدمِ المعرفةِ بالإمام الحسين وباقي أهلِ البيت عليهم السلام، فأكثرُ النّاسِ يعرفون الحسين عليه السلام معرفةً سطحيةً ظاهريّة لا حقيقيةً رغمَ أنّه وردَ في الحديث: «مَن ماتَ ولم يعرف إمامَ زمانِه ماتَ ميتةً جاهلية»[٤]، أي ماتَ كافرًا. وتقول الرواية: «مَن أتى قبرَ الحسين عليه السلام عارفًا بحقّه غفرَ له ما تقدَّم مِن ذنبِه وما تأخّر»[٥]، كثيرون يزورونَ قبرَ الحسين بن عليّ ولكن مَن يعرفُ حقَّه؟

وقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «مَن زارَ قبرَ أبي عبدالله عليه السلام بشطّ الفرات، كان كمَن زارَ اللهَ فوقَ عرشِه»[٦]، فالأنبياءُ والشهداءُ والملائكة يأخذون الإذنَ ليلةَ الجمعة لزيارةِ قبرِ الحسين عليه السلام، وفي بعضِ الروايات فإنّ الله عزّ

(١) بحار الأنوار، ج٣٤ ص٣٤٤.
(٢) سورة الأحزاب، آية ٢٣.
(٣) إكمال الدين، ج١ ص٢٥٤.
(٤) ينابيع المودّة، ج٣ ص٣٧٢.
(٥) كامل الزيارات، ص١٥٠.
(٦) التهذيب، ج٦ ص٤٥ ح٩٨.

وجل يزورُ الحسينَ ليلةَ الجمعة، إذ وردَ عن صَفوانَ الجمّال قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام لمّا أتى الحِيرةَ: هل لك في قبرِ الحسين؟ قلت: وتَزورُه جُعِلتُ فِداك؟ قال: وكيف لا أزورُه واللهُ يَزورُه في كلِّ ليلة جُمُعة يهبط مع الملائكة إليه والأنبياء والأوصياء ومحمّد أفضل الأنبياء، ونحن أفضلُ الأوصياء، فقال صَفوانُ: جُعِلتُ فِداك فنَزورُه في كلِّ جمعةٍ حتّى نُدركَ زيارة الرّبِّ؟ قال: نَعَم يا صَفوان، إلزمْ ذلك تُكْتَبْ لك زيارةُ قبر الحسين عليه السلام، وذلك تفضيل وذلك تفضيل»[1]، وهنا الكلامُ عن زيارةِ الله بمعنى التجلّي، تجلّي اسمِ الله، وليسَ عن الذّاتِ الربوبية لأنّها أجلُّ وأعظمُ من ذلك.

وفي الختام، وبعد أن عرَفنا ما هي الأسماء الإلهية وبالأخصّ الإسم الأعظم، نورد بعض العبارات التي وردت في بعضِ الأدعية المأثورة: «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْأَسْمَاءِ الْعِظَامِ أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي اشْتَقَقْتَهُ مِنْ قِدَمِكَ وَأَزَلِكَ وَنُورِكَ وَبِالاسْمِ الْأَعْظَمِ الَّذِي اشْتَقَقْتَهُ مِنْ كِبْرِيَائِكَ وَجَبَرُوتِكَ وَعَظَمَتِكَ وَعِزِّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْمُتَعَالِ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ وَاسْمِكَ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ وَبِاسْمِكَ الْعَزِيزِ الْأَعْلَى، بِاسْمِكَ الْكَبِيرِ الْأَكْبَرِ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ الَّذِي عَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ يَا اللَّهُ أَنْتَ الْمُتَسَمِّي بِالْإِلَهِيَّةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ «اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ» الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْمَخْزُونِ الْمَكْنُونِ النُّورِ الْمُنِيرِ الْحَقِّ الْمُبِينِ، الَّذِي هُوَ نُورٌ مِنْ نُورٍ، وَنُورٌ عَلَى نُورٍ، وَنُورٌ فَوْقَ كُلِّ نُورٍ، وَنُورٌ مَعَ كُلِّ نُورٍ، وَلَهُ كُلُّ نُورٍ، مِنْكَ يَا رَبَّ النُّورِ وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ النُّورُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ طَاهِرٍ مُطَهَّرٍ طَيِّبٍ مُبَارَكٍ مُقَدَّسٍ أَنْزَلْتَهُ فِي كُتُبِكَ وَأَجْرَيْتَهُ فِي الذِّكْرِ عِنْدَكَ وَتَسَمَّيْتَ بِهِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ. يَا أَحَدُ، يَا صَمَدُ، يَا عَزِيزُ، يَا قَادِرُ، يَا

(١) كامل الزيارات، ص١٢١ ـ ١٢٢.

قَاهِرُ، يَا ذَا الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ، يَا عَلِيُّ، يَا قَدِيرُ، يَا عَلِيمُ، يَا حَكِيمُ، يَا غَفُورُ، يَا رَحِيمُ، يَا رَحْمَانَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَا ذَا الْقُدْسِ، يَا خَالِقُ. وَأَسْأَلُكَ بِجَمِيعِ أَسْمَائِكَ الْحُسْنَى أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»[1]. وفي دعاءٍ آخر نقول: «بِاسْمِكَ الَّذِي تَسَمَّيْتَ بِهِ وَجَعَلْتَهُ فِي كُلِّ قُوَّتِكَ، وَمَعَ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَفِي كُلِّ سُلْطَانِكَ، وَصَيَّرْتَهُ فِي قَبْضَتِكَ وَنَوَّرْتَهُ بِكَلِمَاتِكَ، وَأَلْبَسْتَهُ وَقَارَهَا مِنْكَ»[2]. كما ورد في أدعيةِ الليلة السابعة والعشرين من رجب: «وَبِاسْمِكَ الأَعْظَمِ الأَعْظَمِ الأَعْظَمِ الأَجلّ الأَكْرَمِ، الَّذي خَلَقْتَهُ فَاسْتَقَرَّ في ظِلِّكَ فَلا يَخْرُجُ مِنْكَ اِلى غَيْرِكَ...». وفي دعاء علقمة نقول: «وَبِاسْمِكَ اَلَّذِي جَعَلْتَهُ عِنْدَهُمْ وَبِهِ خَصَصْتَهُمْ دُونَ اَلْعَالَمِينَ»، كما ورد في دعاء السّمات: «اللّهُمَّ إنّي أسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظيمِ الْأَعْظَمِ الأعزّ الأجلّ الأكرم الَّذى إذا دُعيتَ بِهِ عَلى مَغالِقِ أبْوابِ السَّماءِ لِلْفَتْحِ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ»، «وبِاسْمِكَ الْعَظيمِ الْأَعْظَمِ الأعزّ الأجلّ الأكرم وَبِمَجْدِكَ الَّذى تَجَلَّيْتَ بِهِ لِمُوسى كَليمِكَ عليه السلام فى طُورِ سَيْناءَ»، «اَللّهُمَّ بِحَقِّ هذَا الدُّعاءِ، وَبِحَقِّ هذِهِ الْأَسْماءِ الَّتي لا يَعْلَمُ تَفْسيرَها وَلا يَعْلَمُ باطِنَها غَيْرُكَ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد». كما ورد في دعاء البهاء: «اللّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِما تُجِيبُنِي حِينَ أَسْأَلُكَ».

اللهم إني أسألك بحق مَن خاطَبت أخاها الحسين عليه السلام قائلةً: «أخي، كلّمني بحقّ جدّنا رسول الله، أخي كلّمني بحق أبينا أمير المؤمنين، أخي كلّمني بحق أمّنا فاطمة....»، أن تجعلنا من العارفين بهم وبحقهم عليهم السلام.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) إقبال الأعمال، ج٣ ص٢٠٢.

(٢) إقبال الأعمال، ج٢ ص١٩٩.

الدين المستقرّ والمستودع

قال الله تعالى في مُحكمِ كتابِه الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[1].

سأل الإمام الباقر عليه السلام أحدَ أصحابِه ويُدعى أبا بصير: «ما يقولُ أهلُ بلدِك في تفسيرِ هذه الآية؟ فقال: يقولون مستقرٌّ في الرّحم ومُستودَعٌ في الصّلب، فقال عليه السلام: كذبوا، المستقرُّ هو الإيمانُ في القلبِ فلا يُنزع أبدًا، والمستودَعُ هو الذي يستودعُ الإيمانَ زمانًا ثم يُسلبُه، وقد كان الزبير منهم»[2]، أي أنّ الإيمانَ إمّا أن يكونَ مستقرًا في القلبِ أو يكون مستودعًا، بمعنى الوديعة، عند الإنسان، بحيث يمكن أن يُسلبَه في أيّ وقت.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «مِن الإيمانِ ما يكون ثابتًا مُستقرًا في القلوب، ومنه ما يكونُ عواري بين القلوبِ والصّدور إلى أجلٍ معلوم»[3]، فقد يُستودَعُ الإيمانُ عند أحدِ محبّي أهلِ البيت عليهم السلام والمُلتزمين بالشريعة ولكن بعد فترةٍ يُسْلَب منه، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، آية ٩٨.
(٢) تفسير الكافي، ج٢ ص١٤٢.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.
(٤) سورة الأعراف، آية ٣٤.

وعنه عليه السلام: «إنّ الله خلقَ الأنبياءَ على النبوةِ فلا يكونون إلّا أنبياء، وخلقَ المؤمنين على الإيمانِ فلا يكونون إلّا مؤمنين، واستودعَ قومًا إيمانًا فإنْ شاء أتمَّهُ وإنْ شاءَ سلَبَهم إياه...»[١]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[٢]، وأهلُ البيت عليهم السلام هم كلمةُ الله تعالى[٣]، كما يقول عزّوجلّ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[٤]، فعلى الموالي أن يتدبّرَ في كلمةِ «فأتمّهنّ» في الآية الأولى و«أتممْتُ» في الآية الثانية.

ولسائلٍ أنْ يسأل: ما هي أسبابُ سَلْبِ الإيمان؟ الأسبابُ متعدّدةٌ أبرزها: أولًا: الكذبُ على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. سُئِل الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «جُعِلتُ فداك ما هذا الذي يُسمَعُ من أبيك إنّه أمَرَنا بولاية أبي الخطاب[٥] ثم أمَرَنا بالبراءة منه، فقال الإمام عليه السلام: ... إنّ أبا الخطاب كان ممّن أعارَه اللهُ الإيمانَ فلمّا كذبَ على أبي سلَبَه اللهُ الإيمان»[٦]، وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لأحدِ أصحابه: «لَعَنَ الله المغيرة بن سعيد[٧] ولَعَنَ يهودية كان يختلفُ إليها يتعلّم منها السحرَ والشعوذةَ والمخاريق، وإنّ المغيرةَ كذبَ على أبي فسلَبَه اللهُ الإيمان»[٨]. ومعلومٌ أنّ من المفطّراتِ الكذبَ على الله ورسولِه وأهلِ البيت عليهم السلام، وهذا الإفطارُ له وجهتان ظاهريّة وباطنيّة، فباطنًا يكون الإفطار

---

(١) رجال الكشي، ص٢٥١.

(٢) سورة البقرة، آية ١٢٤.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله...»، بحار الأنوار، ج٢٥ ص١٦٩.

(٤) سورة المائدة، آية ٣.

(٥) أبو الخطاب كان من رواة الأحاديث التي تظهر المقامات العالية لأهل البيت عليهم السلام.

(٦) رجال الكشي، ص٢٥١.

(٧) المغيرة كان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

(٨) رجال الكشي، ص٢٢٥.

بسلبِ الإيمان من القلب. والكذبُ هنا له أشكالٌ عدّة، كالتكلّمِ بكلامٍ لم يصدرْ عن الإمام أو نقلِ كلامٍ غيرِ صحيحٍ متعلّقٍ بالولاية، أو إحداثِ تغييرٍ على الرواياتِ أو اقتطاعِ أجزاءٍ منها، أو تحريفِ كلماتٍ عن مواضعِها أو حذفِ مقاطع من الزياراتِ المنقولةِ عن أهل البيت عليهم السلام كزيارةِ عاشوراء... ولعلّ ما قالَتْه السيدة فاطمة سلام الله عليها لأمير المؤمنين عليه السلام قبل استشهادِها: «يا عليّ، ما عهدْتَني كاذبة»، يبيّنُ أهميةَ الصّدقِ مع الإمام وعدمِ الكذب عليه، وقد ورد أنّ القرآن الكريم نزلَ على إيّاكِ أَعْني واسمعي يا جارة، وهكذا هو كلامُ أهلِ البيت عليهم السلام، لذا علينا أن نأخذَ بعينِ الإعتبار كلَّ روايةٍ نقرأُها، وأن نتعلّمَ منها لكي نَثبُتَ، فلا نكونُ ممّن استُودِعَ الإيمانُ في قلوبهم.

ثانيًا: التعلّقُ بشخصٍ ما، سواء كان من صحابةِ النبيّ أو من العلماءِ أو من الشخصيّاتِ ذاتِ الشّأنِ السياسيّ أو من الأقاربِ والأحبّاء، إذ إنّ هؤلاء كلّهم يمثّلون الفرعَ لا الأصلَ في حين أنّ المطلوبَ هو التعلّقُ بالأصلِ الأساسي. نعم، أَمَرنا الله تعالى بالرّجوع إلى الآثار ولكن بشرطِ عدمِ الاعتمادِ عليها، «إلهي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوار، وَهِدايَةِ الاسْتِبصارِ، حَتّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمادِ عَلَيْها»[1]، ويصحُّ هذا الكلامُ إذا كانَ الفرعُ المتعلَّقُ به مرآةً للأصل، فيكون حينها حجابًا نورانيًا وإلا فهو حجابٌ ظلماني، وفي تفسيرِ آيةِ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[2]، يُروى عن الحجّةِ القائم عجّل الله فرجه الشّريف أنّه قال: «إنّ موسى عليه السلام ناجى ربَّه بالوادِ المقدسِ فقال: يا ربّ

(١) دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.
(٢) سورة طه، آية ١٢.

إنّي قد أخْلَصْتُ لكَ المحبّةَ مني وغسلْتُ قلبي عن سواكَ، وكان شديدَ الحبِّ لأهلِه، فقال الله تعالى: إخلعْ نعلَيْكَ أي إنزعْ حبَّ أهلِكَ من قلبِكَ إنْ كانت محبّتُك لي خالصةً وقلبُك من الميلِ إلى مَن سواي مغسولًا»[١].

لذا، وردَ عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «ما زالَ الزّبيرُ منّا أهلَ البيت حتى نشأ عبدالله فأفسدَه»[٢]، فقد كان الزبيرُ من صحابةِ النبي صلى الله عليه وآله، وبعد ذلك سُلِبَ منه الإيمانُ بسببِ حبِّه لولدِه. ومن تلك الشخصيّاتِ أيضًا ابنُ عباس الذي كان من كبارِ صحابةِ النبيّ صلى الله عليه وآله وابنَ عمِّه، وكان لِيُعَدَّ كأحدِ المراجعِ في هذا الزّمان، إلّا أنّه اعتُبِرَ من المرتَدّين بعدَ استشهادِ رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال أبو جعفر عليه السلام: «إرتدَّ الناسُ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا ثلاثةُ نفر»[٣]، ولم يُعَدَّ ابنُ عبّاس ضمنَ الثلاثة. وكذلك محمد بن الحنفية الذي أشارَ على الإمام الحسين عليه السلام بأنْ لا يرحلَ إلى كربلاء، ثمّ بعدَ استشهادِه ذهبَ إلى يزيد لعنه الله وجلس معه وقال مخاطبًا إياه: «إنّي قد سمعْتُ كلامَكَ فوصَلَ الله رَحِمَك، ورَحِمَ حسينًا وباركَ له فيما صارَ إليه من ثوابِ ربِّه، والخلدِ الدائمِ الطويل، في جوارِ الملكِ الجليل، وقد علمْنا أنّ ما نقصَنا فقد نقصَك، وما عراكَ فقد عرانا من فرحٍ وترح، وكذا أظنُّ أنْ لو شهِدْتَ ذلكَ بنفسِكَ لَاخترْتَ أفضلَ الرأيِ والعمل»[٤]. ومن هنا، فإنّ أهلَ الحقِّ لا يلتفتون إلى الأشخاصِ بل إلى الطريقِ الذي يسلكونه ويوقنون به، فعن الإمامِ الرّضا عليه السلام: «إنّ أهلَ الحقِّ إذا دخلَ فيهم داخلٌ سُرّوا به وإذا خرجَ منهم خارجٌ لم يجزعوا عليه وذلك أنّهم على يقينٍ من

(١) تفسير الصافي، ص٣٠٢.
(٢) تنقيح المقال، ج٢ ص١٨٤.
(٣) الاختصاص، ج٦ ص١٠.
(٤) بحار الأنوار، ج٤٥ ص٣٢٦.

أمرِهم، وإنّ أهلَ الباطلِ إذا دخلَ فيهم داخلٌ سُرّوا به وإذا خرجَ عنهم خارجٌ جزعوا عليه»[١]، وما الجزعُ إلا بسببِ الشكِّ وهذا دليلٌ على اتّباعِهم لأشخاصٍ لا لِنَهجٍ.

ثالثًا: التكلّمُ بالحقائقِ المتعلّقةِ بأهلِ البيت عليهم السلام أمامَ مَن لا يستأهِلُ معرفتَها، إذ قال أبو عبدالله عليه السلام: «مَن أذاعَ علينا حديثَنا سَلَبَه اللهُ الإيمان»[٢]، فعندما نُذيعُ أمرَ ولايتِهم ومناقبِهم وفضائلِهم أمامَ ضعفاءِ الشيعةِ الذين هم ليسوا أهلًا لسماعِ مثلِ هذه الروايات، يُسلبُ الإيمانُ من قلوبِنا، وإذا أردْنا أن نحدّدَ أكثر، فإنّه يُسلَبُ منّا حبُّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إذ قال رسول الله: «يا عليّ، حبُّك تقوى وإيمان»[٣]، وإذا سُلِبَ حبُّ عليٍّ عليه السلام من داخلِنا، يموتُ هذا القلب، فلا يعودُ قادرًا حتى على الإحساسِ بالحسين بن عليّ عليه السلام وعزائِه.

وبعد أن عَرَفْنا بعضَ أسبابِ سَلْبِ الإيمان، ما السّبيلُ لتفاديها والدخولُ في عِدادِ ذوي الإيمانِ المستقرِّ لا المستودَع؟

قال أميرُ المؤمنين عليه السلام لكميل: «يا كميل إنّه مستقرٌّ ومستودعٌ واحذرْ أن تكونَ من المستودعين. يا كميل، إنّما تستحقُّ أن تكونَ مستقرًا إذا لَزِمْتَ الجادّةَ الواضحةَ التي لا تُخرِجُكَ إلى عوجٍ ولا تُزيلُكَ عن منهجِ ما حملْناك عليه وهديْناك إليه»[٤]، فـ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٥]، وهذا معناه أنّ عليك أن لا تنحرف عن ولايةِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) تفسير العياشي، ج١ ص٣٧٢.
(٢) الكافي، ج٢ ص٣٧٠.
(٣) بحار الأنوار، ج٣٩ ص٢٦٣.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٤ ص ٢٧٢.
(٥) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام: «بِمَ يُعرَفُ الناجي؟ فقال عليه السلام: مَن كان فعلُه لقولِه موافقًا فهو ناجٍ، ومَن لم يكن فعلُه لقولِه موافقًا فإنّما ذلك مُستَودَعٌ ووديعة»[١]، يتحدّث كُثرٌ من الناس عن أهل البيت عليهم السلام وعن مناقبِهم وفضائلِهم ولكنّهم في الوقتِ نفسِه مأخوذون بحبِّ الدنيا وحبِّ أعداءِ آلِ محمّد عليهم السلام، وهنا يتّضحُ قولُ الإمام عليه السلام: «ومَن لم يكن فعلُه لقولِه موافقًا فإنّما ذلك مستودع ووديعة»، فالمعيارُ هو توافقُ الفعلِ مع القول. وفي هذا السياق، نوردُ هذه الرواية: عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قالَ لأصحابِه: «مَن منكم تطيبُ نفسُه أن يأخذَ جمرةً في كفِّه فيُمْسِكُها حتى تُطفَأ؟»، قد يعترضُ البعضُ على هذه الرواية على أساسِ أنّه لا ينبغي على الإنسانِ أن يرمي بنفسِه في التهلكة! فهل رمى النبيّ إبراهيم عليه السلام ولدَه في التهلكةِ حين أطاعَ أمرَ الله تعالى في ذبحِه؟ أم هل أنّ أمّ موسى أهلَكَتْ ولدها حين انصاعَتْ لأمر الله عزّ وجلّ ووضعَتْ رضيعَها في اليمّ؟ إنّنا نقول: «المعروفُ ما أمرْتُم به والمنكرُ ما نهيْتم عنه»[٢]، فعلى سبيلِ المثال، إذا قال الإمامُ إنّ فلانًا هو وليٌّ من أولياءِ الله، ينبغي أنْ أحترمَه وأقدّسَه، وإذا عاد بعدَ مدّةٍ وقال إنّ نفسَ هذا الشخص هو عدوٌّ لله، ينبغي أن أبتعدَ عنه في الباطنِ قبلَ الظاهر. بالعودةِ إلى الرواية: «فكاعَ الناسُ كلّهم ونكلُوا... وكرّرها ثلاثًا. ثم قال: ما أكثرَ الوصفَ وأقلَّ الفعل»[٣]. فهل نحن من أهلِ الفعلِ أم الوصف؟

وإذا أردْنا أن نكونَ من أصحابِ الإيمانِ الثابتِ علينا أن نحمدَ الله ونشكرَه على هدايتِه لنا، إذ ينقلُ الإمام الرضا عن الإمامِ الصّادق عليهما السلام

(١) بحار الأنوار، ج٢ ص٢٦.
(٢) زيارة آل ياسين.
(٣) روضة الكافي، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ح ٢٨٩.

قوله: «فمستقرٌ ومستودع، فالمستقرُّ ما ثبُتَ من الإيمان، والمستودعُ المُعار، وقد هداكم اللهُ لأمرٍ جَهِلَه الناس، فاحمدوا الله على ما مَنَّ عليكم به»[١]، فالإيمانُ والولايةُ والمحبّةُ لا توضَعُ في قلبِ أيٍّ كان، إنّما هي هدايةٌ يمنُّ بها الله تعالى على مَن يشاء من خلقِه وينبغي الحفاظُ عليها، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٢].

وثمّة ما ينبغي على الموالي أن يلتفتَ إليه؛ لقد عاشَ أميرُ المؤمنين عليه السلام وحيدًا، وما يزال كذلك، مما يعني أنّ المناطَ ليس بالكثرة، فأهلُ الحقّ قلّة. ولذا، على الإنسان أن يَثبُتَ حتّى لو رأى أنّ مَن حوله يتساقطون ويتركون الولايةَ الواحدَ تلوَ الآخر، وعليه أن يحرصَ على أنْ لا يُسلبَ إيمانُه ولْيناجِ ربَّه دائمًا ويطلبْ منه أن لا يحرمَه ولايةَ محمّدٍ وآل محمّد عليهم السلام. ولنكنْ مثلَ مولاتنا فاطمة بنت محمّد صلوات الله وسلامه عليها والتي عندما رأتْ أميرَ المؤمنين عليه السلام مُقيّدًا بالحبالِ قالت لسلمان: «ما لي على عليٍّ صبرٌ يا سلمان»، فالإنسانُ يصبرُ على كلِّ شيء ويتحمّلُه، إلا على سَلْبِ ولايةِ عليّ بن أبي طالب منه.

فلْنحمدِ اللهَ عزّ وجلّ على ما نحن فيه من نعمةِ الولاية لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولنتمسكْ بها ولا نُفَرّط بحقِّها ولندركْ أهميتَها ولا ننظر إلى الدنيا وما فيها، حتى لا تُسلَبَ هذه النعمةُ من قلوبنا، فعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ العبدَ يُصبحُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا»[٣]، ولكنّ الإنسانَ قد لا يَعي بأنّه كفر، فهل أدركَ الزّبير وابن عباس ومحمّد بن الحنفية انحرافَهم عن الولاية؟ لا!

---

(١) قرب الإسناد، ص٢٠٣.
(٢) سورة القصص، آية ٥٦.
(٣) الكافي، ج٢ ص٤١٨ ح٢.

وهناك العديدُ من الأدعيةِ التي تركَها لنا أئمّتُنا عليهم السلام لندعوَ بها من أجلِ الثّباتِ على الإيمان، فعن محمّد بن سلمان قال سألْتُ أبا عبدالله عليه السلام: «إنّ شيعتَك تقول إنّ الإيمانَ مُستقرٌّ ومستودعٌ فعلّمْني شيئًا إذا أنا قلتُه استكملتُ الإيمان، قال عليه السلام: قلْ في دبرِ كلِّ صلاة: (رضيْتُ بالله ربًا وبمحمّد نبيًا وبالإسلام دينًا وبالقرآن كتابًا والكعبة قبلة وبعليّ وليًا وإمامًا وبالحسن والحسين والأئمةِ صلوات الله عليهم، اللّهم إنّي رضيْتُ بهم أئمةً فأرضِني بهم إنّكَ على كلِّ شيءٍ قدير)»[1]، إذًا، يُظهِرُ الدّعاءُ ضرورةَ الرّضا بآلِ محمّد صلوات الله عليهم، لكي لا تُسلَبَ منّا ولايتُهم، فهل نحن فعلًا راضون بهم وبكلِّ ما يجري علينا من بلاءاتٍ وامتحاناتٍ في سبيلِهم، أم أنّنا دائمو الإعتراضِ على الإمام ولا نسلّمُ له؟ وهل إذا خرجَ المولى صاحبُ العصرِ والزمان عليه السلام سنكونُ من أهلِ الفعلِ أم من أهلِ القولِ فحسب؟ وعندما نقفُ في موقفٍ يستلزمُ منّا البذلَ مِن أيّ نوعٍ أو ثمنٍ كان، هل سنبذلُ فعلًا؟ أم أنّنا عندما نرى أنّ الأمرَ قد وصلَ إلى أنفسِنا وحياتِنا وممتلكاتِنا، لن نُبديَ أيّ استعدادٍ لخسارةِ أيِّ شيءٍ حتى ولو كانت الولايةُ في المقابل، بل سنبخُلُ على الإمام ونستغني عن الولايةِ كلّها في سبيلِ الحفاظِ على أنفسِنا وما يَعنينا؟ في تلكِ اللحظات، سيُبانُ ما إذا كنّا من أصحابِ الإيمانِ المستقرِّ أو المستودع، وليَكُنْ قولُنا دائمًا كما قال إمامُنا الحسين عليه السلام: «موتٌ في عزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلّ»[2].

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

---

(١) تهذيب الأحكام، ج٢ ص١٠٩.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٤ ص١٩٢.

العصمة بالاعتصام بالولاية

يقول الله تعالى في كتابِه العزيز الكريم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1]. تبيّن هذه الآية أنّ هناك تفاضل بين الأنبياء على أساسه يكون مقامهم وعصمتهم عند الله تعالى.

يَكثُرُ الحديثُ عن مسألةِ العصمةِ ومفهومها وما إذا كانت نسبيّةً أم تامّةً عندَ الأنبياء، وهل فَضَّلَ اللهُ تعالى بها بعضَ الأنبياء على غيرهم أم أنهم كلّهم سواسيةٌ فيها؟

بدايةً في تعريفِ العصمة لغةً واصطلاحًا. العصمةُ لغةً تعني الحفظَ والوقايةَ والمنع، أما اصطلاحًا فتعني التنزّهَ عن الذنوبِ والمعاصي والخطأِ والنسيانِ والسّهوِ وكلِّ قبيح. ومن المسلّمِ به عند الشيعةِ الإثني عشريّة أنّ النبيَّ محمّد بن عبدالله وأهلَ بيته صلوات الله وسلامه عليهم، معصومون عن أيّ دَنَس، بدليلِ آيةِ التطهير، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]. «لقد فُسِّرَ «الرّجسُ»... بالشك، وفي بعضِ الأحاديث بجميعِ العيوبِ فهُم مُطهّرون عنها... إنّ نفيَ الشّكِ يستلزمُ نفيَ العيوبِ القلبيّةِ والقالبيةِ، بل يستلزمُ العصمة، لأنّها ـ العصمة ـ أمرٌ على خلافِ الإرادةِ والاختيار، وإنّها لا تكونُ من الأمورِ الطبيعيّةِ والجبلّية، بل هي حالةٌ نفسيةٌ وأنوارٌ باطنيةٌ تتفجّرُ من نورِ اليقينِ الكاملِ والاطمئنانِ التام.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٣.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٣.

إنَّ مصدرَ جميعِ الخطايا والمعاصي التي تصدرُ من الإنسانِ هو النقصُ في اليقينِ والإيمان، وإنّ مراتبَ اليقينِ والإيمانِ مختلفةٌ بدرجةٍ لا يمكنُ عدُّها وبيانُها. وإنَّ اليقينَ الكاملَ والاطمئنانَ التّامَ الذي يحظى به الأنبياء، والحاصلَ من المشاهدةِ الحضوريةِ هو الذي يعصِمُهم من الآثام. إنَّ يقينَ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد أبلغَه إلى مستوى يقول فيه: «والله لو أُعطيتُ الأقاليمَ السبعةَ بما تحتَ أفلاكِها على أنْ أعصي اللهَ في نملةٍ أسلُبُها جلبَ شعيرة ما فعلتُه»[1]. وملخّصُ الحديثِ أنَّ الابتعادَ عن الشّركِ والشّكِ والتطهيرِ من أرجاسِ عالمِ الطبيعةِ وخبائثِها ومن ظلماتِ التعلّقِ بغيرِ الحقِّ تعالى شأنُه، وكدرِ الإنية، وإزاحةِ الحجبِ الغليظةِ من القلبِ والحاصلةِ من الأنانيةِ والتوجّهِ إلى غيرِ الحقّ سبحانه... يجعلُ صاحبَه حسبَ الإرادةِ الأزلية، من الأنوارِ القدسية الإلهية والآياتِ التامّةِ الربوبيةِ والخالصين المخلصين لله سبحانه، كما أنَّ مثلَ هذا الإنسان يُحقّق مقامًا رفيعًا لا يمكنُ إخضاعُه للوصفِ والبيان، ولا تنالُ أيادي الآمالِ قمّةَ جلالِه، مِثلُه مثلُ مغربِ غيبِ الهوية...»[2].

إذًا، لا شكّ في عصمةِ الأئمّةِ والأنبياءِ عليهم السلام، ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل الأنبياء معصومون بنفس الدرجة؟ وهل عصمتُهم هي في الكليّاتِ أم الجزئيّات؟ إنّ الأنبياءَ معصومون في مقامِ الفعلِ والعمل، أي بالأحكامِ الشرعيّة، وبمعنى أوضح: إنهم معصومون عن الصّفاتِ النفسانيّةِ والشركِ والكفرِ والفرارِ من الزّحف وعقوقِ الوالدين والزنا والكذب وما إلى ذلك... ولكنّ ما لا يلتفتُ إليه البعضُ أنّ الأنبياءَ ليسوا معصومين في مقامِ المعرفةِ والفكر، وهم درجاتٌ في هذا المقام، ولذا كان هناك أنبياءُ وُصِفوا بـ «أُولي العزم» بينما لم يدخلْ أنبياءُ آخرون ضمن هذا التوصيف.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٢) الأربعون حديثًا، السيد روح الله الخميني، ص٥٨١.

وتدخلُ المعرفةُ بولاية محمّد وآل محمّد ﷺ في مقامِ المعرفةِ بالدّرجةِ الأولى، إذ تقول الرواية: «... ثمّ قال عليّ بن الحسين عليه السلام: يا أيّتها الحوت، فأَطْلَعَ الحوتُ رأسَه من البحرِ مثلَ الجبلِ العظيم وهو يقول: لبّيك لبّيك يا وليّ الله، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: مَن أنت؟ قال: أنا حوت يونس يا سيّدي. قال عليّ بن الحسين عليه السلام: حدِّثْنا بخبرِ يونس. قال: إنّ الله تعالى لم يبعَثْ نبيًّا من لَدُن آدم إلى أن صارَ جدُّك محمّد ﷺ إلّا وقد عرَضَ عليه ولايتَكم أهلَ البيت، فمَن قَبِلَها من الأنبياء، سَلِمَ وتخلّص، ومَن توقّفَ عنها وتتعتعَ في حَمْلِها لَقِيَ ما لَقِيَ آدمُ من المعصية، ولَقِيَ ما لَقِيَ نوحٌ من الغرق، وما لَقِيَ إبراهيم من النار، وما لَقِيَ يوسف من الجُبّ، وما لَقِيَ أيّوب من البلاء، وما لَقِيَ داوُود من الخطيئة، إلى أن بعثَ اللهُ تعالى يونس، فأوحى اللهُ تعالى إليه أنْ يا يونس تولَّ أميرَ المؤمنين عليًّا والأئمّةَ الراشدين في صلبه. قال يونس عليه السلام: كيف أتولّى مَن لم أره ولم أعرفه، وذهب مغاضبًا، فأوحى الله تعالى إليّ أن التقِم يونسَ ولا توهنْ له عظمًا. فالتقمْتُه، فمَكَثَ في بطني أربعين صباحًا يطوفُ معي في البحار في ظلماتٍ ثلاثٍ ينادي: لا إله إلاّ أنتَ سبحانَك إنّي كنتُ من الظالمين، قد قبِلتُ ولايةَ عليّ بن أبي طالب والأئمّةَ الراشدين من ولده، فلمّا أنْ آمنَ بولايتكم أَمَرَني ربّي فقذفْتُه على ساحلِ البحر»[1].

قال رسول الله ﷺ: «ما تكامَلَت النبوّة لنبيّ في الأظلّة حتّى عُرِضَت عليه ولايتي وولاية أهل بيتي ومثلوا له فأُمِروا بطاعتهم وولايتهم»[2]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله عرض ولايتي على أهل السموات وعلى أهل الأرض، أقرّ بها من أقرّ وأنكرها من أنكر، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقرّ بها»[3]. كما قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ، ما بَعثَ

(١) مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٥١.
(٢) بصائر الدرجات، ج٢ ص١٠٦.
(٣) بصائر الدرجات، ج١ ص٩٦ باب١٠.

اللهُ نبيًّا إلّا وقد دعاه إلى ولايتك طائعًا أو كارهًا»[١]. ويقول تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[٢]، ولعلّ من تأويل[٣] هذه الآية إبداءُ ما في النفس أو إخفاؤه في ما خصّ التهاوُن بالولاية.

يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٤]، فبمقدار ما أوتِيَ الأنبياءُ من العلم (أي العلم بأسماء[٥] الله وصفاته) بمقدار ما تكون درجة نبوّة كل نبيّ، والحصول على العلم منوطٌ بالتقوى، إذ يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٦]، فيتبيّنُ من هذه الآية الكريمة أنّ مراتبَ العلمِ هي بحسب التقوى، والنبي هو الذي يُنبئ بالأسماء والصفات بقدر تجلّيها وظهورها فيه. ولكنّ علمَ الأنبياء، على

---

(١) بصائر الدرجات، باب٨ ص٩٢ ح٢.

(٢) (سورة البقرة، آية ٢٨٤). عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: «إنّ هذه الآية عُرِضَتْ على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أنْ يقبلوها من ثِقْلِها، وقَبِلَها رسول الله صلى الله عليه وآله وعَرَضَها على أمّتِه فقَبِلُوها. فلما رأى الله عزّ وجلّ منهم القبولَ على أنّهم لا يطيقونها، قال: أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتُها على الأُمَمِ السابقة فأبوا أن يقبلوها وقَبِلَتْها أُمّتُك، فحقٌّ عليَّ أن أرفَعَها عن أمّتِك، وقال عزّ من قائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾»، (جامع السعادات، ج١ ص١٥٧). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «﴿وَإِن تُبْدُوا﴾، فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ رَأْسُ الْإِيمَانِ»، (البرهان في تفسير القرآن، ج١ ص٥٧٣). «يا عليّ، حبّك إيمان»، إحقاق الحق، ج٧ ص٢١٣.

(٣) قال عليه السلام مخاطبًا أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أقاتِلُهم على تنزيل القرآن وأنت تقاتِلُهم على تأويله»، ينابيع المودة، ص٢٣٣.

(٤) سورة المجادلة، آية ١١.

(٥) وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، الكافي، ج١ ص١٤٤.

(٦) سورة البقرة، آية ٢٨٢.

سِعَتِه، يبقى محدودًا بدليلِ الكثيرِ من الآيات القرآنية. فعلى الرّغمِ من المقامِ الذي كان قد وصلَ إليه النبيّ إبراهيم عليه السلام إلا أنّ الله تعالى جعلَه إمامًا فيما بعد، حيث ورد عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذَ إبراهيمَ عليه السلام عبدًا قبل أن يتخذَه نبيًا، وإنّ اللهَ اتخذَه نبيًا قبل أن يتخذَه رسولًا، وإنّ الله اتخذَه رسولًا قبل أن يتخذَه خليلًا، وإنّ اللهَ اتخذَه خليلًا قبل أن يتخذَه إمامًا فلمّا جمعَ له الأشياءَ، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾...»[1].

ونبيُّ الله عيسى عليه السلام لم يكنْ قد امتلكَ كلَّ العلمِ والحقيقة، حيث قالَ لأصحابِه: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]، فالتطهيرُ التامُّ كان لاحقًا ولم يكن من البداية. أما مَن شأنُهُ الإمامةُ والولاية، فقد أذهبَ اللهُ عنه الرجسَ وطهّرَهُ تطهيرًا منذُ الأزل بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4].

وبالنسبةِ لنبيّ الله موسى عليه السلام، فقد قالَ الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾[5]، موعظةً واحدة فقط. وحين التقى بالخضرِ طلبَ منه أن يعلّمَه فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[6] فأجابَه الخضرُ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾[7] وإنما يدلّ هذا على أنّه لم يكن عالمًا بكلّ شيء.

وقد خاطبَ الله تعالى نبيَّه نوحًا عليه السلام قائلًا: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[8]، ما يشيرُ إلى أنَّ النبيّ نوح لم يكن محيطًا بكلِّ العلوم. وعن أبي

(١) تفسير نور الثقلين، ج١ ص١٢١.
(٢) سورة الزخرف، آية ٦٣.
(٣) سورة آل عمران، آية ٥٥.
(٤) سورة الأحزاب، آية ٣٣.
(٥) سورة الأعراف، آية ١٤٥.
(٦) سورة الكهف، آية ٦٦.
(٧) سورة الكهف، آية ٦٧ ـ ٦٨.
(٨) سورة هود، آية ٤٦.

عبدالله عليه السلام أنّه قال: «إذا كان يومُ القيامةِ وجَمَعَ الله تبارك وتعالى الخلائق، كان نوح صلى الله عليه أولَ من يُدعى به فيقال له: هل بلّغْتَ؟ فيقول: نعم. فيقال له: مَن يشهدُ لك؟ فيقول: محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله. قال: فيخرج نوحٌ عليه السلام فيتخطّى الناسَ حتى يجيء إلى محمّد صلى الله عليه وآله وهو على كثيبِ المسكِ ومعه عليّ عليه السلام وهو قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] فيقول نوحٌ لمحمّد صلى الله عليه وآله: يا محمّد، إنّ الله تبارك وتعالى سألَني هل بلّغْتَ؟ فقلتُ: نعم. فقال: مَن يشهد لك؟ فقلت: محمّد صلى الله عليه وآله. فيقول: يا جعفر، يا حمزة، اذهبا واشهدا له أنّه قد بلّغ. فقال أبو عبدالله عليه السلام: فجعفرٌ وحمزة هما الشاهدان للأنبياء بما بلّغوا، فقلت: جُعِلْتُ فداكَ، فعليٌّ عليه السلام أين هو؟ فقال: هو أعظمُ منزلةً من ذلك»[2].

ولكن في مقامِ المعرفة، هناك عقابٌ على الخطأ، فعلى سبيلِ المثال، كان عقابُ موسى عليه السلام على خَطَئِه مع الخضر، فراقَه له وعدمَ استطاعتِه تعلّمَ المعرفةِ التي كانت عندَ الخضر، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3].

وقد خالفَ النبيّ آدم عليه السلام بمقامِ الفكرِ وليس الفعل، فصحيحٌ أنّه قد أكلَ من الشجرة، ولكن ليس معلومًا كيف كان هذا الأكل. فالشجرةُ المذكورة هي علمُ آلِ محمّد صلى الله عليه وآله، بحسب الرواية، حيث قال الإمام العسكري عليه السلام: «... وإنّ الله عزّ وجلّ لمّا لعَنَ إبليس بإبائِه وأكرمَ الملائكةَ لسجودِها لآدمِ وطاعتِهم لله عزّ وجلّ، أَمَرَ بآدم وحوّاء إلى الجنة وقال: يا آدم، اسكنْ أنتَ وزوجُك الجنةَ وكُلَا من الجنةِ رغدًا واسعًا حيث شئْتُما بلا تَعَبٍ، ولا تقرَبا هذه الشجرة، شجرةَ العلم، شجرةَ علمِ محمّد وآل محمّد، آثَرَهم الله

(١) سورة الملك، آية ٢٧.
(٢) الكافي الشريف، ج٨ ص٢٦٧.
(٣) سورة الكهف، آية ٧٨.

تعالى به دونَ سائرِ خلقِه... إغترَّ آدم وغَلِطَ فتناولَ فأصابَهما ما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ بوسوستِه وغرورِه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم...»[١].

إنَّ كلَّ موجودٍ في هذا العالم له حدّ، فلقد توقّفَ جبرائيل عليه السلام، المعبَّرُ عنه بالعقلِ الكليّ، عندَ نقطةٍ معيّنة ولم يتخطّاها، حين كان يرافقُ النبي صلى الله عليه وآله في معراجِه ثم قال: «لو دنوْتُ أنملةً لاحترقت»[٢]، فهو عَرَفَ حدَّه ووقفَ عنده. لقد كانت مخالفةُ النبيّ آدم عليه السلام في مقامِ المعرفةِ وأتَتْ من بابِ ترْك الأولى، ومع ذلك عاقبَه الله تعالى وأخْرَجَه من الجنّة، لأنه كما يُقال: حسناتُ الأبرارِ سيّئاتُ المقرّبين.

وللإشارة، هناك الكثير من الآياتِ التي تدلُّ على رفعةِ مقامِ الأنبياء في آخرِ حياتهم، كالنبيّ إدريس ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[٣]، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٤]، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[٥].

أما بالنسبةِ للملائكة فهم مثلُ الأنبياءِ في العصمة، أي أنّ عصمتَهم تقتصرُ على مقامِ العمل، فحين أرادَ الله تعالى أن يجعلَ له خليفةً في الأرض، قالت لَه الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٦] فكان عقابُهم أنْ أُبعِدوا عن عرشِ الله بضعَ سنين. ولكنّهم بعد ذلك سجدوا وأطاعوا، فهم معصومون بمقامِ الطّاعةِ وليس في مقامِ الفكر. أمّا إبليس فاعترضَ في مقامِ الفكرِ والعمل، إذ تمرّدَ ولم يُطِعْ ولذلكَ طُرِدَ من الجنة.

وكما عوقبَ الأنبياءُ والملائكةُ على أخطائِهم في مقامِ الفكر، كذلك عوقبَ الأصحابُ أيضًا في هذا المقام، حيث وردَ في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام

(١) تفسير الإمام العسكري، ص٩٠.
(٢) بحار الأنوار، ج١٨ ص٣٨٢.
(٣) سورة مريم، آية ٥٧.
(٤) سورة البقرة، آية ١٣٠.
(٥) سورة آل عمران، آية ٤٥.
(٦) سورة البقرة، آية ٣٠.

أنّه قال: «... فأمّا سلمان، فإنّه عَرَضَ في قلبِه عارضٌ أنّ عند أمير المؤمنين عليه السلام اسم الله الأعظم لو تكلّم به لأخَذَتْهم الأرض وهو هكذا، فلُبِّبَ ووُجِئَتْ عنُقُه حتى تُرِكَت كالسُّلعة (الغدّة في الجسم)، فمرّ به أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله، هذا من ذلك، بايع فبايَع...»[١].

ولأنّ علمَ الأنبياء لم يكن تامًّا، كما مرَّ معنا، جاءتْ رسالاتُهم غير تامّة، وفي المقابل، لأنّ علمَ النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله كان تامًّا وكاملًا، جاءتْ رسالتُه تامّةً وكاملةً ومُهيمنةً على باقي الرّسالات، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[٣].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ عيسى بن مريم أُعطي حرفيْن كان يعمل بهما، وأُعطيَ موسى أربعةَ أحرف، وإبراهيم ثمانية أحرف، وأُعطي نوح خمسة عشر حرفًا، وأُعطي آدم خمسة وعشرين حرفًا، وإنّ الله جَمَعَ ذلك كلَّه لمحمّد صلى الله عليه وآله»[٤]. وعن أبان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «العلمُ سبعة وعشرون حرفًا فجميع ما جاءت به الرُّسُل حرفان فلم يعرف النّاس حتى اليوم غيرَ الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرجَ الخمسة والعشرين حرفًا فبثّها في النّاس، وضمّ إليها الحرفين، حتى يبثّها سبعة وعشرين حرفًا»[٥].

تذكُرُ الرّوايات أنه عندما يخرج قائمُ آل محمّد صلى الله عليه وآله ينادي: «أَلا يا أَهْلَ الْعالَمِ أَنَا الإمامُ القائمُ الثاني عَشَرَ، أَلا يا أَهْلَ الْعالَمِ، أَنَا الصَّمْصَامُ المُنْتَقِم، أَلا يا أَهْلَ الْعالَمِ إنَّ جَدّيَ الْحُسَيْن قَتَلوهُ عَطْشانًا، أَلا يا أَهْلَ الْعالَمِ إنَّ جَدّيَ الْحُسَيْن طَرَحوهُ عُريانًا، أَلا يا أَهْلَ الْعالَمِ إنَّ جَدّيَ الْحُسَيْن سَحَقوهُ عُدوانًا»[٦].

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

---

(١) إختيار معرفة الرجال، ص١١ ـ ١٢.
(٢) سورة النجم، آية ٨ ـ ٩.
(٣) سورة المائدة، آية ٤٨.
(٤) الكافي، ج١ ص٢٣٠.
(٥) بحار الأنوار، ج ٥٢ ص٣٣٦.
(٦) الزام الناصب، ج٢، ص٢٨٢.

ذِكْرُنا ذكرُ الله

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]. إنّ ذكرَ اللهِ من الأمورِ الأساسيّة التي يوصي بها الشارعُ المقدّس، حرصًا على أن يبقى قلبُ المؤمن حيًّا وبعيدًا عن الغفلةِ والسّهو، ولكن هل نعرف ما هي مراتبُ ذكرِ الله تبارك وتعالى؟ نعم، للذّكرِ أربعُ مراتب: ذكرٌ كتبيّ، وذكرٌ لفظيّ، وذكرٌ ذهنيّ، وذكرٌ واقعيّ وحقيقيّ وعينيّ. فالذكرُ الكتبيّ يتحقّقُ حينَ تتمّ كتابةُ الأذكارِ لا سيّما أسماءَ الله تعالى كالودودِ والرحمن والقيوم والقدّوس وما إلى ذلك. والذّكرُ اللفظيّ هو ما يُتلفَّظُ به من هذه الأسماء. أمّا الذكرُ الذهنيّ، فهو عندما يتدبّرُ الذاكرُ بأسماءِ الله تعالى. وهذا الذكر، بمراتبِه الثلاث، هو الشائعُ بين الناس، وينقسم، عندَ البعض، إلى ذكرٍ جليّ، أي ما يظهرُ إلى الخارجِ من لفظٍ وقول، وآخرٍ خفيّ، أي ما يُضمَرُ في القلوب وتنطوي عليه الضمائرُ ممّا لا تُحرّكُ به الألسنةُ والجوارح. ولكن يبقى الذكرُ الواقعيُّ والحقيقيُّ والعينيّ، فما هو؟ وهل هو ذاتُه الشائعُ لدى النّاس أم لا؟ يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[2] وفي بيانِ ما جاء في الآية الشريفة، يقول الإمام الباقر عليه السلام:

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٤١.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

«نحن ذكرُ الله ونحن أكبر»[١]. وعن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجل، ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الذّكرُ أنا والأئمةُ أهلُ الذكر»[٣]. كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «شيعتُنا الرحماءُ بينهم الذين إذا خلوا ذكروا الله، إنّا إذا ذُكِرْنا ذُكِرَ الله، وإذا ذُكِرَ عدوُّنا ذُكِرَ الشيطان»[٤]. كما يقول عليه السلام: «تسبيحُ فاطمة الزهراء صلوات الله عليها من الذكرِ الكثيرِ الذي قال الله عز وجلّ: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾»[٥]. فالذكرُ الواقعيُّ والحقيقيُّ والعينيّ ليس إلا أهلَ البيت صلوات الله عليهم.

إنّ الجلوسَ في مجالسِ الذّكر فيه من الفضلِ والكرامةِ ما لا يخطرُ على بالِنا، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ لله ملائكةً سيّاحين، سوى الكرام الكاتبين، فإذا مرّوا بقومٍ يذكرون محمدًا وآلَ محمد قالوا: قِفوا فقد أصبْتُم حاجتَكم، فيجلسون، فيتفقّهون معهم، فإذا قاموا عادوا مَرْضاهم وشهِدوا جنائزَهم وتعاهدوا غائبَهم، فذلك المجلسُ الذي لا يشقى به جليس»[٦].

ومن أعظمِ مجالسِ الذّكر، مجالسُ عزاءِ أهلِ البيتِ عليهم السلام، حيث تُنشَرُ المعارفُ الإلهيةُ إلى جانبِ ذكرِ مصائبِ الأئمةِ عليهم السلام والبكاءِ عليهم فالملائكةُ تطوفُ في الأرضِ بحثًا عمَّن يعقدُ العزاءَ ويذكرُ أهلَ البيت عليهم السلام، فيحضرون وينصتون ويبكون، إذ وردَ عن الإمام الصادق عليه السلام قولُه لأحدِ جُلّاسِه: «واللهِ، لقد شهِدَك ملائكةُ الله المقرّبون هاهنا يسمعون قولَك في

(١) الكافي، ج٢ ص٥٩٨ ح١.
(٢) سورة النحل، آية ٤٣.
(٣) الكافي، ج١ ص٢١٠.
(٤) الكافي، ج٢ ص١٨٦ ح١.
(٥) الكافي، ج٢ ص٥٠٠.
(٦) الكافي، ج٢ ص١٨٦.

الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا أو أكثر»[١]. فهم، إذًا، يبحثون عمَّن يذكر محمّدًا وعليًّا وفاطمة والحسن والحسين والتّسعة المعصومين من ذريّة الحسين عليهم السلام، وهذه هي عبادتُهم وذكرُهم وتسبيحهم. يتنزّلون من عليائهم ويستقرّون في محافلِ أهلِ الذّكرِ وأهلِ العشقِ والوَلَهِ بمحمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم. وإنّ هذه المجالسَ لَهِيَ محطُّ نظرِ الله تعالى وأهلِ البيت عليهم السلام، فالله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٢]. كما نقرأ في زيارة الإمام عليه السلام: «أشهدُ أنّك ترى مقامي وتسمعُ كلامي وتردُّ سلامي».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما قعدَ عدّةٌ من أهلِ الأرض يذكرون الله إلا قعدَ معهم عدّةٌ من الملائكة»[٣]. كما ورد في إحدى الروايات: «إنّ من الملائكة الذين في السّماء ليطّلعونَ إلى الواحد والإثنين والثلاثة وهم يذكرون فضلَ آل محمد صلوات الله عليهم، فتقول: أمَا ترون إلى هؤلاءِ في قلّتِهم وكثرةِ عدوِّهم يَصِفون فضلَ آلِ محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: فتقولُ الطائفةُ الأخرى من الملائكة: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٤]»[٥]. إذًا، هنالك أصنافٌ من الملائكة؛ ملائكةٌ سيّاحون وكرامٌ كاتبون، وهم الذين يكتبون أعمالَنا، وملائكةٌ في السماء يطّلعون اطّلاعًا، لأنّهم غيرُ قادرين على الهبوطِ إلى الأرض، فهذا الإطلاعُ يكون من بعيد. ويتّضحُ من الروايةِ أنّ مَن يذكرون محمّدًا وآل محمّد صلوات الله عليهم هم

(١) رجال الكشي، ص٢٨٩.
(٢) سورة التوبة، آية ١٠٥.
(٣) ميزان الحكمة، ح٢٣٨٧.
(٤) الكافي، ج٢ ص١٤٩ ح٤.
(٥) وسائل الشيعة، ج١٦ ص٣٤٦.

قلّة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[١]، فما السّبب؟ في الواقع، يعود السّببُ في ذلك إلى ضعفِ إيمانِ الناسِ ويقينِهم وعدمِ طهارةِ قلوبِهم ولهذا يقول إمامنا الباقر عليه السلام: «إنّ حديثكم هذا لتشمئزُّ منه قلوبُ الرجال»[٢]، ذلك أنّ مَن لا يمتلكُ قلبًا طاهرًا لا يقدرُ على احتمالِ تلك الحقائق، فليس أيًّا كان يمنُّ الله تعالى عليه بمحبّةِ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، أو الجلوسِ في مجالسِهم، إذ رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام قولُه: «إنّ حبّنا ـ أهلَ البيت ـ يُنزلُه الله من السّماء من خزائنَ تحتَ العرشِ كخزائنِ الذّهب والفضة، ولا ينزلُه إلّا بقدر، ولا يعطيه إلّا خيرَ الخلق، وإنّ له غمامةً كغمامةِ القطر، فإذا أرادَ الله أن يخصّ به مَن أحبّ من خلقه، أذِن لتلك الغمامة فتهطّلت كما تهطّلت السحاب، فتصيبُ الجنينَ في بطنِ أمه»[٣]. ومَن لا ينشغلُ بحبِّ أهلِ البيت عليهم السلام وذكرِهم، يكون أكثرُ همِّه محصورًا بدنياه من مالٍ وشهوة وطعام وما إلى ذلك.

ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما اجتمعَ قومٌ يذكرون فضلَ عليّ بن أبي طالب، إلاّ هبطَتْ عليهم ملائكةُ السماء حتى تحفَّ بهم، فإذا تفرّقوا عرجَتِ الملائكةُ إلى السماء، فيقول لهم الملائكة: إنّا نشمُّ من رائحتِكم ما لا نشمُّه من الملائكة، فلم نرَ رائحةً أطيبَ منها، فيقولون: كنّا عند قوم يذكرون محمّدًا وأهل بيته فعَلِق [فينا] من ريحهم فتعطّرْنا، فيقولون: إهبطوا بنا [إليهم]، فيقولون: تفرّقوا ومضى كلُّ واحدٍ منهم إلى منزله، فيقولون: إهبطوا بنا حتى نتعطّرَ بذلك المكان»[٤]. إذًا، إنّ كلَّ

(١) سورة الواقعة، آية ١٣ ـ ١٤.
(٢) غيبة النعماني، ص٢١٠.
(٣) تحف العقول، ص٣١٣.
(٤) الكافي، ج٨ ص١٥١.

مكانٍ تُذكَر فيه فضائلُ عليّ ورسول الله وأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، تحضرُ فيه الملائكة، لأنّ ذكرَهم ذكرُ الله كما مرَّ معنا، لا بل حتى الملائكة التي يفوتُها حضورُ المجلس، تنزلُ من السماء لكي تتعطّرَ بمكانِ الذّكر الذي غادرَه الذاكرون وتتبرّك به، فهنيئًا لمَن يعقدُ في بيتِه العزاءَ بشكل دائم، إذ تبقى الملائكةُ حاضرةً فيه دومًا وتهرب منه الشياطين، فتنتفي المشاحناتُ والخلافاتُ بين أفرادِه وتحلُّ فيه البركة، بل ويُعتبرُ محفلًا من محافلِ أهلِ السّماء، وليس أهلِ الأرضِ فحسب.

قال أبو الحسن عليه السلام: «ليس شيءٌ أنكى لإبليس وجنودِه من زيارةِ الإخوان في الله بعضهم لبعض»[1]، وتُعتبرُ مجالسُ الذكر مَحفلًا لزيارة الإخوان في الله، لأنّ هدفَ الزّيارة هو ذكرُ الله لا المصالحُ الشخصيّةُ والدنيويّة، وما لا يلتفتُ إليه الكثيرون أنّ الإمامَ هو المصداقُ الأتمُّ للأخ في الله، لذا فإنّ زيارتَه لها نفسُ أثرِ زيارةِ الإخوان في الله، بل أعظم، ففي الرواية أنّه وفدَ إلى الحسين صلوات الله عليه وفدٌ فقالوا: يا ابن رسول الله إنّ أصحابَنا وَفَدوا إلى معاوية ووَفَدْنا نحن إليك فقال: «إذن أُجِيزُكُم بأكثر مما يُجِيزُهم، فقالوا: جُعِلْنا فِداكَ إنّما جِئْنا لدِينِنا، قال: فطأطأَ رأسَه ونكتَ الأرضَ وأطرقَ طويلًا ثم رفعَ رأسَه فقال: قصيرةٌ من طويلة، مَن أحبَّنا لم يحبَّنا لقرابةٍ بيننا وبينه ولا لمعروفٍ أسديْنَاه إليه إنّما أحبَّنا لله ورسوله، جاء معنا يومَ القيامةِ كهاتين وَقَرَنَ بين سبّابتيه»[2]. ويتابعُ مولانا الكاظم عليه السلام كلامَه: «وإنّ المؤمنَيْن يلتقيان فيذكران الله، ثمّ يذكران فَضْلَنا أهلَ البيت، فلا يبقى على وجهِ إبليس مضغةٌ، إلاّ تخدّدَ حتّى أنّ روحَه لَتستغيثُ من شدّةِ ما تجدُ من الألم، فتحسُّ ملائكةُ السماءِ وخزّانُ الجنان،

(١) ميزان الحكمة، ج٢ ص١١٩٢.
(٢) أعلام الدين، ج١ ص٤٦٠.

فيلعنونه حتّى لا يبقى ملكٌ مقرّبٌ إلاّ لعنَه فيقعُ خاسئًا حسيرًا مدحورًا»[١].

إذًا، فمَن يجلسُ في هذه المجالسِ له فضلٌ على بقيّةِ الناس، إذ يكون سببًا في إضعافِ قدرةِ إبليس وتذويبِها. وفي المقابل، إذا اجتمعَ النّاسُ في محفلٍ ما ولم يذكروا الله تعالى وأهل البيت عليهم السلام، انقلبَ ذلك عليهم يومَ القيامةِ حسرةً وندامة، إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما اجتمعَ في مجلسٍ قومٌ لم يذكروا الله عزّ وجلّ ولم يذكرونا إلّا كان ذلك المجلسُ حسرةً عليهم يومَ القيامة»[٢]. ويقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٣]، فعندما نذكرُ اللهَ عزّ وجلّ، يذكرُنا هو أيضًا تبارك وتعالى. كما خاطبَ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله جماعةً من الناس يومًا بالقول: «ارتعوا في رياضِ الجنة، قالوا: يا رسول الله وما رياضُ الجنة؟ قال صلى الله عليه وآله: رياضُ الجنة مجالسُ الذكر»[٤]، فإذا أرادَ الإنسانُ أن يرتعَ في رياضِ الجنة، عليه أن يجلسَ في مجالسِ الذكر.

وكذلك يُخبرنا النبي صلى الله عليه وآله عن حلقاتِ الذّكر فيقول: «إنّ الملائكةَ يمرّون على حَلَقِ الذّكرِ فيقومون على رؤوسِهم، ويبكون لبكائهم، ويؤمّنون على دعائِهم، فيصعدون إلى السماء، فيقول الله لهم: يا ملائكتي أين كنتم (والله يدري أين كانوا وهو أعلم) فيقولون: يا ربّنا، إنّا حضرْنا مجلسًا من مجالسِ الذكر، فرأينا أقوامًا يُسبّحونك (نَفَسُ الْمَهْمُومِ لَنَا الْمُغْتَمِّ لِظُلْمِنَا تَسْبِيحٌ، وَهَمُّهُ لِأَمْرِنَا عِبَادَةٌ، وَكِتْمَانُهُ لِسِرِّنَا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ)[٥] ويُمجّدونك ويُقدّسونك، يخافون نارَك. فيقول الله سبحانه: يا ملائكتي

(١) الكافي، ج٢ ص١٨٨.
(٢) الكافي، ج٢ ص٤٩٦.
(٣) سورة البقرة، آية ١٥٢.
(٤) مكيال المكارم، ج٢ ص١٥١.
(٥) الكافي، ج٢ ص٢٢٦.

أذودُها عنهم، وأُشهِدُكم أنّي قد غفرْتُ لهم، وآمنتُهم ممّا يخافون، فيقولون: ربّنا، إنّ فيهم فلانًا، وإنّه لم يذكرك، فيقول الله سبحانه: قد غفرْتُ له بمجالستِه لهم، فإنّ الذاكرين مَن لا يشقى بهم جليسُهم»[1].

فطوبى لمَن يجلس في هذه المجالس حتى ولو لم يكُن من الذّاكرين! كما ورد في إحدى الروايات عن الصادق عليه السلام قال: «يا داود، أبلِغ مواليَّ عني السلام وإنّي أقول: رَحِمَ اللهُ عبدًا اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرَنا فإنّ ثالثهما ملكٌ يستغفر لهما، وما اجتمعْتُم فاشتغلوا بالذكر فإنّ في اجتماعكم ومذاكراتكم إحياءً لأمرنا وخيرُ الناسِ مِن بعدِنا مَن ذاكرَ بأمرِنا وعادَ إلى ذكرنا»[2]. وفي الرواية أيضًا: «تلاقوا وتحادثوا العلمَ فإنّ بالحديث تُجلى القلوبُ الرّانئة، وبالحديثِ إحياءُ أمرنا، فرَحِمَ الله مَن أحيا أمْرَنا»[3]، والرّانئةُ من الرّين، أي الدَّنَس. وهناك الكثير من الروايات التي تتحدّث عن فضائلِ أهلِ البيت عليهم السلام، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله جلّ جلاله جعلَ لأخي عليّ بن أبي طالب فضائلَ لا تُحصى كثرةً، فمَن ذكرَ فضيلةً من فضائلِه مُقِرًّا بها غفرَ الله له ما تقدّمَ من ذنبِه وما تأخّر، ومَن كتبَ فضيلةً من فضائلِه لم تزل الملائكةُ تستغفرُ له ما بقيَ لتلك الكتابةِ رسم، ومَن أصغى إلى فضيلةٍ من فضائلِه، غفرَ الله له الذنوبَ التي اكتسبَها بالإستماع، ومَن نظرَ إلى كتابٍ في فضائلِ عليّ غفرَ الله له الذنوبَ التي اكتسبَها بالنظر. ثم قال: النظرُ إلى عليّ بن أبي طالب عبادة، وذكرُه عبادة، ولا يقبل اللهُ إيمانَ عبدٍ من عباده كلّهم إلّا بولايته والبراءة من أعدائه»[4].

وكما ذكرنا، فإنّ مجالسَ العزاء، هي مجالسٌ جامعةٌ لذكرِ فضائلِ أهلِ

(١) عدة الداعي، ص٤٦٨.
(٢) أمالي الصدوق، ص٢٢٤.
(٣) عوالي اللئالي، ج٤ ص٦٧ ح٢٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٣٨ ص١٩٦ ح٤.

البيت عليهم السلام ومصائبِهم والبكاءِ عليهم، وفي حديثٍ للإمام الصادق عليه السلام مع أحد أصحابِه ويُدعى فضيل، قال: «مَن ذُكرْنا عندَه فخرجَ من عينِه مثلُ جناحِ الذّباب، غفرَ الله له ذنوبَه ولو كانت أكثرَ من زبدِ البحر»[١]. فجلوسُنا في هذه المجالس هو كفّارةٌ لذنوبِنا ومعاصينا وتطهيرًا وتزكيةً لأنفسنا. هناك من النّاس مَن يتذمّر من البكاء وينتقدُ الباكين ولكنّ أمثال هؤلاء يجهلون أنّ البكاء على أهل البيت عليهم السلام يجلِي القلوبَ ويُزيلُ الرّينَ المحيط بها، كما أنّ هذه الدّموع التي تسيلُ على الخدّين، تجعل للموالي ماءَ وجهٍ أمامَ الله عزّ وجلّ. فطوبى للباكين والذاكرين، ولكن كما سبق وقلنا، قلّةٌ هم الذاكرون لمحمّدٍ وعليّ وفاطمة عليهم السلام وفضائلِهم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

إذًا، فمع كلِّ هذه الكرامةِ التي يمكنُ للإنسان أن يحصلَ عليها من مجالسِ الذكر، يلتهي بالدّنيا وهمومِها وغمومِها، في حين يقول الله تعالى وهو يخاطبُ النبيّ داود عليه السلام: «ما لأوليائي والهمِّ بالدّنيا؟ إنّ الهمَّ يُذهبُ حلاوةَ مناجاتي من قلوبهم، يا داود، إنّ محبّتي من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لا يغتمّون»[٣]. فإذا بَقينا مشغولين بهمومِنا وأحزاننا، سنُحرَمُ من حلاوةِ ذكرِ الله، ولن نشعرَ بأنسٍ ولا بخشوع. مالَنا وللإنشغالِ الدّائم بأمورِ الدّنيا وأخبار السياسة والتجارة وغيرها من الشؤونِ التي لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع؟ لذا، فلنكنْ من أهلِ الذكر، وعلينا أن نعرفَ أنّنا لا نجلسُ وحدَنا في هذه المجالس، إذ إنّ الملائكةَ حاضرةٌ معنا.

يقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٤]، سنُسأل عمّا إذا كنّا من

---

(١) قرب الإسناد، ص٢٦.

(٢) سورة الجمعة، آية ٤.

(٣) مسكّن الفؤاد، ص٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٨٢ ص١٤٣ ح٢٦.

(٤) سورة الصافات، آية ٢٤.

الذاكرين أم من الغافلين، وسنُسأل عمّا إذا كنّا وفَيْنا بشيءٍ من حقّ مولاتنا فاطمة عليها السلام وابنِها صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف وعن الذي قدّمناه لأهلِ البيت عليهم السلام، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1].

وفي الختام، نقول إنّ فاطمة سلام الله عليها حين استُشهدَ رسول الله صلى الله عليه وآله ظلّتْ تبكي ليلًا ونهارًا، وبكاؤُها ذاك كان ذكرًا لله، ولكنّ القومَ استاؤوا منها وأرادوا أن يمنعوها من ذلك، فقالت لعليٍّ عليه السلام: يا عليّ، ما أقلَّ مكوثي بينكم! لقد منعوها من أن تبكي وتعبّرَ عن حزنِها على رحيلِ رسول الله صلى الله عليه وآله وأبعدوها عن المدينة، فغادرت الدنيا. وهكذا هو حالُ الإنسانِ الموالي، إذ حين يشعرُ أنّ أحدًا ما يحاولُ حرمانَه من الذكر، يفضّلُ مغادرةَ الدنيا، فلا شغلَ له مع أهلها.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) سورة طه، آية ١٢٤.

اللهم عجل لولیک الفرج
آجرک الله یا صاحب الزمان
بی قرارم، بی قرارم، ... تا به کی؟ هنگام ظهور

وجوب الوصيّة، ومعنى العديلة

يقول الله تعالى في محكمِ كتابِه الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1]، ثمّةَ مسألتان أساسيّتان ترتبطان بالموتِ وينبغي على الإنسانِ أن يستعدَّ لهما قبل وصولِه إلى تلك اللحظة: الأولى هي الوصيّة، والثانية هي العديلة.

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]. من الأمورِ التي حثَّ الله تباركَ وتعالى عليها والتي ينبغي التأكيدُ عليها ولفتُ النظرِ لها لأنّها محطُّ استخفافِ الكثيرِ من المؤمنين والموالين، هي الوصيّة. فالوصيّةُ واجبةٌ على كلِّ مسلم، ولكن ليس أيًّا كان يُوفَّقُ لكتابتِها لأنّ الله تعالى يقول: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فينبغي أن نحرصَ على أن نكونَ منهم وندعوَ لذلك.

يقول رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لامرئٍ مسلمٍ أن يَبيتَ ليلةً إلا ووصيّتُه تحتَ رأسِه»[3]؛ ويقال إنّ مَن يمتلكُ كفنًا ويكتبُ وصيةً يزيدُ الله في عمره. وينبغي على الإنسانِ أن يُوصي حتى ولو اعتقدَ أنّه لا يملكُ شيئًا.

إنّ أهمّ ما يجبُ أن يوصي به الإنسانُ هو الولاية لأهلِ البيت عليهم السلام،

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.
(٢) سورة البقرة، آية ١٨٠.
(٣) ميزان الحكمة، ج٤ ص٣٥٥٠.

فلاحظوا أنّ آخرَ ما أوصى به النبيّ محمد ﷺ هو الولاية لعليّ بن أبي طالب عليه السلام. ومن الأمور التي على الإنسان أن يلحظَها في وصيّته: حقوقُ الله عزّ وجل وأهل البيت عليهم السلام والنّاس الموالين، فلا ينبغي أن نتركَ لأحدٍ حقًا أو أمانةً في أعناقِنا. يُقال إنّ أحدَهم رأى في عالمِ الرؤيا شهيدًا فاستخبرَه عن حاله، فأخبرَه أنّه قطعَ المراحلَ كلّها غير أنّه بقيَ له عقبةٌ لم يستطعِ اجتيازَها بسببِ تفريطِه بحقِّ أحدِ الأشخاص، وهو إنْ لم يسامِحْه، سيبقى يراوحُ مكانَه إلى يومِ القيامة. كما ينبغي أن يلحظَ الإنسانُ في وصيّتِه ما يتوجّبُ عليه لجهةِ صلاتِه وصومِه وحجِّه وما إلى ذلك، ولْنحرِصْ على ألّا نرهنَ أنفسَنا بالآخرين، وألّا ننتظرَ من أحدٍ شيئًا، حتى ولو كان مجرّدَ زيارةٍ لقبرنا وقراءةِ الفاتحة عنده؛ بل يجب أن نقومَ نحن بما يكفلُ لنا دوامَ الأجرِ حتى بعد رحيلِنا عن هذه الدنيا، وهو ما يُسمّى بالصّدقةِ الجارية، كبناءِ حسينيةٍ أو مسجدٍ أو هدايةِ أحدٍ للإيمان أو المشاركةِ في إعدادِ أو نشرِ الكتبِ الولائيّة. وما دُمْنا نتمتّعُ بالقدرة، علينا أن نقومَ بقضاءِ كلِّ فريضةٍ فاتَتْنا من صلاةٍ أو صومٍ أو غير ذلك، لأنّ هذا العملَ لن يؤدّيَه غيرُنا، حتى وإنْ كانوا أولادَنا، إذ قالَ رجلٌ للإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه: «أوصِني»، فقال عليه السلام: **«أعِدَّ جهازَك، وقدّمْ زادَك لطولِ سفرك، وكُنْ وصيَّ نفسِك، ولا تأمَنْ غيرَك أن يبعثَ إليك بما يُصلِحُك»**[1].

إنّ أمامَنا عقبةً كؤودًا ومنازلَ مَخوفةً مَهولةً لا بدّ من الورودِ عليها والوقوفِ عندها، فكنْ وصيَّ نفسَك كما قال لك مولاكَ الإمامُ الصادق عليه السلام، واحرصْ على عدمِ التقصير بأيٍّ من الواجباتِ والحقوقِ المفروضةِ عليك، فما يُقصّرُ فيه الإنسانُ بدنياه سيقفُ حائلًا يمنعُه من

(١) أمالي الصدوق، ص٢٨١ مجلس٤٧ ح ١٢.

العبورِ إلى البرزخ، سواء كان هذا التقصيرُ في الصلاةِ أو الصوم أو الخُمس أو الزّكاة، أو في حقٍ من حقوقِ الله تعالى أو أهلِ البيت عليهم السلام أو الناسِ من استغابةٍ أو كذبٍ أو فتنةٍ أو سرقة أو غير ذلك، فكلُّ هذه الأمور تقفُ سدًا في وجهِ الإنسان حين الموت. والأهمّ، كما ذكرنا، أن تفكّرَ بالعمل الذي ينبغي أن تقومَ به ليكونَ صدقةً جاريةً في حياتِك وبعدَ موتك.

أما بالنسبة للمسألةِ الثانية وهي العديلة، فقد ورد في الدّعاء: «اللّهمّ إنّي أعوذُ بك من العديلةِ عند الموت»[1]، فهذا الدعاء يبيّنُ أن الإنسانَ قد يعدلُ قبيلَ موتِه من الحقِّ إلى الباطل؛ و«أعوذ بك» يعني ألوذُ وأستعينُ وأستغيثُ بك يا ربّي عند الموتِ من العديلة، أي من أنْ أعدلَ من الحقِّ إلى الباطل. تقول الروايات إنّ الشيطانَ يأتي عند الإنسانِ في لحظاتِ احتضارِه ويوسوسُ له حتى يجعلَه يشكُّ في دينِه ويخرجُ عن إيمانه، وهذه هي العديلة. غير أنّ ما لا يلتفتُ إليه الكثيرون هو أنّ العديلةَ لا تكونُ عند موتِ الجسد فقط بل تكونُ أيضًا عند موتِ القلب. ولهذا حثَّ أهلُ البيت عليهم السلام شيعتَهم على إبقاءِ قلوبِهم حيّة، ولكن، كيف يكون ذلك؟ قال الإمام الرضا عليه السلام: «مَن تذكّرَ مصابَنا فبكى وأبكى، لم تبكِ عينُه يومَ تبكي العيون، ومَن جلسَ مجلسًا يُحيى فيه أمرُنا، لم يَمُت قلبُه يومَ تموتُ القلوب»[2]. وكذلك قال إمامنا الصادق عليه السلام: «... إنّ تلك المجالسَ أحبُّها، أحيوا أمرَنا فرحمَ الله مَن أحيا أمرَنا فإنّ مَن جلسَ مجلسًا يُحيى فيه أمرُنا لم يمُت قلبُه يومَ تموتُ القلوب»[3].

إذًا، إنّ وقوعَ العديلةِ ليس مشروطًا فقط بلحظاتِ ما قبل الموتِ

(١) بحار الأنوار، ج٩٥ ص٣٨١.
(٢) العيون، ص ٢٠٠.
(٣) وسائل للشيعة، ج١ باب ٦٦.

الجسدي الطبيعيّ، بل إنّها قد تتحقّقُ بموتِ القلب، حتّى وإنْ بقيَ الجسدُ حيًّا. فالعديلةُ يمكن أن تحدثَ عند أيّ امتحانٍ أو ابتلاء أو افتتان يقعُ فيه الإنسانُ الموالي أو أيّ إنسان بشكل عام، لأنّ البلاءَ يشبهُ في بعضِ ظروفِه الموت، حيث يحضرُ الشيطانُ عند المبتلى ويوسوسُ له ويُفقدُه القدرةَ على التفكيرِ ويُنسيه كلَّ شيءٍ حتّى ربّه فيشكّكُه في الله وأهلِ البيت وقد يُخرجُه عن دينِه وإيمانِه وولايتِه نتيجةً لذلك، فيموتُ قلبه، وهكذا يعدلُ من الحقِّ إلى الباطل. ولهذا وردَ في الأدعية: «اللّهم يا أرحمَ الراحمين إنّي قد أودعتُكَ يقيني هذا وثباتَ ديني وأنتَ خيرُ مُستودَعٍ وقد أمرْتَنا بحفظِ الودائعِ فرُدَّه عليَّ وقتَ حضور موتي»[1]. يحتاج هذا الأمرُ إلى تفكّرٍ وتمعّنٍ وتدبّرٍ لأنّه إذا لم يُوفَّقِ الإنسانُ لفهمِ هذه المعارفِ واللّطائفِ والحِكَم، لن يستطيعَ أن يخرجَ سالمًا من هذه المسألةِ عندما يقع فيها. وإذا أمعنّا النظر، فسنرى أنّ الموتَ ليس ببعيدٍ عنّا، لأنّ الإنسانَ مرهونٌ بأنفاسِه، فالله عزّ وجل يُحييه ويُميته في كلِّ لحظة، ولكن عندما تنقطعُ الأنفاسُ يموتُ الإنسانُ بشكلٍ نهائيّ.

إذًا، الموتُ نوعان: موتُ الجسد وموتُ القلب. في الأوّل، يحضرُ خطرُ العديلة، أمّا في الثاني، فمجرّدُ تحقّقِه يعني أنّ العديلةَ قد وقعَت لأنّ القلبَ إنّما يموت لأنّه يعدلُ من الحقِّ إلى الباطلِ فعندما يموتُ قلبُ الإنسان، ينسى حبَّ الله وحبَّ أهلِ البيت عليهم السلام، لا بل يصبحُ عدوًا لهم من حيثُ لا يدري.

نجد في التاريخ الكثيرَ من النماذجِ على رجالٍ كبار ماتَتْ قلوبُهم حينما عدَلوا من الحقّ إلى الباطل. قال الإمام عليّ عليه السلام: «ما زال الزبير رجلًا منّا أهل البيت حتى نشأ ابنُه المشؤوم عبدالله»[2]، الزُّبير كان من صحابةِ

(١) منازل الآخرة والمطالب الفاخرة، ص١١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج٢ ص١٦٧.

النبيّ ﷺ، وقد وصلَ به الأمرُ إلى أنْ سَحَبَ سيفَه على الثاني لعنه الله عند واقعةِ الدار، ولكنّه حين وُلِد ابنه عبدالله، غرِقَ في حبِّه الذي كان حبًّا للدنيا، ولأنّه أخرجَ الحبّ الأصليّ، أي حبَّ أهل البيت عليهم السلام، من قلبه، عدَل من الحقّ إلى الباطل. وهكذا، يتبيّنُ لنا أنّ من أسبابِ موتِ القلب والوقوعِ في العديلة، أن نُدخِلَ إلى قلوبنا ونحبَّ أيًّا كان ونحصرَ كلّ الوجودِ به حتى نصبحَ عبيدًا له ومُنصاعين إليه، ونغفلُ بذلك عن الله تعالى وحقوقِه علينا. ومن هنا، علينا أن نحذرَ من أيِّ محبةٍ خاليةٍ من الله تعالى، فالقلبُ هو الأساس، ومَن نختارُه لنُسكنَه فيه، سيُوجّهنا إلى حيث يريد، فإنْ كان من أهل الله، سيوجّهُنا إلى الله، وإنْ كان من أهل الدنيا، سيوجّهُنا إلى الدنيا وسيجعلُنا نعدلُ في نهايةِ المطاف.

ويُعتبر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله نموذجًا آخرَ على موتِ القلب، فهو قد عدلَ من الحقّ إلى الباطل وقتلَ أمير المؤمنين عليه السلام بسبب حبِّه لامرأةٍ تسمّى قطام، فسُمِّيَ أشقى الآخرين. إذًا مَن هو الشقيّ بناءً على هذا؟ إن الشقيّ هو الذي يؤدّي كلَّ المناسكِ العباديّةِ ولكنّه غيرُ مستعدٍّ بباطنه لأن يخضعَ لمَن أمَرَ الله عزّ وجل بالخضوع له كإبليس الذي أُمِرَ بالسجود لآدم عليه السلام ولم يسجد، والمسلمون الذين أُمِروا بالخضوع لولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولم يخضعوا وكالذي أُمِرَ بطاعة الوالدين ولا يطيعُهما والزوجة التي أُمِرَت بطاعة زوجِها ولا تطيعه... وكذلك من الشخصيات التي عدلت من الحقّ إلى الباطل عمر بن سعد، فحبُّ المال والرئاسة جعله يرتدّ ويقتل الحسين بن عليّ صلوات الله وسلامه عليهما، حيث قال ليزيد لعنه الله: «إملأ ركابي فضةً أو ذهبًا إنّي قتلْتُ الفارسَ المحجبا، قتلتُ خيرَ النّاس أمًّا وأبًا»[1]. وكذلك فإنّ حبَّ الرئاسةِ والكرسيّ هو الذي جعلَ

(١) العقد الفريد، ج٤ ص٣٨١.

الثاني لعنه الله يفعلُ ما فعلَه بالسيدة الزهراء وبأمير المؤمنين عليهما السلام. وللإشارة، كلُّ مَن يُدخلُ حبَّ الرئاسةِ والحكمِ إلى قلبه، ويصل إلى منصبٍ ما، فإنّ أولَ ما يقوم به هو ظلمُ السيدة الزهراء عليها السلام حقَّها وإنكارُ مظلوميّتِها والتقليلُ من شأنِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، تمثُّلًا بما قام به الثاني لعنه الله.

فلينظرْ كلُّ إنسانٍ إلى قلبِه ويرى مَن يحبّ ولماذا يحبّه، وعندها سيعلم إذا كان سيثبتُ مع إمامِ زمانه أو سيعدل عنه، لأنّ أيّ حبٍّ ليس لله، سيعدلُ صاحبُه حتمًا من الحقّ إلى الباطل.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»[1]، فمنشأُ كلِّ شرٍّ في العالمِ هو هذا الحبّ. وما ينبغي لفتُ النظرِ إليه هو أنّ كلَّ محبّةٍ في قِبال محبةِ الله ورسولِه وأهلِ بيته عليهم الصلاة والسلام هي حبٌّ للدنيا حتى لو كانت حلالًا. فإذا كان يحبُّ المالَ أو السيارة أو الأرض أو البيت أو الشهوة أو النساء أو الرئاسة أو المنصب، فقد يأتي يومٌ يقتل فيه لأجلِ هـــذه الأمـــور، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

يقول الإمام الحسين سلام الله عليه: «موتٌ في عزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلّ»[3]، فالإنسانُ يعيشُ مرةً واحدة ويموتُ مرة واحدة، فلمَ لا يموتُ شريفًا؟ لكن إذا كان قلبُه مرتعًا للشهواتِ والأهواء وحبِّ الدنيا، فمِن أين يأتي بالبأسِ والقدرةِ والقوّةِ في لحظاتِ الموت؟

---

(١) الكافي، ج ٢ ص ١٣٦.

(٢) سورة التوبة، آية ٢٤.

(٣) بحار الأنوار، ج٤٤ ص ١٩٢.

كُثُرٌ كانوا مع رسول الله ﷺ ومع أمير المؤمنين عليه السلام ولكنّهم انقلبوا على أعقابِهم. وتلك التي خاضت حربًا ضدّ إمامِ زمانها وجعلت في ذمّتها دماءَ خمسٍ وعشرين ألف رجلًا من المسلمين، عدلَتْ من الحقِّ إلى الباطل، حتى أنّه من غير المعلوم إنْ كانت قد عرفت الحقَّ أصلًا مع اللعينيْن الأول والثاني، إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «والله ما دخلَ قلبُ أحدِهما شيءٌ من الإيمان»[1]، فمَن كان يظنّ أنّ الإيمانَ قد دخلَ إلى قلوبِهم مقدارَ ذرّةٍ واحدة ليس إلا ساذجًا!

إنّنا نسمع بالزّبير لكنّنا لا نعتبرُ أنفسَنا زبيريّين، ونسمع بعبد الرحمن بن ملجم وعمر بن سعد وبجعدة وأمثالهم عليهم لعائن الله، ولكننا لا نعتبرُ أنّنا قد نكون مثلَهم أو نفعل ما فعلوا، فهلّا نظرْنَا إلى أنفسِنا وقلوبِنا وعرفنا بما هي متعلّقة؟ وهل هذا التعلّقُ سيُخرجُنا عن الإيمانِ والولايةِ ويجعلُنا نعدلُ من الحقّ إلى الباطل؟! إنّنا لا نلتفتُ إلى ذلك بسببِ الغرورِ والكبرياء وعدمِ مراقبة النفس في حين أنّ أولياءَ الله لا يراقبونَ أنفسَهم فحسب، بل يراقبون حتى أنفاسَهم وإذا لم يكن كلُّ نفس يتنفّسونه لله وفي الله وإلى الله، يعاقبون أنفسَهم عليه.

هل نثقُ بأنّ إيمانَنا لن يتلاشى عند أيّ بلاء؟ أنحن واثقون من أنّنا سنثبت؟ لن يعرفَ الإنسانُ قيمةَ دعاء: «إلهي ثبّتْ قلبي على دينِك ما أحييتني ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني» إلاّ عندما يرى أخلصَ الخُلَّصِ وأحبَّ الناسِ إليه ومَن يعتبرُهم أكثرَ الناس ولاءً لأهلِ البيت عليهم السلام، قد سقطوا وعدلوا، فعندها فقط يخافُ على نفسِه من السقوطِ والعدولِ ويدعو بهذا الدعاءِ من صميمِ قلبه.

ينبغي على الإنسانِ أن يُراعي اللهَ عزّ وجل وأهلَ البيت عليهم السلام في مَن

(١) الكافي، ج٨ ص١٢٤ ح٩٥.

يُدخلُه إلى قلبه، فيحبُّ مَن يحبُّهم ويتركُ مَن لا يحبّهم، وبخلافِ ذلك سيُشرِكُ حبَّ غيرهم مع حبّهم وهذا ما لا يرضونه، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يقول الله تعالى: مَن عمِلَ عملًا أشركَ فيه غيري فهو له كلّه وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياءِ عن الشرك»[١] وعن الصادق عليه السلام قال: «قال الله تعالى: أنا خيرُ شريك، مَن أشركَ معي غيري في عملٍ عملَه لم أقبلْه إلا ما كان لي خالصًا»[٢]. فإذا رأى الله عزّ وجل وأهلُ البيت عليهم السلام أنّ الموالي بدأ يحبُّ غيرَهم سوف يعطونه لهذا الغير، وإذا بدأ يشكُّ ويعدلُ عن الحقّ، لا يلومَنَّ إلا نفسه. وحتّى إذا أحبَّ الموالي مَن يحبُّ اللهَ وأهلَ البيت عليهم السلام، عليه أن لا يعطيه منزلةً مساويةً لمنزلةِ الله وأهلِ البيتِ في قلبه، لأنّ كلَّ إنسانٍ هو عُرضةٌ للخطأ والزّلل. فبعضُ الناس يُعظّمون أشخاصًا إلى درجة أنهم إذا سقطوا يومًا ما، يسقطون معهم. وكثيرٌ من الناسِ خُدِعوا بالمقرّبين ظاهريًا من رسول الله ﷺ، كالأول والثاني والثالث لعنهم الله، وتعلّقُوا بهم فسقطوا معهم فيما بعد.

إذًا، على الإنسانِ أن لا يخافَ فقط عند حلولِ موتِ البدنِ الطبيعيّ بل عليه أن يخافَ أيضًا من موتِ القلبِ الذي قد يسبق موتَ البدن وقد يحدثُ موتُ القلب إما فجأةً أو تدريجيًا. ألا يُقال إنّ فلانًا توقّفَ قلبُه فجأة؟ وكذلك الحالُ في موتِ القلبِ المعنويّ، حيث من الممكن أن يكون القلبُ نابضًا بالحبّ والعشق الولائيّ، ولكن فجأةً يتوقّفُ هذا العشق، فينتهي قلبُه ويموت، «وقد أماتَ قلبي عظيمُ جنايتي»[٣] كما ورد في الدعاء. وإنّ استغراقَ الإنسانِ في هذه الدنيا يُنسيه ربَّه، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٤]،

(١) جامع السعادات، ج٢ ص٣٧٦.
(٢) الكافي، ج٢ ص٢٩٥.
(٣) مناجاة التائبين للامام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية.
(٤) سورة الحشر، آية ١٩.

فيموت قلبُه من دونِ أن يشعر، وأبرزُ علاماتِ القلب المهدَّدِ بالموتِ أنّه لا يتأثّرُ إذا سمعَ باسم الله، ولا يستأنسُ إذا صلّى، ويستوحشُ إذا قرأَ القرآن، ولا يُقبِل على قراءةِ الأدعية، حتى أنّه لا يفكّرُ بزيارة أضرحةِ أهلِ البيت عليهم السلام ولا حتّى زيارة الحسين بن عليّ، فيصيرُ ذا عزيمةٍ ضعيفةٍ وإرادةٍ هشّةٍ ويأسٍ وإحباطٍ وخمول، وهكذا يموتُ قلبُه شيئًا فشيئًا، ويبدأ بالعدول، حتى إذا ماتَ قلبُه بالكامل، عَدَل بالكامل، لأنّ العدولَ مراتبُ ودرجات. كُثرٌ من الناس كانوا مع الحقّ وأصبحوا مع الباطل، فباتوا ضدّ المصلّين والصائمين بعد أن كانوا منهم، وصاروا نقمةً على الموالين بعد أن كانوا في صفّهم، وانكبّوا على انتقادِ رواياتِ أهل البيت عليهم السلام والتقليلِ من شأنِهم بعد أن كانوا من مُحبّيهم، وكلُّ هذه الأمور دلالةٌ على موتِ القلب، وفي الحقيقة، لا يوجد ما هو أعظمُ من هذا البلاءِ الذي قد يُبتلى به الإنسان، إذ لمّا سُئِل أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أيُّ المصائبِ أشدّ؟ قال: «المصيبةُ بالدّين»[1].

إنّ من بركاتِ الجلوسِ في عزاء الحسين بن علي عليه السلام أنّه يُحيي القلوبَ ويدرأُ عنها الموت، وإلّا إذا ماتَ القلب، فحتّى عزاءُ الحسين بن عليّ يصبح نقمةً على صاحبِ القلبِ الميّت، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[2]. لهذا، علينا أن نبحثَ عمّا يثبّتُنا ويمنعُنا من السّير وراءَ الدنيا ووراءَ أنفسنا ويُنجينا من البلاءاتِ والأمراضِ المعنويّة، لأنّ هناك أمراضًا اذا ما فتكَتْ بنا، والعياذُ بالله، سنتمنى لو أنّ مرضَ السرطانِ أصابَنا بدلًا منها. ولا يظنّنَ أحدٌ أنه بعيدٌ عن الإمتحانِ

(١) معاني الأخبار، ص١٩٧.
(٢) سورة الإسراء، آية ٨٢.

والإبتلاءِ والعديلةِ فالبلاءاتُ تصيبُ الجميعَ من دونِ استثناء، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[١].

ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَن زارني على بُعدِ داري أتيتُه يومَ القيامة في ثلاثِ مواطن حتّى أخلِّصَه من أهوالِها: إذا تطايرَتِ الكتبُ يمينًا وشمالًا، وعند الصراط، وعند الميزان»[٢]، ماذا يعني تطايرُ الكتب؟ تطايرُ الكتب يعني تطايرُ القلوبِ عند الفتنة والبلاء، فلا يدري صاحبُ هذا القلبِ المتطايرِ مع مَن هو. وهنا يأتي دورُ علي بن موسى الرضا عليه السلام، حيث يثبّتُ زائرَه ومُحِبَّه وينقذُه من العديلة.

ولقد وضع الله تعالى بين أيدينا سلاحًا فعّالًا وهو الدعاء. فللأمنِ من العديلة، ذكَر لنا أئمّتُنا عليهم السلام أعمالًا وأدعيةً يُستحبُّ قراءتُها والمواظبةُ عليها، منها: «إلهي ثبّت قلبي على دينِك ما أحييتني ولا تزغْ قلبي بعد إذ هديتني»، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[٣]. إضافةً إلى المواظبةِ على تسبيحِ مولاتنا الصدّيقة الطّاهرة فاطمة الزّكيّة سلام الله عليها، والتختّمِ بالعقيقِ وخصوصًا العقيق الأحمر إذا كان قد نُقشَ عليه محمدٌ نبيُّ الله وعليٌّ وليُّ الله، وأيضًا قراءة سورة «المؤمنون» في كلّ جمعة، وأن يُقرأ بعدَ صلاةِ الصبح وصلاةِ المغرب سبعَ مرات: «بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم». وينبغي أن يدعو الانسانُ بقلبٍ صادقٍ وتوجّهٍ خالص. غير أنّ ما ينبغي معرفتُه أنّ هذه الأعمالَ تنفعُ في حالٍ كان الأصلُ متينًا وثابتًا، لأنّها مجرّدُ فروعٍ للأصل الذي هو التوحيد والولاية، فإذا ما حافَظْنا على بقائنا في حرمِ الولاية فإنّها

(١) سورة مريم، آية ٧١.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٩ ص٣٤.
(٣) سورة آل عمران، آية ٨.

ستكونُ حصنًا حصينًا لنا، أَلَا يقول الحديث القدسيّ: «وَلايةُ عليّ بن أبي طالب حصني، فمَن دخلَ حصني أمِنَ من عذابي»[١]؟

علينا أن نُربّي أولادَنا على محبّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، تحديدًا، وعلى محبّةِ وخدمةِ الموالين له، وبهذا يأمَنون من غوايةِ إبليس وغوايةِ الدنيا ومَكرها، وإلاّ فإنّه سيأتي يومٌ يعدلون فيه من الحقِّ إلى الباطل، سواء عند البلاء والامتحان أو عند الموت الطبيعي. فعليٌّ عليه السلام هو الحقّ ومع الحقّ ومَن يكون معه لا يمكن أن يعدلَ من الحقّ إلى الباطل. ومن أسبابِ نزولِ العذابِ الإلهي على الخلقِ هو البُعدُ عن عليّ عليه السلام وكتمانُ فضائله، إذ وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يعذّبُ اللهُ هذا الخلقَ إلا بذنوبِ العلماء الذين يكتمونَ الحقَّ من فضلِ عليّ وعترتِه عليهم السلام، ألا إنّه لم يمشِ فوقَ الأرضِ بعد النّبيين والمرسلين أفضلُ من شيعةِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام...»[٢]. فحبُّ الدنيا والمالِ وكذلك خيانةُ أهلِ الولاية عذابٌ من الله تعالى، بسبب كتمانِ فضائلِ أميرِ المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، ولو أحبَّ الإنسانُ عليًا عليه السلام، لمَا أمْكَنَه أن يخونَ أو يعدلَ من الحقِّ إلى الباطل، أو تصدر عنه ذنوبٌ تؤدّي به إلى العديلة.

إذًا، علينا أن نُلَمْلِمَ شَمْلَنا بعشق عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فهو حصنُنا. وعلى الإنسان أن يُثبّتَ قلبَه ويُثبّتَ الآخرين على الولاية، وهكذا، عندما يرانا الأعداء، من الإنسِ والشياطين، ثابتِي الجأشِ غيرَ خائفين ولا خاشِين، سيخافون منّا ولن يجرؤوا على إغوائنا. وينبغي أن لا ننسى أنّنا في عصرِ الظهور، عصرِ الفتن والمِحن، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «هيهاتَ هيهات لا يكون فَرَجُنا حتى تغربلوا ثم تغربلوا ثم تغربلوا يقولها

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١ ص١٤٦.

(٢) الدمعة السّاكبة، ص٨٢.

ثلاثًا حتى يذهبَ الكدرُ ويبقى الصفو»[١]، لذا، فلنُعِدَّ العدّةَ لذلك، ولا نكون كأهل الكوفة الذين عَدَلوا من الحقّ إلى الباطل، وخَذَلوا الإمامَ الحسين عليه السلام وقاتلوه بأيديهم وألسِنَتِهم.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) بحار الأنوار، ج ٥٢ ص١١٣.

البلاء للتمحيص والولاء

يقول الله تعالى في كتابِه العزيز الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] صدق الله العليّ العظيم. يتعرّضُ الإنسانُ في أيّامِ حياتِه للامتحاناتِ والبلاءاتِ والمِحَن، فهذه الدنيا، كما وردَ في الأحاديث الشريفة، محفوفةٌ بالفِتنِ والمكارهِ والمصائبِ والامتحانات. وتُبيّنُ هذه الآيةُ المباركة الغرضَ من وراءِ كلِّ هذه الفتن؛ فالأمرُ ليس كما يظنُّ البعضُ أنّ البلاءات التي تنزلُ على الإنسانِ تكون دائمًا بسببِ ذنوبِه ومعاصيه، إذ وردَ عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «سُئلَ رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن أشدُّ الناسِ بلاءً في الدّنيا؟ فقال: النبيّون ثمّ الأمثلُ فالأمثل، ويُبتلى المؤمنُ بعد على قدرِ إيمانِه وحسنِ أعمالِه فمَن صحَّ إيمانُه وحَسُنَ عملُه، اشتدَّ بلاؤُه ومَن سَخُفَ إيمانُه وضعفَ عملُه قلَّ بلاؤه»[2]. إذًا، كلّما ازدادَ الشخصُ إيمانًا ومحبّةً لله، زيدَ في بلائِه.

عن أميرِ المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ البلاءَ للظالمِ أدبٌ، وللمؤمنِ امتحان، وللأنبياءِ درجة، وللأولياءِ كرامة»[3]. البلاءُ حكمةٌ إلهيةٌ يختلفُ هدفُها من شخصٍ لآخر، فقد يكونُ كفّارةً عن ذنبٍ أو تأديبًا أو زيادةً في الدّرجات.

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٢.

(٢) الكافي، ج٢ ص١٩٦.

(٣) جامع الأخبار، ١٣٢.

لهذا ينبغي عندما ينزلُ البلاءُ أن ندركَ سببَه وأساسَه وأن نُقابلَه بالصبر، فالإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنْ أصابَكُم تمحيصٌ فاصبروا، فإنّ الله يبتلي المؤمنين»[١].

وقد كان الأنبياءُ المعصومون يُبتلون بالبلاءاتِ الجسديّةِ وليس المعنوية فحسب، وفي هذا الأمرِ «دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الأنبياءَ والأوصياءَ عليهم السلام في الأمراضِ الحسيّةِ والبلايا الجسمية كَغيرِهم بل هم أوْلى بها من الغيرِ تعظيمًا لأجْرِهم الذي يوجِبُ التفاضُلَ في الدّرجاتِ ولا يقدحُ ذلك في رُتبتِهم بل هو تثبيتٌ لأمرهم... كما كان النبي أيوب والمؤمنُ حبيب النجار مُبتلَيَيْن. وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في ابتلاءِ النبيّ أيوب عليه السلام: فمِن ذلك ما روي... عن أبي عبدالله عليه السلام في حديثٍ طويل قال: «فسلّطَهُ على بدنِه ما خلا عقلَه وعينيه فنفخَ فيه إبليسُ فصارَ قرحةً واحدةً من قَرنِه إلى قدمِه فبقيَ في ذلك دهرًا طويلًا يحمدُ اللهَ ويشكرُه حتى وقعَ في بدنِه الدّودُ وكانَتْ تخرجُ من بدنِه فيردُّها ويقول لها: إرجعي إلى موضعِكِ الذي خلقَكِ اللهُ منه ونَتِنَ حتى أخرجَهُ أهلُ القريةِ من القريةِ وألقوه في المزبلةِ خارجِ القرية»[٢]. إلا أنّ الأنبياء أُولي العَزْم والأئمة عليهم السلام لا يبتلون بالأمراض الجسديّة المنفّرة.

وإنّ أجملَ ما قد يُصَبِّر الإنسانُ به نفسَه عند الإمتحانِ هو حديثُ رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول فيه: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبدًا إبتَلاهُ بِعَظيمِ البَلاءِ، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ عِندَ اللهِ الرِّضى، ومَن سَخَطَ البَلاءَ فَلَهُ عِندَ اللهِ السَّخَطُ»[٣]، كما قال إمامنا الباقر عليه السلام: «إذا أحبَّ الله عبدًا غتّه بالبلاء غتًّا»[٤]، فكَم

(١) بحار الأنوار، ج٦٧ ص١٤٠.
(٢) الأربعون حديثًا، السيد روح الله الخميني، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٣) الكافي، ج٢ ص ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه.

مِن الكربِ والبلاءِ نزلَ بساحةِ الحسين بن عليّ عليه السلام في يومٍ واحد! وهو ما لا نستطيعُ أن نتحمّلَ ولو مقدارًا يسيرًا منه إنْ وقعَ علينا على امتدادِ حياتِنا كلّها.

وفي روايةٍ عن إمامِنا الصّادق عليه السلام يقول: «إنّ فيما أوحى اللهُ عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران! ما خلقْتُ خلقًا أحبَّ إليّ من عبدي المؤمن، فإنّي إنّما أبتليه لما هو خيرٌ له، وأعافيه لما هو خيرٌ له، وأزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خيرٌ له، وأنا أعلمُ بما يصلحُ عليه عبدي، فليصبرْ على بلائي، وليشكرْ نعمائي، وليرضَ بقضائي، أكتبْه في الصدّيقين عندي، إذا عملَ برضائي، وأطاعَ أمري»[1]، ولكنّ المشكلةَ أنّنا لا نثقُ بالله عندما يبتلينا ولا نُحسِن الظنَّ به، وكما وردَ عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرّضا بمكروهِ القضاءِ أرفعُ درجاتِ اليقين»[2]، وحيث أنّنا نفتقدُ اليقينَ في قلوبِنا، نسخطُ على اللهِ عزّ وجلّ بدلَ الرّضا بقضائِه.

«وأعافيه لما هو خيرٌ له وأَزْوي عنه ما هو شرٌّ له لما هو خيرٌ له»، فعلى العبدِ أن يعلمَ أنّه إذا أبْعَدَ اللهُ عنه رزقًا مُعيّنًا، فإنّ في ذلك مصلحتَه. «وأنا أعلمُ بما يصلحُ عليه عبدي»، فبعضُ الناسِ لا يرجعُ إلى الله عزّ وجل إلّا أوقات البلاء، ولا يتكلّم معه ولا يدعوه ولا يقرأُ القرآنَ ولا يخشعُ له إلا في هذه الأوقات، ولذلك يبقى واقعًا في البلاءِ كلَّ حياتِه، فالله أعلمُ بنفوسِ عبادِه ولا يفعلُ بهم إلا ما يراه الأنسبَ والأفضلَ لهم. ولكنّ الإنسان، مع ذلك، يسخطُ ويعترضُ على الله عزّ وجلّ ويتكلّمُ معه بقلّةِ أدب!

«فليصبرْ على بلائي وليشكرْ نعمائي وليرضَ بقضائي أكتبْه في الصّدّيقين

(١) الكافي، ج٢ ص٦١.
(٢) تحف العقول، ص٢٠٠.

عندي إذا عملَ برضائي وأطاع أمري»، علينا أن نرضى بقضاءِ الله عزّ وجلّ، لأنّنا إنْ رَضيْنا، رضِيَ الله عنّا، وإنْ جزعْنا وسخطْنا، سخطَ الله عزّ وجلّ علينا. وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ الصبرَ والبلاءَ يستَبِقان إلى المؤمن فيأتيه البلاءُ وهو صبور، وإنّ الجزعَ والبلاءَ يستَبِقان إلى الكافرِ فيأتيه البلاءُ وهو جَزُوع»[1]. والحريُّ بنا أن نتفكّرَ قليلًا بهذه الروايات. والجديرُ ذكرُه أنّ الإنسانَ يسمعُ من صغرِه كلمةَ «الله أكبر» ولكنّه لا يتفكّرُ فيها، فماذا تعني هذه العبارة؟ تعني أنّ اللهَ أكبرُ من أنْ يوصفَ ومن أن يُعرف، وهو أكبرُ من كلِّ بلاءٍ ومُصيبةٍ وامتحان، فينبغي أن تكون محبةُ الله عزّ وجلّ في وجودِنا أكبرَ من كلّ شيء ومن أيّ شيء.

يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «وإنّ العبدَ المؤمنَ ليكون له عند الله درجةٌ لا يبلغُها بعمله، فيبتليه الله في جسدِه، أو يُصابُ بمالِه، أو يُصابُ في ولده، فإنْ هو صبرَ بلّغَهُ الله عزّ وجل إيّاها»[2]، فبالصبرِ على المكروه، يبلغُ درجتَه التي أرادَها الله له. وعنه عليه السلام أنّه قال: «ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مُبتلى ببلاءٍ منتظرٌ به ما هو أشدّ منه، فإنْ صَبرَ على البليّةِ التي هو فيها عافاه اللهُ من البلاءِ الذي يُنتظَر به، وإنْ لم يصبرْ وجزعَ نزلَ به من البلاءِ المُنتظرِ أبدًا حتى يُحسنَ صبرَه وعزاءَه»[3]، معنى ذلك أنّ مَن لا يصبرُ على البلاءِ الذي هو فيه، يُبتلى ببلاءٍ أكبرَ منه حتى يُحسِنَ صبرَه ويُسَلِّم أمرَه لله، وحينها سيرى كيف يغيّرُ اللهُ عزّ وجلّ حالَه ويُبدّلُه، قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾، فالبلاءُ للولاء. وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «رسول الله صلى الله عليه وآله كان قوتُه الشّعير وحلواه التّمر إذا وَجَدَه ووقوده السّعف،

(١) الكافي، ج٣ ص٢٢٣.
(٢) جواهر البحار، ج٦٨ ص٩٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٧١ ص٩٤؛ المستدرك، ج١ ص١٣٩.

وإذا أُصِبْتَ بمصيبةٍ فاذْكُر مصابَك برسول الله ﷺ فإنّ الناس لن يُصَابوا بمثله أبدًا»[١].

كما قال ﷺ: «لا تزالُ الغمومُ والهمومُ بالمؤمنِ حتى لا تدعَ له ذنبًا»[٢]، وعلى الإنسانِ أن يكون مسرورًا لذلك. كما يُنقَل عن عبدالله بن أبي يعفور أنّه قال: «شكوتُ إلى أبي عبدالله ﷺ ما ألقى من الأوجاعِ فقال لي: يا عبدالله، لو يعلمُ المؤمنُ ما له من الأجرِ في المصائب، لتمنّى أن يقرّضَ بالمقاريض»[٣]، وهذا ما قالَه وتمنّاه أصحابُ سيّدِ الشهداء ليلةَ العاشرِ من المحرم، حيث يُنقلُ عنهم قولهم: «والله لوددْتُ أنّي قُتلتُ ثمّ نُشرْتُ ثمّ قُتلْتُ حتّى أُقتلَ هكذا ألف مرّة...» وكلُّ هذا لأنّ المُحِبَّ يريدُ أن يُثبتَ لمحبوبِه مدى عشقِه له، فجمالُ العشقِ يتجلّى في تحمّلِ المصاعبِ من أجلِ المعشوق، فطوبى لهؤلاءِ جهادُهم في سبيلِ محبوبِهم.

قال صادقُ آلِ محمّد ﷺ: «إنّ البلاءَ أسرعُ إلى شيعتِنا من السّيلِ إلى قرارِ الوادي»[٤]، وعن الإمامِ موسى الكاظم ﷺ قوله: «لن تكونوا مؤمنينَ حتّى تَعدُّوا البلاءَ نعمة، والرّخاءَ مصيبة، وذلك أنّ الصّبرَ عندَ البلاءِ أعظمُ من الغفلةِ عند الرخاء»[٥].

وإنْ كنّا قد توقّفْنا عند بعضِ أسبابِ البلاءات، فلْنُعرّجْ الآن على إحدى الآياتِ التي تُعرّفُنا على بعضِ أنواعِ البلاءاتِ التي يمتحنُنا بها الله عزّ وجل.

---

(١) أمالي المفيد، ص١٧٢.
(٢) جواهر البحار، ج٦٤ ص٢٤٢
(٣) الكافي، ج٢ ص١٩٨ح ١٥.
(٤) القطرة، ج١ ص١٥.
(٥) جامع الأخبار، ص٣١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] صدق الله العليّ العظيم.

تبيّن لنا هذه الآيةُ الكريمة جانبًا من البلاءاتِ الماديّةِ التي قد نتعرّضُ لها في حياتِنا وهي الخوفُ والجوعُ والفاقة. وهذا حالُ شيعةِ أمير المؤمنين عليه السلام على مرِّ العصورِ وحالُنا في غيبةِ إمامِنا عجل الله تعالى فرجه الشريف، فالخوفُ وفقدانُ الأمانِ مُرافقٌ لهم دومًا إضافةً إلى الجوعِ والنقصِ في الأموالِ أي الفقر. فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «بينما أميرُ المؤمنين عليه السلام يومًا جالسٌ في المسجدِ وأصحابُه حولَه، أتاه رجلٌ من شيعتِه فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الله يعلمُ أنّي أدينُ بحبِّكَ في السّرِّ كما أدينُ في العلانيّة، وأتولّاك في السّرِّ كما أتولّاك في العلانيّة، فقال له أميرُ المؤمنين عليه السلام: صَدَقْتَ، أمّا فاتخذْ للفقرِ جلبابًا، فإنّ الفقرَ أسرعُ إلى شيعتِنا من السّيلِ إلى قرارِ الوادي، قال: فولّى الرّجلُ وهو يبكي فرحًا لقولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام»[2]. كما قد يكون البلاءُ في الأنْفُسِ تأويلًا الأمراضَ النفسيّةَ، وفي الثمراتِ فَقْدَ الأعزّاءِ والأولادِ الذين هم ثمراتُ الأكباد. ثم بعد ذلك يقولُ عزّ وجلّ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الذين يرون اللهَ عزّ وجلّ في تلك اللحظاتِ ويتوجّهون إليه قائلين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

غير أنّ البلاءَ الأصعبَ والأعظمَ هو البلاءُ في الدّين، حيث ورد في الدعاء: «ولا تجعل مصيبتَنا في ديننا»[3] كما ورد أيضًا: «بسم الله على قلبي ونفسي، بسم الله على ديني وعقلي، بسم الله على أهلي ومالي، بسم

(١) سورة البقرة، آية ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) الكافي، ج١ ص٢٥٥.
(٣) شرح نهج البلاغة، ج٦ ص١٧٨.

الله على ما أعطاني ربي». وهذا البلاءُ يجري علينا جميعًا من دونِ استثناءٍ ولعلّه يجري بشكلٍ يوميٍّ ولكنّنا لا نلتفتُ إلى ذلك. فما هو البلاءُ في الدينِ؟ روى جابر الجعفي أنّه سألَ أبا جعفر عليه السلام عن تأويلِ قولِ الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، «قال: فتنفّسَ سيدي الصّعداء، ثم قال: يا جابر، أمّا السّنةُ فهي جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهورُها اثنا عشرَ شهرًا فهو أميرُ المؤمنين إليّ وإلى ابني جعفر وابنه موسى، وابنه عليّ، وابنه محمّد، وابنه عليّ، وإلى ابنه الحسن وإلى ابنه محمّد الهادي المهديّ اثنا عشر إمامًا حُجَجُ الله في خلقِه وأمناؤه على وحيِه وعلمِه، والأربعةُ الحُرُمُ الذين هم الدّين القيّم أربعةٌ منهم يخرجون باسمٍ واحد: عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، وأبي عليّ بن الحسين، وعلي بن موسى، وعلي بن محمد، فالإقرارُ بهؤلاء هو الدينُ القيّم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي قولوا بهم جميعًا تهتدوا»[2]، كما وردَ في إحدى زياراتِ أميرِ المؤمنين عليه السلام: «اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا دينَ اللهِ الْقَويمَ، وَصِراطَهُ الْمُسْتَقيمَ»[3]، ويقول أبو الفضل العباس عليه السلام: «إنّي أحامي أبدًا عن ديني»، فدينُ اللهِ الحقيقيّ هو عليّ بن أبي طالب ومحمّد بن عبدالله وفاطمة والحسن والحسين وصاحب الزمان وأهل البيت عليهم السلام أجمعين.

إذًا، أهلُ البيتِ عليهم السلام هم الدّين، وهم البابُ المُبتلى به الناس، فإمّا يكونون نقمةً على الإنسان، إذا كفرَ بهم وأنكرَ فضائلَهم ومناقبَهم، أو رحمةً له، إذا آمنَ بهم وأقرَّ بكلِّ مقاماتِهم. فعندما تُعرَضُ على الإنسانِ

(١) سورة التوبة، آية ٣٦.
(٢) غيبة الطوسي، ص١٠٤.
(٣) زيارة أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير، مفاتيح الجنان.

روايةً ولا يقبلُها ولا ينشرحُ صدرُه لقبولِها ويشكُّ بها أو يتذبذبُ أو يتتعتعُ في قبولِها، معنى ذلك أنّه ابتُلِيَ ببلاءٍ عظيم ونتائجُه غيرُ معلومة. وبحسبِ الرواية، فقد بقيَ نبيُّ اللهِ «ذا النون عليه السلام» في بطنِ الحوتِ فترةً من الزّمنِ لأنّه تتعتَعَ وتذبذَبَ للحظاتٍ في ولايةِ أميرِ المؤمنين عليه السلام. وكذلك فإنّ أصحابَ أميرِ المؤمنين عليه السلام عوقبوا لأنّهم تذبذبوا في أمرِ الولاية ولو للحظات، لذا فقد وردَ عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «إنّ حديثَنا صعبٌ مستصعب، شريفٌ كريم، ذكوانُ ذكيٌّ وعر، لا يحتملُه مَلَكٌ مُقَرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمنٌ ممتحن. قلت: فمَن يحتملُه، جعلْتُ فداك؟ قال: مَن شِئْنا يا أبا الصامت»[1]، وحديثُهم من أَمْرِهم عليهم السلام. قال أبو جعفر عليه السلام: «ارتدَّ الناسُ إلا ثلاثةَ نفر: سلمان وأبو ذرّ والمقداد، قال: قلت: فعمّار؟ قال: قد كان جاضَ جيضةً ثم رجع، ثم قال: إنْ أردتَ الذي لم يشكَّ ولم يدخلْه (شيء) فالمقداد، فأمّا سلمان: فإنه عرضَ في قلبه عارضٌ: إنّ عند أمير المؤمنين عليه السلام اسم الله الأعظم لو تكلّم به لأخذَتْهُم الأرضُ وهو هكذا، فلُبِّبَ ووُجِئَت عُنُقُه حتى تُرِكَت كالسّلعة، فمَرَّ به أميرُ المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبدالله! هذا من ذاك بايِعْ، فبايَع...»[2].

كما يقول الله تعالى: ﴿...وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3] فهذه البلاءاتُ تكشفُ باطنَ كلِّ واحدٍ منّا ومدى ثباتِ دينِنا في قلوبِنا.

وما دامَ الإنسانُ حريصًا على عدمِ تقصيرِه بحقوقِ الله عزّ وجلّ وأهلِ البيت عليهم السلام، وحتّى إخوانِه الموالين وكلِّ مَن له حقٌّ عليه، فسيبقى ثابتًا ولن تُزعْزِعَه البلاءات، لأنّ النّورَ لن يُفارقَ باطنَه وسيَحُولُ دونَ تسلّلِ الظُّلمةِ

(١) بحار الأنوار، ج٢ ص١٩٢ ح٣٤.
(٢) إختيار معرفة الرجال، ص١١ ـ ١٢.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

إليه. ولعلّ العاشقَ يرى أنّ مجرّدَ غيابِ إمامِ زمانِه عنه وعدمَ رؤيتِه وخدمتِه بأيّ خدمةٍ هو بحدِّ ذاتِه أكبرُ بلاء!

وبعدما عرَفْنا أنّ البلاءاتِ لا بدَّ منها ولا محيصَ عنها، ما السّبيلُ لمواجهتِها ورَفْعِها عنّا؟ يقول النبيّ الأعظمُ ﷺ: «الدعاءُ سلاحُ المؤمنِ وعمودُ الدينِ ونورُ السماوات والأرض»[١]، وعن الرضا عليه السلام أنّه كان يقولُ لأصحابِه: «عليكم بسلاحِ الأنبياء، فقيل: وما سلاحُ الأنبياء؟ قال: الدعاء»[٢]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاءَ يردُّ القضاءَ وقد نزلَ من السماءِ وأبرمَ إبرامًا»[٣]. فعلى سبيلِ المثال، لو كان مُقدَّرًا لإنسانٍ أن يموتَ في اليومِ الفلانيّ ودعا لنفسِه أو دُعِيَ له من قِبَلِ أخيه المؤمن، فالله عزّ وجلّ يُغيّرُ قضاءَه ويبدّلَه. مع الإشارةِ إلى أنّ الدّعاءَ يُغيّرُ المكتوبَ في اللّوحِ المحفوظِ لا المُبْرَمِ في أمِّ الكتابِ.

فقد خاطبَ رسولُ الله ﷺ الإمامَ الحسين عليه السلام قائلًا: «إن اللهَ قد شاءَ أن يراك قتيلًا»[٤]، ويقولُ آيةُ الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ آلَ اللهِ قد دُعيَ لهم من قِبل كلّ الأنبياء والأولياء أنْ لا يستشهدوا، وقد دعا كلُّ الأنبياء والأولياء أنْ لا تُسبى زينب عليها السلام، ولكنّ الله لمْ يتأثّرْ بكلّ هذا، فعندما يريدُ اللهُ فلا رادَّ لقضائِه».

على الإنسانِ أن يدفعَ البلاءَ بالدّعاءِ قبلَ وقوعِه، إذ يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «الدّعاءُ بعدما ينزلُ البلاءُ لا ينفع»[٥]. قبل أن ينامَ المؤمن، عليه أن يتهيّأَ لليوم التّالي، فإذا كان يريد أن يُدفَعَ عنه السّوءُ والشّرّ، عليه أن يتوسّلَ بالله عزّ وجلّ ويتوجّهَ إليه ويدعوه. وأمّا حين ينزلُ البلاء، فلن يتغيّرَ شيء.

---

(١) الكافي، ج٢ ص ٤٦٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الكافي، ج٢ ص٤٦٩.
(٤) بحار الأنوا، ج٤٤ ص٤٦٤.
(٥) مكارم الأخلاق، ص٢٧١.

وعن الإمام أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام أنّه قال: «عليكم بالدعاء، فإنّ الدُّعاءَ لله، والطلبَ إلى الله يردُّ البلاءَ وقد قُدِّرَ وقُضيَ ولم يبقَ إلاّ إمضاؤه، فإذا دعي الله عزَّ وجلّ وسُئل صَرْفَ البلاءِ صَرَفه»[1] كما ورد: «الدعاءُ يدفعُ البلاءَ النّازلَ وما لم ينزل»[2]. وقد وضعَ لنا أهلُ البيت عليهم السلام كلَّ هذه الأدعية، ومن بينها دعاءُ التوسلِ ودعاءُ كُميل وتعقيباتِ الصلوات، من أجلِ دفعِ البلاءاتِ التي ستنزلُ علينا غير أنّ الإنسانَ لا يبالي بها.

كما أنّ الصدقةَ تدفعُ البلاء، إذ يروي إمامُنا الباقر عليه السلام إحدى كراماتِ والدتِه السيّدةِ الجليلةِ فاطمة بنت الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام، فيقول: «كانت أمي قاعدةً عندَ جدارٍ فتصدّعَ الجدارُ وسمعْنا هدّةً شديدة، فأومأتْ إليه بيدها قائلةً لا وحقِّ المصطفى ما أذِن اللهُ لك بالسّقوطِ وكانت تعبرُ من تحتِه فبقي مُعلّقًا في الجوّ حتى جازتْه فتصدّقَ أبي عنها بمائة دينار»[3]، فعندما رأى الإمام زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه هذا المشهد، تصدَّقَ، ولأنّ فِعْلَ الإمام عليه السلام حجّةٌ علينا، تَعيَّنَ علينا أن نتبعَه في فعله. لذا، عندما تجدُ أنّك اجتزْتَ بلاءً كان سينزلُ عليك، ينبغي أن تتصدّق. فليسَ عليك التصدّقُ قبلَ نزولِ البلاءِ فقط، بل أيضًا بعدَ مرورِه، لأنّه من الممكنِ أن ينزلَ مرةً أخرى.

ومن أهميّةِ الدعاءِ أنّه ينفعُ ليس فقط في رفعِ البلاء، بل أيضًا في دفعِ الأعداء ودَرِّ الأرزاق، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلُّكم على سلاحٍ يُنجيكم من أعدائِكم ويدرّ أرزاقَكم؟ قالوا: بلى، قال: تدعون ربّكم بالليل والنهار، فإنّ سلاحَ المؤمنِ الدعاء»[4]. فالسّببُ في تغلّبِ الأعداءِ وقلّةِ الرّزقِ هو أنّنا لا ندعو الله قبلَ نزولِ البلاءات.

---

(١) الكافي، ج٢ ص٣٤١.
(٢) ميزان الحكمة، ج٢ ص٨٧٠.
(٣) أمّهات المعصومين، ص٢٤٢.
(٤) الكافي، ج٢ ص٤٦٨.

لقد أُعطينا سلاحًا لكنّنا لا نُجيدُ استعمالَه. وعلينا، أولًا، أن نعرفَ مَن ندعو، فقد سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام: «ما لنا ندعو فلا يُستجابُ لنا؟ فقال: لأنكم تدعون مَن لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون»[1]، ولأنّنا لا نعرفُ الله عزّ وجلّ، لا نثق به. ولو كنّا نعرفه ونثق به، لَعَرَفنا أنه عادلٌ لا يظلم. ولو كان عندنا يقينٌ بكرمه، لَأَيْقَنّا أنّه حتمًا سيستجيب لنا، حتى لو أبطأَتْ إجابتُه عنّا لِحكمةٍ عنده، فقد ورد في دعاء الإفتتاح: «ولعلّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي لعلمِكَ بعاقبةِ الأمور». ولكنّنا دومًا نعيشُ حالةَ عدمِ اطمئنانٍ وقلقٍ واضطرابٍ وافتقارٍ للسَّكينة، ممّا يجعلُ للشيطانِ علينا سبيلًا، فنملُّ من الدعاء، ونيأسُ من رَوْح الله عزّ وجلّ وتضعفُ عزيمتُنا ويُحبطُنا الشيطانُ ويُبعدُنا عن رحمةِ الله عزّ وجلّ بوساوسِه، في حين أنّه ليس للإنسانِ ملجأٌ غيرُ التوسّلِ والدعاءِ الذي هو صلةُ الوصلِ بينه وبين الله عزّ وجلّ، فهل نحن من دُعاةِ الله حقًا؟ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[2].

يقول النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: «الدُّنْيَا دُوَلٌ، مَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ، وَمَنِ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُ مِمَّا فَاتَ اسْتَرَاحَ بَدَنُهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ قَرَّتْ عَيْنُه»[3]، فمثلما أنّ المالَ الذي نمتلكُه والعزَّ الذي نتمتّعُ به لم نُحَصِّلْه بأعمالِنا بل الله عزّ وجلّ هو مَن أعطانا إيّاه، كذلك هي البلاءاتُ التي تنزلُ علينا، إذ لا نستطيعُ دفعَها بقوّتِنا بل علينا اللّواذَ إلى الله ودعاءَه ليرفَعَها عنّا.

علينا أن نرى في أنفسِنا العبوديّة، فنحن عبيدٌ لله عزّ وجل ومُلكٌ له، وهو يتصرّفُ بمُلكِه كيفما يشاء، فإذا جَعَلَنا فقراء، علينا أن نرضى بفقْرِنا،

(١) كتاب التوحيد، ص٢٠٩.
(٢) سورة الفرقان، آية ٧٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٣٦ ص١٠٣ ح ٧٤.

وإذا جعلنا أغنياء، علينا أن نرضى بغنانا، حيث يقول الإمام الباقر عليه السلام: «أمّا أنا يا جابر، فإنْ جعلني الله شيخًا أحبُّ الشيخوخة، وإن جعلني شابًا أحبّ الشيبوبة، وإنْ أمرَضَني أحبّ المرض، وإنْ شفاني أحبّ الشفاءَ والصحة، وإن أماتني أحبّ الموت، وإن أبقاني أحبّ البقاء»[1]. ففي كلّ الأحوال، ينبغي علينا التسليمُ لله تعالى، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

كما علينا أن نثقَ بالله عزّ وجل ونُحسِنَ الظّنَّ به، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «والذي لا إله إلا هو لا يحسُن ظنّ عبدٍ مؤمن بالله إلا كان اللهُ عند ظنِّ عبدِه المؤمنِ لأنّ الله كريمٌ بيدِه الخيراتُ يستحي أن يكونَ عبدُه المؤمنُ قد أحسنَ به الظنّ ثم يخلفُ ظنَّه ورجاءه فأَحْسِنوا بالله الظنَّ وارغبوا إليه»[3]، وعن الإمام الرضا عليه السلام: «أحسِن الظنَّ بالله، فإنّ الله عزّ وجل يقول: أنا عند ظنِّ عبدي المؤمن بي إنْ خيرًا فخيرًا وإنْ شرًا فشرًا»[4]. ولكن المشكلة أنّنا دائمًا نُسيءُ الظّنَّ بالله ونسمعُ كلامَ إبليس لعنه الله ونصدّقُ وُعودَه ونطمئنُّ إليها، بينما يقول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

وعن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال لأبي ذرّ: «يا أبا ذرّ!.. ألا أعلّمُكَ كلماتٍ ينفعُك الله عزّ وجلّ بهنّ؟... قلت: بلى يا رسول الله. قال: احفظِ

(١) عوالم العلوم، ج١٩ ص٦٤ ح١.
(٢) سورة آل عمران، آية ٢٦.
(٣) ميزان الحكمة، ج٢ ص١٧٨٨.
(٤) الكافي، ج٢ ص٧٢.
(٥) سورة البقرة، آية ٢٦٨.

اللهَ يحفظْكَ الله، احفظِ اللهَ تجدْه أمامَك، تعرّفْ إلى الله في الرخاءِ يعرفْكَ في الشدّة، وإذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنْتَ فاستعنْ بالله، فقد جرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة، ولو أنّ الخلقَ كلّهم جهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبْه الله لك ما قَدِروا عليه»[1]، ففي أيّ بلاءٍ يجري عليك، ضعْ عينَك بعينِ الله وحده، ولا تكُن كمَن يلجأُ إلى كلِّ الناس ويستشيرُهم في مشكلتِه، إلا إلى الله عزّ وجلّ.

وعلينا أن نعلمَ أنّ الذنوبَ والمعاصي هي من الأمورِ التي تمنعُ استجابةَ الدعاءِ وتكون سببًا في معاقبةِ الله لنا وابتلائنا. فعندما يُخطئ الإنسانُ ويُذنبُ ويعصي الله عزّ وجلّ، لا بدّ أن يترتّبَ على ذلك نتائجُ وآثار ولهذا يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[2]، ويظهرُ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بأشكالٍ متعدّدة، كالزلازل والبراكين، وتفشّي الغلاءِ في الأسعارِ وانتشارِ الأمراضِ والانحرافاتِ السلوكيّةِ والتلوّثِ البرّيِّ والبحري... فهناك بلاءاتٌ كثيرةٌ يكون الإنسانُ هو السّببُ الأساسيُّ والمباشرُ لها.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«إنّ العبدَ يسألُ اللهَ حاجةً فيكونُ من شأنِه قضاؤُها إلى أجلٍ قريب أو إلى وقتٍ بطيء فيُذنبُ العبدُ ذنبًا فيقول الله تبارك وتعالى للملكِ لا تقضي حاجتَه واحرمْه إياها فإنّه تعرّضَ لسخطي واستوجبَ الحرمانَ منّي»**[3]، ومن أشكالِ الحرمان: الحرمانُ من المالِ والحبِّ والمودّةِ والولد...

وبسببِ ذنوبنا، قد يحرمُنا الله من الأمان. وليس المالُ أو أيُّ شيءٍ آخرَ

---

(١) أمالي الطوسي، ص٥٣٦.

(٢) سورة الروم، آية ٤١.

(٣) أصول الكافي، ج٢ ص٢٧١.

غير الله هو الذي يؤمّنُ الأمان، لأنّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1]. فهناك أشخاصٌ أغنياء ولكنّهم فقراءُ إلى الأمان، بينما هناك أشخاصٌ فقراء لا يملكون شيئًا لكنّهم يعيشون بطمأنينةٍ وأمان. والذنبُ الذي يستدعي نزولَ هذا البلاءِ هو تعليقُ القلبِ بغيرِ اللهِ تعالى وأهلِ البيت عليهم السلام. أمّا مَن يُعَلّقُ قلبَه بالله عزّ وجل وبأهلِ البيت عليهم السلام فيحظى بالأمانِ في كلِّ جوانبِ حياتِه وتعمُّ البركةُ في مالِه وأولادِه وأملاكِه.

وفي هذا السياق، من اللطيفِ الإشارةُ إلى أنّه من بين معاني تسميةِ المؤمنِ بالمؤمنِ أنّه يؤمّنُ الأمانَ لمَن حوله، وقبل ذلك يؤمّنُ الأمانَ لنفسه. وهنا نرى الفرقَ بين المؤمنِ وغيرِ المؤمن، فهناك من النّاسِ مَن حين يدخلُ إلى منزلٍ ما، ينشرُ جوًا من التّوترِ والاستياء فيه، ممّا يتسبّبُ بوقوعِ الخلافاتِ والمشاحناتِ بين أفرادِ ذلك المنزل، فمثلُ هذا الشخصِ لا يؤمّنُ إلا القلقَ والإضطرابَ ونزولَ البلاءِ على البيتِ الذي يحلُّ فيه. وفي المقابل، هناك مِن الناس مَن يُدخلُ الفرحةَ والسرورَ إلى قلبِ كلِّ مَن حوله ويؤمّنُ الأمانَ لهم. وبشكلٍ عام، على المرأةِ أن تؤمّنَ الأمانَ لزوجها وعلى الرجلِ أن يؤمّنَ الأمانَ لزوجتِه وعلى الأمِّ والأبِ أن يؤمّنا الأمانَ لأولادها، لأنه إذا فُقِدَ الأمان، سوف تتفكّكُ الأسرة حتمًا.

إذًا، لا يمكن إيجادُ الأمانِ إلا بالاتصال بالله تعالى وبصاحب الزّمان عجّل الله فرجه الشريف، فكلّما ابتعدَ الإنسانُ عنهما، ابتُلي بنقصِ الأمان، وكلّما اقتربَ منهما، تحلّى بالأمنِ والأمان. ولهذا نجدُ الأمانَ في الدّعاء وقراءةِ القرآن، وهذه هي الحلاوةُ التي لا تنقطع، «كُلُّ حَلاوَةٍ مُنقَطِعَةٌ وحَلاوَةُ الإيمانِ تَزدادُ حَلاوَتُها اتِّصالًا بِكَ». وعندما نجلس في هذه

(١) سورة القصص، آية ٨٨.

المجالس، نحصل على هذا الأمان من الله عزّ وجل وأهل البيت عليهم السلام، حيث تنظرُ إلينا فاطمة الزكيّة سلام الله عليها.

لقد رضي أهلُ البيت سلام الله عليهم بكلِّ البلاءات التي نزلَتْ عليهم حتى يؤمِّنوا الأمانَ لشيعتِهم، مثل الأمّ التي ترضى بأيّ شيءٍ مقابلَ أن تؤمّنَ الأمانَ لأولادها، فنحن أولادُ أهلِ البيت عليهم السلام. إنّ فاطمة سلام الله عليها رضيَتْ بأن تُعصرَ بين الحائطِ والبابِ حتى لا يُعصَرَ شيعةُ أمير المؤمنين في قبورِهم ورضيَتْ بأن يُكسرَ ضلعُها ويُسقطَ جنينُها ويُفعلَ بها ما فُعِلَ فقط من أجلِ أن ترفعَ البلاءَ عنّا وتؤمّنَ لنا الأمان. ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «والله ما أخافُ عليكم إلا البرزخ، فأما إذا صارَ الأمرُ إلينا فنحنُ أولى بكم»[1]، أي أنّهم عليهم السلام أمّنوا الأمانَ لشيعتِهم يومَ القيامة. وما جلوسُنا في هذه المجالس إلا عرفانًا للجميل وردًّا لجزءٍ يسيرٍ منه وشكرًا عمليًا لهم، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) بحار الأنوار، ج٦ ص٢١٤.
(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

النوم أخو الموت

يقولُ الله تعالى في مُحكَم كتابِه العزيز الكريم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

الموتُ هو من الأمور الغيبيّة، التي إنْ لم يكنْ للإنسانِ عينان في قلبِه يُبصرُ بهما بالباطن، لن يعرفَ عنها شيئًا. وفي الواقع، يموتُ بدنُ الإنسان، إذا لم يرتبطْ بعالم الغيب. ويتحقّقُ الإرتباطُ بالغيب عبرَ أمورٍ عديدة منها: الكشفُ والشهود، النوم، والموت. إننا لا نستطيعُ أن ندفعَ عنّا النومَ في كلِّ ليلة، فننامُ حتى تصعدَ أراوحُنا إلى السماء لِئَلّا تموتَ أبدانُنا. ولكن ما لا يلتفت إليه أغلَبُنا أنّ «النوم أخو الموت»[2]، كما قال رسول الله ﷺ. والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾[3] فالنومُ بحدِّ ذاتِه موت. إنّنا نتساءل عن كيفيّةِ تحقّقِ الموتِ في حين أنّنا نموتُ في كلّ ليلة حين ننام، إذ كما قال رسول الله ﷺ: «كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون»[4]. وسُئل الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام: «ما

(١) سورة الزّمر، آية ٤٢.
(٢) ميزان الحكمة، ج٤ ص٣٤٠٤.
(٣) سورة الأنعام، آية ٦٠.
(٤) تفسير الصافي، ج٤ ص١٨.

الموت؟ فقال: هو النّومُ الذي يَأتيكُم في كلّ ليلة، إلا أنّه طويلٌ مدّتُه، لا يُنْتَبهُ منه إلا يومَ القيامة، فمنهم مَن رأى في منامِه من أصنافِ الفَرَح ما لا يُقادرُ قدرُه، ومنهم مَن رأى في نومِه من أصنافِ الأهوال ما لا يُقادر قدرُه، فكيف حالُ مَن فَرِح في الموت ووَجِل فيه! هذا هو الموت فاستعدّوا له»[١]. ويقول لقمان الحكيم لولده: «إن تكُ في شكٍّ من الموت، فادفعْ عن نفسِك النومَ ولن تستطيع ذلك، وإنْ كنتَ في شكٍّ من البعث، فادفعْ عن نفسِك الانتباهَ فلن تستطيع ذلك، فإنّك إن فكّرتَ في هذا، عَلِمتَ أنّ نفسَك بيد غيرك وإنّما الموتُ بمنزلة النوم، وإنّما اليقظةُ بعدَ النوم بمنزلةِ البعثِ بعد الموت»[٢].

من المؤكّد أنّ الله يتوفّى الأنفسَ حين موتها ولكن ليس بالضرورة أن يتوفّاها بنفسه دائمًا، فالآياتُ القرآنية تفيد بأنّه، في أغلبِ الأحيان، الملائكةُ تتوفّى الأنفس، لا سيّما ملكُ الموت عزرائيل عليه السلام، الموكّلُ بهذه المهمّة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٣]، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[٥]، فبعدَ النوم (الموت)، إمّا يُرجِعُ اللهُ عزّ وجلّ الإنسانَ وإمّا لا، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٦]. ففي كلّ ليلة، يُفترَضُ أن يكون لدينا موعدُ لقاءٍ مع الله، وعلينا أن نتجهّزَ لهذا اللقاءِ ونحبّه، إذ وردَ في الروايةِ أنّ ملكَ الموتِ جاءَ ليقبضَ روحَ نبيِّه إبراهيم عليه السلام فقال لله تعالى: أحَبيبٌ يقبضُ روحَ حَبيبه؟ فأجابَه الله: أحَبيبٌ يكرهُ لقاءَ حبيبه؟

---

(١) معاني الأخبار، ص٢٨٩.
(٢) قصص الأنبياء، ص٤١٧.
(٣) سورة النساء، آية ٩٧.
(٤) سورة السجدة، آية ١١.
(٥) سورة الأنعام، آية ٦٠.
(٦) سورة الزمر، آية ٤٢.

إذًا، هناك مَن يتوفّاه اللهُ بنفسه وآخرَ تتوفّاه الملائكةُ وآخرَ ملكُ الموت، فلهذا الأمرِ علاقةٌ بالمقامات والمراتب. ويُروى أنّ مَن تولّى قبضَ روحِ الحسين بن عليّ وأصحابِه عليه السلام كان الله عزّ وجل نفسه، فقد ورد في الحديث: «فإذا بَرَزَتْ تلك العصابةُ إلى مضاجعِها، تولّى الله عزّ وجلّ قبْضَ أرواحِها بيده»[1]، ذلك أنّ ملكَ الموتِ لم يقدرْ على هذه المهمّةِ لأنّه يعرفُ مَن هو الإمام الحسين عليه السلام ومَن هم أصحابه!

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[2] ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[3]، تصعدُ الرّوحُ باتجاهِ عالمِ البرزخ ولكن هل تصل أم لا؟ ثمّةَ عوائقُ أمامَ الرّوح من شأنها أن تمنعَها من الصعود والوصول. عندما ينامُ الإنسانُ وتتصلُ روحُه بعالم الغيب، يزولُ خوفُه وغمُّه وهمُّه في حالٍ كان يعاني من أيّ مشكلة، فيستيقظ حينئذٍ مرتاحًا ومطمئنًّا. وكذلك حين تخرجُ روحُه من بدنِه وتصعدُ وترتبطُ بعالمِ المثال، أي عالمِ الملكوتِ أو الجبروت، تكون كلُّ المنامات التي يراها مناماتٍ صادقة، سواءً رأى أمورًا لها علاقةٌ بالمستقبل أو بالقيامة أو ربما بما هو بعدَ القيامة، وكلٌّ بحسبِ مقامِه. أمّا في حالٍ لم تستطعِ الروحُ الخروجَ من البدن والاتصالَ بعالم الغيب، فسيستيقظُ الإنسانُ كَدِرَ المزاج، ضيّقَ الصّدر، وتكون كلُّ المناماتِ التي يراها مجرّدَ أضغاثِ أحلام. ولكن ما سببُ عدمِ اتصالِ الروحِ بعالمِ الغيب؟

إلى جانبِ ارتكابِ الذنوبِ والمعاصي، فإنّه من العوائقِ التي تَحُولُ دونَ خروجِ الرّوحِ من أسْرِ البدنِ وارتقائِها إلى العوالمِ العُليا، تعلُّقُ الإنسانِ

(١) كامل الزيارات، ص٤٤٧.
(٢) سورة النبأ، آية ٩.
(٣) سورة الأنفال آية١١

ببدنِه، كأنْ يكونَ جائعًا أو عطشانًا. ولذا يجبُ تحقيقُ التوازنِ بما يتعلقُ بكلِّ احتياجاتِ البدن. كما أنّ لوسائلِ الإتصالِ دورًا أساسيًّا في إفسادِ المنامات، لأنّها تُسهِمُ في تكثيرِ الخيالات، وتُفقد الإنسانَ الصّفاء، فيعجزُ عن الارتباطِ بالملأ الأعلى.

إلى هذا، وردَ في الرواية أنّ هناك إبليسًا من الأبالسةِ مهمّتُه أن يدخلَ إلى مناماتِ الإنسان حتّى يؤثّرَ به بشكلٍ تلقائي وعجيب، لأنّ التأثيرَ في لا وعيِ الإنسان أكثرُ فعاليةً من التأثيرِ به في حالةِ الوعي. وعلى سبيل المثال، فإنّ الوالدَيْن مهما تكلّما ونصَحَا أولادَهما لن يأخذَ الأولادُ إلّا بتصرفاتِهما، ذلك أنّ ما يتلقّونه عبرَ اللّاوعي هو أكبرُ بكثيرٍ ممّا يتأثّرون به في الوعي، فمهما قالَ الوالدُ لابنه: لا تكذب، لن يتّعِظَ هذا الإبنُ إذا كان أبوه يمارسُ الكذبَ أمامه، والعكس صحيح، فإذا رأى الإبنُ أنّ أباه لا يكذبُ بالفعل، فسيتأثرُ فعلًا ولن يكذب أبدًا.

وبالعودةِ إلى عملِ الشيطان وعَبَثِه في مناماتنا ولاوَعْيِنا، فإنّا قد نرى، نتيجةَ ذلك، منامًا جدَّ مُوحِش، ونبقى مضطربين طيلةَ النهار رغم عِلمِنا أنّه مجرّدُ منام، قد يكون شيطانيًّا أو قد يكون حقيقيًا. والله وحدَه يعلمُ ما الذي يبثُّه ذلك الشيطانُ في بواطنِنا، ولعلّه لهذا وردَ أنّ الرجلَ «يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا»[1]. من هنا، على الإنسان أن يُركِّزَ على فترةٍ ما قبلَ النوم، فقد وردَ أنّه يُستَحبُّ للإنسانِ أن يقرأ قبلَ النومِ العديدَ من السُّوَر القرآنية، حتى تستطيعَ الروحُ أن ترتبطَ بالملأ الأعلى. وهناك الكثيرُ من القصصِ التي تُحكى عن أناسٍ وصلوا إلى مقاماتٍ علميةٍ رفيعةٍ بسبب تمكّنِهم من الاتصالِ بالغيب وارتباطِهم بالأئمةِ عليهم السلام عن طريقِ النّوم.

فقد سُئِل أحدُ العلماء عن سرِّ مؤلفاتِه الكثيرة، فقال: رأيتُ في المنام

(١) ميزان الحكمة، ج٣ ص٢٣٦٦.

موسى بن جعفر عليه السلام وأعطاني قلمًا وقال لي: «أكتب»، ومُذ أنْ استيقظْتُ صبيحةَ ذلك اليوم وكلُّ ما أكتبُه هو بفضلِ ذاك القلم. كذلك سُئل أبو علي سينا عن سرِّ اختراعاتِه وأَذْويتِه التي وَضَعَها، فأجابهَم بأنّه كان يعرفُ كيف ينامُ جيّدًا. ويقال إنّ أحدَهم كان غليظَ الذهن، فقصد حرمَ أمير المؤمنين عليه السلام وتوسّلَ كثيرًا، وبعد مدةٍ من التوسل جاءَه الإمامُ عليه السلام في المنام، إقتربَ منه وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أذنه. استيقظ ذلك الرجلُ وقد أصبح بحرًا من العلمِ والمعرفة، وعندما ذهبَ إلى الشيخ الأنصاري وهو معروفٌ بعلمِه، صار يُشْكِلُ عليه في كلّ ما يقولُه والشيخ الأنصاري يجيبه، وعندما انتهى الدرس ناداه الشيخ وقال له: إنّ الذي قرأَ في أذنِكَ «بسم الله الرحمن الرحيم» قرأَ في أذني إلى... «ولا الضّالين».

هذا الارتباطُ بعالمِ الغيب تحقّقَ عبر النوم، لذا يجب أن تعرفَ كيف تنام وأن لا تقلّلَ أو تُكثرَ من النومِ بل تعتدل فيه. وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يسأل يوميًّا أصحابَه: هل من مُبَشِّرات؟ والمبشِّراتُ من البشرى، أي كان يسألُهم عمّا رأوا في منامهم، لأن الرؤيا كما قال النبي صلى الله عليه وآله هي جزءٌ من سبعين جزءٍ من النبوة.

ولذا، ركّزَ إبليس على هذا المجال، كي يَحُولَ بينك وبين الارتباطِ بعالمِ الغيبِ ليلًا، ذلك أنّ النومَ في النهارِ لا يحقّقُ هذا الإرتباط، إلّا في وقتِ القيلولة حيث يمكن أن تكونَ الرؤيا صادقة. فكما مرَّ سابقًا يمكن بالنوم أن ترى صاحبَ الزمان عليه السلام أو أيّ أحدٍ من الأئمة، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما مفاده: «تغتسلُ لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ وتناجي اللهَ بنا فترى أحدًا منا». إنّ أكثرَ الّذين وصلوا إلى الله وصلوا عبر هذا الغيب، أمّا نحن فما زلنا عاجزين عن ذلك. وانتبِهْ إلى أنّ هناك شروطًا للنوم المِوصِل للغيبِ منها: سدُّ السّمعِ والرؤية، الامتناعُ عن الكلامِ والتفكير، الصفاءُ الباطني، التزكية، الطهارة، الولاية، المحبة...

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قولُه: «باطني غيبٌ لا يدرك»[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فاطمة قلبي وروحي التي بين جنبيّ»[٢]. أوَليس باطنُ أميرِ المؤمنين هو نفسُه باطنُ رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ألم يقلْ النبيّ الأعظم: «إنّ عليًا منّي وأنا من عليّ»؟ وعليه، فباطنُ رسولِ الله وأمير المؤمنين واحدٌ وهو غيب، ونحن لا نستطيعُ أن نرتبطَ به إلّا إذا بذلْنا مجهودًا حتّى نُصفّي أرواحَنا ونتغلّبَ على إبليس الذي يقطعُ الطريقَ علينا.

وقد سُئِلَ الإمامُ الصادق عليه السلام عن البدنِ والروح فقال: «مَثَلُ روحِ المؤمن وبدنِه كجوهرةٍ في صندوقٍ، إذا أُخرِجَت الجوهرةُ منه، طُرِحَ الصندوقُ ولم يُعبأ به. وقال: إنّ الأرواحَ لا تُمازِج البدنَ ولا تُواكِلُه، وإنّما هي كَلَلٌ للبدنِ محيطة به»[٣]. فهل هناك سنخيةٌ بين الجوهرةِ والصندوق؟ أو هل هناك ترابطٌ بينهما؟ كلا، فالجوهرةُ من مادةٍ والصندوقُ من مادةٍ أخرى، وأرواحُنا لا تشبهُ أبدانَنا أبدًا. هذه هي الحقيقة، فإذا رأى الانسانُ روحَه قد يُصعَقُ في اللحظةِ نفسها. وفي رواية أخرى، يسألُ رجلٌ الإمامَ الرضا عليه السلام: «العينُ مُرَكبةٌ أم الروحُ تبصرُ الأشياءَ من منظرِها؟ فأجابَه الإمام عليه السلام: العينُ شحمةٌ وهو البياضُ والسواد، والنظرُ للرّوح... الرّوحُ مسكَنها في الدّماغ، وشعاعُها مُنْبَثٌّ في الجسدِ بمنزلةِ الشمس، دارَتُها في السّماء وشعاعُها منبسطٌ على الأرض، فإذا غابَتِ الدائرةُ فلا شمس، وإذا قطعْتَ الرأسَ فلا روح»[٤]. الروحُ ليست من سنخية البدن، ونحن لا نعرفُ عنها شيئًا، ولكنّنا نعلم أنّنا إذا نِمْنا، يمكن لها أن تخرجَ وتسافرَ إلى كربلاء، مثلًا، بلحظات، لأنّها تتحرّرُ من قفصِ البدن هذا.

---

(١) مشارق أنوار اليقين، ص٧٠.
(٢) الغدير، ج٩ ص٣٨٧.
(٣) منتخب البصائر، ص٤١.
(٤) مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص٣٥٣.

نحن ننامُ مع مخلوقٍ عجيب، وهذا الكلامُ عن روحِك أنت، إذ لم نتكلّمْ بعد عن روحِ أمير المؤمنين ومحمّد بن عبدالله صلى الله عليهما وآلهما، فتلكَ روحٌ أخرى ليست كالأرواح! ألا نقرأُ في الزيارةِ الجامعة الكبيرة: «أرواحُكم في الأرواح»؟ فكيف ذلك؟ ورد في الرواية: «إنّ روحَ الإيمانِ واحدةٌ خرجَتْ من عندِ واحدٍ وتتفرّقُ في أبدانٍ شتّى»[1]. فلا تظنّوا أنّ روحَ رسول الله وآله كروحِنا، فهُم روحُ الله أما نحن فمِن روح الله، و«مِن» تشيرُ إلى البعض.

إمامُ الزمان عليه السلام غابَ عنّا ونحن إلى الآن لم نستطعْ أن نرتبطَ بعالمِ الغيب حتى نراه، ذلك أنّنا لم نُحقّقِ الشروطَ الموجِبةَ لهذا الارتباط بعد. ولكنّ هناك مواضعُ تتحقّقُ فيها تلك الشروطُ من دون أيّ جهدٍ وأثناءَ اليقظةِ لا النّوم حتّى، إذ يتحقّقُ للبعضِ الارتباطُ بالغيبِ في حَرَمِ الحسين بن عليّ عليهما السلام، حيث تتعطّلُ حواسُه ولا يلتفتُ إلى شيءٍ رغمَ كلِّ زحمةِ الزوّارِ وضجيجِهم، وثمّةَ مَن يحدثُ له هذا في مجالسِ أبي عبدالله الحسين عليه السلام، عندما يبدأُ القارئُ بالعزاء. غير أنَّ هناك مَن لا يستفيدُ من كلّ ذلك، لأنّه لا يستطيعُ أن يوقفَ حواسَه وتفكيرَه عن الإنشغالِ بشؤونِ الدنيا، في حين أنّه إذا استغرقَ بالعشقِ يصبحُ مشغولًا به فقط. يقول الإمام الصادق عليه السلام لأحدِ رَائِيْ الإمام الحسين عليه السلام: «واللهِ، لقد شهِدَك ملائكةُ الله المقرّبون هاهنا يسمعون قولَك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكيْنا أو أكثر»[2]، ولكنّنا لا نرى هذه الأمورَ لأنّ أرواحَنا لم تتحرّرْ من أسْرِ البدن، وإبليس يحولُ دونَ صعودِ هذه الروح، مع أنّنا قادرون على فعلِ المعجزاتِ إذا ما تحرّرَتْ أرواحُنا من أبداننا، كأنْ نطوي الأرضَ مثلًا، فضلًا عمّا يمكن أن نراه في

(١) الاختصاص، ص٢٤٩.
(٢) رجال الكشّي، ص٢٨٩.

المنامِ من حقائقَ معرفيّةٍ من شأنِها أن تُبدّلَ كلَّ وجودنا، وهذه الرواية عن زائر الحسين عليه السلام والباكي عليه مثالٌ على ما نقوله، إذ ورد: «لو يعلمُ زائري والباكي عليّ ما له من أجرٍ عند الله تعالى لكانَ فَرَحَه أكثر من جَزَعِه وأنّ زائري والباكي عليّ لينقلِبُ إلى أهله مسرورًا وما يقوم من مجْلِسِه إلا وما عليه ذنبٌ وصار كيومِ ولدَتْه أمُّه»[1].

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) المنتخب، ص٣٩.

الموت للموالي حياة

قال الله تبارك وتعالى في محكمِ كتابِه العزيز الحكيم: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1]. وقال الإمام الحسين عليه السلام: «خُطَّ الموتُ على ولدِ آدمَ مخطَّ القلادةِ من جيدِ الفتاة»[2]. وحين سأل الإمام الحسين ابنَ أخيه القاسم عليه السلام كيف يجدُ الموتَ قال: «يا عمّ أحلى من العسل»[3]، فلماذا كان يرى القاسمُ عليه السلام الموتَ حلوًا هكذا؟

سُئل الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام: «ما الموت؟ فقال: هو النّومُ الذي يَأتِيكُم في كلِّ ليلة، إلا أنّه طويل مدّتُه، لا يُنتَبَهُ منه إلا يومَ القيامة، فمنهم مَن رأى في منامِه من أصنافِ الفَرَح ما لا يُقادر قدرُه، ومنهم مَن رأى في نومِه من أصنافِ الأهوال ما لا يُقادر قدرُه، فكيف حالُ مَن فَرِحَ في الموت ووَجِل فيه! هذا هو الموتُ فاستعدّوا له»[4].

لقد خلقَ الله تعالى الموتَ كما خلقَ الحياة. والموتُ ليس الفناءَ كما يظنُّ البعض، بل هو بدايةٌ لرحلةٍ جديدةٍ إلى عالمٍ آخر. هناك، بعد الموت، مراحلُ متعدّدة لا بدَّ لكلّ إنسانٍ أن يجتازَها، تبدأُ من ساعةِ قبضِ روحِه

(١) سورة ق، آية ١٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٤ ص٣٦٦.
(٣) مدينة المعاجز، ج٤ ص٢١٤.
(٤) معاني الأخبار، ص٢٨٩.

وتغسيلِه وتكفينِه وإدراجِه في حفرتِه، وتستمرُّ داخلَ القبرِ حيث يواجهُ الإنسانُ عقباتٍ وامتحاناتٍ جديدة. وتتفاوتُ قدرةُ كلِّ إنسانٍ على اجتيازِ تلك العقبات بحسبِ إيمانِه وعملِه في الحياةِ الدّنيا وبحسبِ الزّاد الذي قد أعدَّه لسفرِه إلى العالمِ الآخر.

فكيف يجتازُ الإنسانُ تلكَ العقبات؟ ومَن هو الذي يتمكّنُ من اجتيازِ كلّ مراحلِ الموتِ بسهولةٍ ويصلُ إلى دارِ الأمانِ والإستقرار؟

يقول رسول الله ﷺ: «يا عليّ، حبُّك إيمانٌ وبغضُك نفاق»[1]. فالمؤمنُ هو الذي يتحلّى بالإيمان ويتّصفُ به، والإيمانُ هو محبّةُ أميرِ المؤمنين سلام الله عليه. ويختلفُ الحبُّ بين الموالين كلٌّ بحسبِ استعدادِه وقابليّتِه، فمنهم مَن يحبُّ بلسانِه ومنهم مَن يحبُّ بلسانِه وقلبِه ومنهم مَن يحبُّ بلسانِه وقلبِه ويده. وتتوقّفُ شدّةُ المحبةِ والولايةِ على قدْرِ البراءةِ من أعداءِ أهلِ البيت عليهم السلام، فبقدرِ ما يكونُ الموالي متبرّئًا من أعدائهم، بقدرِ ما يرزقُه الله تبارك وتعالى حبَّهم سلام الله عليهم، وبالتالي فإنّه كلّما كان الإنسانُ مواليًا لمحمّدٍ وآلِ محمد ومحبًا لأمير المؤمنين سلام الله عليه بجميعِ مراتبِ وجودِه، كلّما كان أشدَّ إيمانًا. وأبرزُ ما يميّزُ الإنسانَ المؤمنَ عن غيرِه هو يقينُه وعزيمتُه وقوّتُه في مواجهةِ الباطلِ ومناصرةِ الحق، فلا يخافُ من شيءٍ سوى الله تبارك وتعالى، وهؤلاء هم أولياءُ الله الذين تختلفُ درجاتُهم باختلافِ مراتبِ إيمانهم، وكما ورد في الآية الكريمة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، فلا يحزنون ولا يخافون، لا من المرضِ ولا من المصائبِ ولا من الموت، لأنّ أولياءَ الله متّصلون بوليِّ اللهِ الأعظم وقدرةِ الله القاهرةِ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه.

(١) إحقاق الحق، ج٧ ص٢١٣.
(٢) سورة يونس، آية ٦٢.

وبطبيعةِ الحال، يخافُ الإنسانُ العاديّ من الموت، إلّا أنّ خوفَ الموالي سرعان ما يتبدّدُ وينتهي ما إنْ تصلَ روحُه إلى حلقومه، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «منكم والله يُقْبَل، ولكم والله يُغفَر، إنّه ليس بين أحدِكُم وبين أن يغتبِطَ ويرى السّرورَ وقرّةَ العين إلا أنْ تبْلُغَ نفسُه هاهنا - وأومأ بيدِه إلى حَلْقِه. ثم قال: إنّه إذا كان ذلك واحتضر، حَضَرَه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وعليّ وجبرئيل وملكُ الموت عليهم السلام، فيدنو منه عليّ عليه السلام فيقول: يا رسول الله، إنّ هذا كان يحبُّنا أهلَ البيت فأحِبَّه، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل، إنّ هذا كان يحبُّ الله ورسولَه وأهلَ بيت رسوله فأحِبَّه، ويقول جبرئيل لملكِ الموت: إنّ هذا كان يحبُّ اللهَ ورسولَه وأهلَ بيتِ رسوله فأحِبَّه وأَرْفِق به. فيدنو منه ملكُ الموتِ فيقول: يا عبد الله، أخذْتَ فَكَاكَ رقبَتِك، أَخَذْتَ أَمَان بَراءَتِك، تَمسَّكْتَ بالعِصْمةِ الكبرى في الحياةِ الدنيا. قال: فيوفّقه اللهُ عزّ وجلّ؟ فيقول: نعم، فيقول: وما ذلك؟ فيقول: ولايةُ عليّ بن أبي طالب، فيقول: صَدَقت. أمّا الذي كنت تحذَرُه فقد آمَنَك اللهُ منه، وأمّا الذي كُنْتَ تَرْجُوه فقد أَدْرَكْتَه، أَبشِرْ بالسَّلَف الصّالح مرافقةَ رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة عليهما السلام. ثم يَسِلّ نفسَه سلًا رفيقًا، ثم يَنْزِلُ بكفنه من الجنة، وحنوطه من الجنة بمسك أذفر، فيكفَّن بذلك الكفن، ويحنَّط بذلك الحنوط، ثم يُكْسَى حلّةً صفراءَ من حلَل الجنّة، فإذا وُضِعَ في قبره فُتِح له بابٌ من أبواب الجنة يدخل عليه من رَوْحِها وريحانها. ثم يُفْسَح له عن أمامه مسيرةَ شهرٍ وعن يمينه وعن يساره، ثم يُقال له: نَمْ نومةَ العروسِ على فراشِها، أَبْشِرْ بروحٍ وريحان وجنّةِ نعيم ورَبٍّ غير غضبان. ثم يزورُ آلَ محمّد صلى الله عليه وآله في جنّاتِ رَضْوى، فيأكلُ معهم من طعامهم، ويشربُ معهم من شرابهم، ويتحدّثُ معهم في مجالسِهم حتى يقومَ قائمُنا أهل البيت. فإذا قام قائمنا بعثَهم الله، فأقبلوا معه يُلَبّون زُمَرًا زُمَرًا، فعند ذلك يرتابُ المبطلون وَيَضْمَحِلُّ الْمُحِلُّونَ وَقَلِيلٌ مَا يَكُونُونَ

هَلَكَتِ الْمَحَاضِيرُ وَنَجَا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لعليّ عليه السلام: أنت أخي، وميعادُ ما بيني وبينك وادي السلام. قال: وإذا احتضرَ الكافرُ حضرَه رسولُ الله ﷺ وعليٌّ وجبرئيل وملك الموت عليه السلام، فيدنو منه عليّ عليه السلام فيقول: يا رسول الله، إنّ هذا كان يبغضُنا أهلَ البيت فأبغِضْه، ويقول رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، إنّ هذا كان يبغضُ اللهَ ورسولَه وأهلَ بيت رسوله فأبغِضْه، فيقول جبرئيل: يا ملك الموت، إنّ هذا كان يبغضُ اللهَ ورسولَه وأهلَ بيت رسوله فأبغِضْه واعنفْ عليه. فيدنو منه ملكُ الموت، فيقول: يا عبد الله، أخذتَ فَكَاك رهانِك، أخذتَ أمانَ براءتك، تمسّكْتَ بالعصمة الكبرى في الحياة الدنيا؟ فيقول: لا، فيقول: أبْشِر يا عدوَّ الله بسخطِ الله عزّ وجل وعذابِه والنار. أمّا الذي كنْتَ تحذرُه فقد نزَلَ بك. ثم يَسِلّ نَفْسَه سَلًّا عنيفًا، ثم يوكِلُ بروحه ثلاثمائة شيطان، كلّهم يبزق في وجهه ويتأذّى بروحه. فإذا وُضِعَ في قبره، فُتِحَ له بابٌ من أبوابِ النار، فيدخل عليه من قيحها ولهبها»[1].

إذًا، فولايةُ عليّ بن أبي طالب وأولاده المعصومين سلام الله عليهم أجمعين هي العصمةُ الكبرى وهي الأمانُ من النار والضّمانُ للدخولِ إلى الجنةِ ومرافقةِ أهلِ البيت سلام الله عليهم. فمَن كان في هذه الحياة الدنيا محبًّا لمحمّد وآل محمّد ومُنَاصِرًا لهم، لن يتركَه أهلُ البيت عليهم السلام في مواقفِه الصعبةِ سواء عند الموتِ أو في يومِ القيامة، إذ سيقفون معه ليخلّصوه من أهوالِها ويدخلوه الجنّة. ومع أنّ المؤمنَ يستطيع أن يحصلَ على ما يريد بطاعتِه لله عزّ وجل، إلا أنه يبقى في حالةِ شوقٍ للقاءِ أولِيائه والمكوثِ معهم فلا يختارُ على الجلوس مع محمّد وآل محمد وخدمتِهم شيئًا أبدًا حتى الجنة والحور العين. فالمؤمنُ المحبُّ لا يهمّه شيءٌ سوى لقاءُ

(١) الكافي، ج٣ ص١٣١ ح ٤.

المحبوبِ وملازمتُه وعدمُ البعد عنه، ولهذا لا يشعر بشيءٍ أبدًا حالَ قبضِ روحِه لأنّ الموتَ عنده يعني الخلاصَ واللّقاءَ بالمحبوب.

سُئِلَ أبو عبدالله عليه السلام: «مَن أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ اللهُ لقاءَه ومَن أبغضَ لقاءَ الله أبغضَ اللهُ لقاءه؟ قال: نعم. قلت: فوالله إنّا لَنكْره الموت، فقال: ليس ذلك حيث تذهب، إنّما ذلك عند المعاينة إذا رأى ما يحبّ فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يتقدّم واللهُ تعالى يحبّ لقاءه وهو يحبّ لقاء الله حينئذ، وإذا رأى ما يكرَه فليس شيءٌ أبغضَ إليه من لقاءِ الله واللهُ يبغضُ لقاءه»[1].

وعندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الموت كيف يكون قال: «لَتَموتُنّ كما تنامون، ولتُبْعَثُنّ كما تستيقظون»[2]. وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لو أنّ مؤمنًا أقسمَ على ربّه أن لا يُميتَه ما أماته أبدًا ولكن إذا كان ذلك أو إذا حضرَ أجلُه بعثَ الله عز وجل إليه ريحين: ريحًا يقال لها الْمُنْسِيَةُ وريحًا يقال لها الْمُسَخِّيَةُ، فأمّا المُنْسِية فإنها تُنْسِيه أهلَه ومالَه وأما المُسَخّيَة فإنها تسخى عن نفسه حتى يختار ما عند الله تبارك وتعالى»[3].

ولكنّ هناك من الموالين مَن لوّثتْهم الذنوبُ في الحياةِ الدنيا لدرجةِ أنّه لا بدّ لهم من التطهّرِ قبلَ الورودِ إلى الجنّة، فهؤلاء تمرُّ عليهم لحظاتٌ عسيرة عند سكراتِ الموتِ وضغطةِ القبر إلى أن يتحقّقَ التطهّرُ الكاملُ من الذنوب. وقد ورد أنّ هناك أعمالًا إذا قام بها الإنسانُ في حياته تخفِّف عليه سكراتُ الموت منها: كِسْوَةُ المؤمن، إطعامُ الحلوى للمؤمنين، قراءةُ سورة يس والصافات، المداومةُ على قراءةِ كلماتِ الفرج لا سيما في الصلوات اليومية، صلاةُ الليلةِ السابعة عشر من شهر رجب، صومُ اليوم

(١) الكافي، ج٣ ص١٣٤.
(٢) دار السّلام، ج١ ص٤٧.
(٣) الكافي، ج٣ ص١٢٧.

الرابع والعشرين وآخر يوم من شهر رجب... ولكنّ العملَ الأهمَّ هو صلةُ الأرحامِ وبرُّ الوالدين، سواءً الظّاهِرَيْن أم الباطِنَيْن، فكما ورد عن رسول الله ﷺ: «أنا وعليّ أبَوَا هذه الأمة»[1]، وقد ورد في الحديث: «مَن أحبَّ أن يخفِّفَ اللهُ عزّ وجلّ عنه سكراتِ الموت، فليكنْ لقرابتِه وَصولًا وبوالديه بارًا فإذا كان كذلك هوّنَ اللهُ عليه سكراتِ الموت ولم يُصِبْه في حياتِه فقرٌ أبدًا»[2]. وتذكّروا دومًا أنّ الأصلَ والأساسَ لقبولِ أيّ عملٍ أو ردِّه هو الولايةُ لمحمّد وآل محمّد والبراءةُ من أعدائهم ومُبْغِضيهم ومُنْكِري فضائلهم ومناقبهم.

وبالنتيجة، فإنّ حالَ المؤمنِ عندَ الموت لا يشبهُ حالَ الكافرِ في شيءٍ أبدًا، ومَن يأتي لسؤالِ المنكِرِ لمقامات أهل البيت سلام الله عليهم في قبره هما ملكان اسمهما مُنكَر ونكير، أما الملكان اللذان يأتيان إلى قبرِ المحبّ لمحمّد وآل محمّد سلام الله عليهم، فاسمهما مُبَشِّر وبشير، يبشّرانَه بالنجاة والفوز بالجنة، حتى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي يتولّى الإجابةَ عن الموالي حين يُسأل عن ربّه ودينه فيخافُ ويتوقّفُ عن الجواب.

إذًا، فولايةُ محمّد وآل محمّد ﷺ ومعرفتُهم وحبُّهم هي ما يُنجي العبدَ من كلِّ أهوالِ الموتِ والقيامة. ويُحكى أنّ شخصًا رأى أحدَ الشّهداء في عالم الرؤيا، فسأله عن حالِه، فقال له: إنّي نادمٌ على شيءٍ واحدٍ تركتُه في الدنيا. تعجّب منه الرّجل وقال له: لقد وصلْتَ إلى الشهادة وتقول إنّك نادمٌ على شيء؟ قال: بلى. قال: ما هو؟ قال: عندما أتيتُ إلى هنا رأيتُ أنّ أهلَ البيت عليهم السلام هم القائمون على كلّ شي، فأنا نادمٌ على عدم تعمّقي بمعرفتهم ومحبتِهم محبّةً حقيقية. ذلك أنّ محبّتَهم هي محبّةُ الله.

والسّؤال الذي يطرح نفسه، إذا كان المؤمنُ الموالي يرى أهلَ البيت عليهم السلام في لحظاتِ احتضارِه، فمَن يرون هم في تلك اللحظات؟

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٦ ص١١.
(٢) روضة الواعظين، ص٣٦٧.

هلمّوا بنا إلى كربلاء لِنعرفَ الجواب، حينما سقطَ الإمام الحسين عليه السلام عن جوادِه وظلّ صريعًا على رمضاء كربلاء، أتت السيّدة زينب عليها السلام وكان مَغشيًا عليه، «فألحَّتْ عليه زينب بالخطابِ وكَثُر منها البكاءُ إلى أنْ أفاق، فرمقَها بطرفِه الشريفِ وأشارَ إليها بيده فغُشِيَ عليها»، لماذا أُغشِيَ على السيدة زينب عليها السلام عندما أشارَ إليها الإمامُ الحسين عليه السلام؟ إنّ المؤمنَ في غشيتِه عندَ الموت يرى أهلَ البيتِ عليهم السلام وينشغلُ معهم، فمع مَن كان الحسين عليه السلام مشغولًا في غشيتِه؟ لقد كان مشغولًا مع الذاتِ الإلهية ولهذا عندما استيقظَ وأشارَ إلى السيدة زينب بيده أُغشِيَ عليها، لأنّه عندما يستيقظُ الإنسانُ المُتّصِلُ بالله من غشْيَته، فإنّه ينقلُ حالَته لأوّلِ شخصٍ يراه، فالسيّدة زينب عليها السلام أُغشي عليها حين صارَتْ سكرانة بالله. «فلمّا أفاقَت قالت له: أخي بحقّ جدي رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ما كلَّمْتَني، وبحقّ أبي أمير المؤمنين إلا ما خاطبْتَني، يا حشاشَ مُهجتي بحقّ أمي فاطمة الزهراء إلا ما جاوبْتَني، يا ضياءَ عيني كلِّمْني، يا شقيقَ روحي جاوِبْني»، أرادتْ منه أن يتكلّمَ معها، لأنّه إذا تكلّم، سَمِعَت صوتَ الله عزّ وجل من فمِه عليه السلام[1]، وهذا هو التوحيد، فنحن لا ندري ما الذي جرى في كربلاء. «قال: فانتبهَ الحسين عليه السلام من قولها وقال: يا أختاه هذا يومُ التّنادِ والهزاق، هذا اليوم الذي وعدَني به جدّي وهو إليَّ مشتاق، ثم أغمِيَ عليه»، ماذا يعني يومُ التناد؟ التنادُ من المناداة، أي أنّ هذا يومُ الكلامِ مع الله. «فعند ذلك جلسَت خلفَه، وأجلسَتْه حاضنةً له بصدرها، فالتفتَ الحسين عليه السلام، وقال: أختيّة زينب، كسرتِ قلبي وزدتِني كربًا فوقَ كربي، فبالله عليك! إلا ما سَكَنْتِ وسَكَتِّ»[2].

---

(١) «... وما تقرَّب إليّ عبدٌ بشيء أحبَّ إليّ مما افترضْتُ عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إنْ دعاني أجبْتُه وإن سألَني أعطيْتُه»، الكافي، ج٢ ص٣٥٢.

(٢) معالي السبطين، ج٢ ص٤٠.

في لحظاته الأخيرة، صار الحسين عليه السلام يتكلّمُ مع الله عزّ وجل: «اللّهم مُتعالي المكان، عظيمُ الجبروت، شديدُ المحال، غنيٌّ عن الخلائق، عريضُ الكبرياء، قادرٌ على ما تشاء، قريبُ الرحمة، صادقُ الوعد، سابغُ النعمة، حَسَنُ البلاء، قريبٌ إذا دُعِيت... أدعوك مُحتاجًا وأرغَبُ إليك فقيرًا وأفزعُ إليك خائفًا وأبكي إليك مكروبًا وأستَعينُ بك ضعيفًا وأتوكّل عليك كافيًا خائفًا، إحكمْ بيننا وبين قومِنا فإنّهم غرّونا وخدعونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا»[1]، كان الإمام الحسين عليه السلام يتكلّم مع الله عزّ وجلّ، فهل فكّرنا يومًا بهذا الكلام؟ وهل عرَفنا كيف التقى الحسين بن عليّ عليهما السلام بربّه في تلكِ اللحظات؟ وقد ورد في إحدى الروايات أنّ الله تعالى قال عند استشهادِ الإمام الحسين عليه السلام: «على الدنيا بعدَكَ العفا».

لنطلبْ من الله عزّ وجل بإخلاصٍ أن نكون من محبّي وموالي محمّد وآل محمد ومبغضي أعدائهم حتى تنالَنا رحمتُهم لحظةَ موتنا، أوَليس أبو عبد الله الحسين عليه السلام رحمةَ الله الواسعة؟ نناديه من أعماقِ قلوبنا: يا رحمةَ اللهِ الواسعة، إرحمْنا فليسَ لنا ملجأٌ ولا ملاذٌ نلوذُ به إلا أنت.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) إقبال الأعمال، ج٣ ص ٣٠٥

الموالي بين الوهم والخيال

قال سيّد الشهداء عليه السلام: «إلهي ما أَقْرَبَكَ مِنّي وَأَبْعَدَنِي عَنْكَ وَما أَرْأَفَكَ بِي فَما الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ؟». هناك شرطٌ أساسيٌّ ينبغي على الإنسانِ أن يُحرِزَه حتى يستطيعَ تلقّي المعارفَ والحقائقَ وفهمَها، إذ عليه أن يتخلّصَ من أحدِ أخطرِ الحجُبِ التي تمنعُه من المعرفة، وهو حجابُ الخيالِ والوهم. فإذا ما نظرَ الإنسانُ عن كثب، سيرى أنّ ما يحكمُه في معظمِ جوانبِ حياتِه وما يسيطرُ على جلِّ علاقاته، وعلى رأسِها العلاقةُ بالله تعالى وأهلِ البيت عليهم السلام، هو الخيالُ والوهمُ لا العقل. فعلى الإنسان أن يُطهِّرَ خيالَه حتى يرى الحقيقةَ ويصدّقَها. ومن المفيدِ هنا التحدّثُ عن حقيقةِ قوةِ الخيالِ وبعضِ العواملِ الأساسيّةِ التي تُولّدُ الخيالاتِ عند الإنسانِ وتشوّشُ ذهنَه، وبالنتيجةِ تحولُ بينه وبين تلقّي الحقائق.

إنّنا وبشكلٍ متواصلٍ على ارتباطٍ بقوّةِ الخيال، فإذا أردْنا المُباشرةَ بأيّ فعل، كالنومِ أو الدراسةِ أو العمل، فإنّ الباعثَ لذلك هو قوّةُ الخيالِ لأنَّ جزئيّاتِ الأمورِ مرتبطةٌ بها لا بالعقل. فالعقلُ هو القوّةُ المُدرِكةُ للكلياتِ بينما يكونُ دورُه غيرَ مباشرٍ في ما يتعلّقُ بالجزئيات. فقوّةُ الخيالِ واسطةٌ بينَ نشأةِ المادةِ وعالمِ العقل. ولكن للأسف، فإنَّ عمومَ النّاسِ، قبل أن يجعلوا قوةَ الخيالِ واسطةً للإدراكاتِ العقلية، يستفيدون من وهميّاتِ قوّةِ الوهم.

إنّ أوّلَ سببٍ لتولّدِ الخيالات والأوهامِ المضرّةِ من جهة، وتحجيمِ الخيالات الحميدةِ من جهة أخرى، هو التربيةُ التي نشأ عليها الإنسان حتى أصبحَتْ بمثابةِ البرمجةِ التي تبرمَجَ عليها، إذا صحَّ التعبير. ففضلًا عن تهيئةِ الأرضيّةِ لخلقِ الخيالاتِ السيّئة، تربّى الإنسانُ على مفاهيمِ خاطئة، فرسَخَتْ في خيالِه بنحوٍ خاطئ. وعلى سبيلِ المثال، إذا دعَيْتَ مجموعةً من الناسِ إلى تصوُّرِ بطلٍ ما في خيالهم، فإنّ معظمَهم، إنْ لم يكن كلّهم، سيتصوّرون شخصًا ذا هيكلٍ جسديّ قوي، في حين أنّ مفهومَ البطلِ أوسعُ وأعمُّ من هذا بكثير، إذ قد يكون هناك مَن هو بطلٌ بالكتابةِ أو بالرّسم أو بفهمِ الحقائق... ولكنّ التخيّلَ الذي تربّينا عليه، حتَّمَ علينا حدَّ المفاهيم والحقائق، سواءً العقائدية أو المعنويّة أو غيرهما، وحصْرَها بإطار ضيّق. وعلى سبيل المثال، هناك رواية تدعونا إلى توسيعِ خيالِنا في ما يتعلّقُ بحقائق الوجود، فقد ورد عن جابر بن يزيد قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فقال: «يا جابر، تأويلُ ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلقَ وهذا العالمَ وأسكَنَ أهلَ الجنّة الجنّةَ وأهلَ النارِ النارَ، جدّدَ الله عزّ وجلّ عالمًا غير هذا العالم وجدّدَ عالمًا من غير فحولةٍ ولا إناثٍ يعبدونه ويوحّدونه، وخلقَ لهم أرضًا غيرَ هذه الأرض تحمِلُهم وسماءً غير هذه السماء تُظلّهم، لعلّك ترى أنّ الله عزّ وجل إنّما خلقَ هذا العالمَ الواحد، وترى أنّ الله عزّ وجل لم يخلقْ بشرًا غيركم، بل والله لقد خلقَ الله تبارك وتعالى ألفَ ألفَ عالَم وألفَ ألفَ آدمٍ أنتَ في آخرِ تلك العوالم وأولئك الآدميين»[1]. فالإنسانُ يتصوّرُ أنّ العالم سيفنى ويزول ولن يخلقَ الله خلقًا جديدًا من بعده، وهذا ما يصبُّ في إطارِ تقييدِ الأسماءِ والصّفات الإلهية والحدِّ منها، علمًا أنّها

(١) الخصال، ج١ ص٦٥٢.

مطلقة. فكلُّ إنسانٍ يُشكّل صورةً للأسماء والصفات الإلهية، بحسب خيالِه لا عقله، كمفهومِ الرّازقيّةِ والخالقيّةِ والإحياءِ والإماتة... وهذا الأمرُ يسري أيضًا على مفهومِ التوحيدِ والوحي والنبوّة والولاية والرسالة والمبدأ والمعاد، فالاعتقادُ المُتَخَيَّلُ أنّ الله واحد، على سبيلِ المثال، ليس هو التوحيد أو كمال التوحيد.

وبسببِ خيالاتِ الإنسانِ وأوهامِه، فإنّ أيّ حدثٍ قد يقع يكون داعيًا لتصوّراتٍ مبنيّةٍ على مقدّماتٍ خياليّةٍ لا أساسَ لها من الصحّة. وللخيالِ والوهمِ آثارٌ غاية في الخطورة، حيث أنّهما من أسبابِ تشوّشِ الإنسانِ وعدمِ صفاءِ ذهنِه ونيّته، وهذا ما يحول بينه وبين استجابةِ دعائه، إذ تشكّلُ هذه العواملُ مجتمعةً جدارًا يمنعُ الدعاءَ من إيجادِ سبيلِه صعودًا إلى الملأ الأعلى. وممّا يُسهمُ في تغذيةِ الخيالِ والوهم: الهوى وطولُ الأمل، حيث يتخيّلُ الإنسانُ الأمورَ بحسب هواه وتُسَوّلُ له آمالُه تصوُّرَ وقائعَ وحقائقَ غيرَ صحيحةٍ وبعيدةً عن الواقعِ الحقيقي. وحين يتغلّبُ الخيالُ على عقلِ الإنسانِ، يمنعُهُ من الاستفادةِ من أيّ مجلسٍ أو محفلٍ للعلمِ أو للذكرِ أو للعزاء، إذ إنّ كلَّ الصُّورِ التي يُنتجُها في ذهنِه لا تكون إلا صورًا شيطانية، في حين أنّ العقلَ إذا حكَم، يُلقي اللهُ في الذهنِ صورًا ملكوتية وفي القلبِ نورًا يفهم من خلاله الإنسانُ كلامَ الله تعالى وروايات أهلِ البيت عليهم السلام. «فالفرقُ بين الواراداتِ الروحانية والملكية والجنّيّة والشيطانية يتعلّقُ بميزانِ السالكِ المكاشَفِ (فبحسب مقامِه، يُلقى عليه من سنخه)... وهو أنّ كلَّ ما يكون سببًا للخير بحيث يكون مأمونَ الغائلة (من الخوف) في العاقبةِ ولا يكون سريعَ الانتقالِ إلى غيرِه ويحصلُ بعدَه توجّهٌ تامٌّ إلى الحقّ ولذةٌ عظيمةٌ مُرغِّبةٌ في العبادةِ فهو مَلَكيٌّ أو رحماني، وبالعكس شيطاني»... أمّا ما يتعلّق بالأمور الدنيوية، «مثل إحضارِ الشيء الخارجي الغائبِ عن

المكاشَفِ في الحال كإحضارِ الفواكه الصيفية في الشتاء، مثلًا، والإخبارِ عن قدومِ زيد غدًا، وأمثال ذلك مما هو غير معتبَرٍ عند أهل الله فهي جنّي، وطيٌ المكان والزمان والنفوذِ في الجدران من غيرِ الانثلامِ والانشقاق أيضًا من خواصِّهم وخواصُّ الملائكة التي هي أعلى مرتبة منهم. فإنْ كان للكُمّل منها شيء (من طيّ الزمان والمكان) فمعاوَنَةٌ منهم ومن مقامِهم (أي الملائكة). وإن لم يتعلّقْ بها (الأمور الدنيوية) أو يتعلّقْ بالآخرة أو كان من قبيلِ الاطلاع بالضمائرِ والخواطرِ فهو مَلَكيّ لأنّ الجنّ لا يقدرُ على ذلك. وإنْ كان بحيثُ يُعطى المكاشَفُ قوةَ التصرّفِ في المُلكِ والملكوتِ كالإحياءِ والإماتةِ والإخراجِ لمَن هو في البرازخِ محبوسٌ (من أهلِ العصيان) وإدخالِ مَن يريدُ في العوالمِ الملكوتيّةِ من المريدين الطالبين فهو رحمانيٌّ لأنَّ أمثالَ هذه التصرفات من خواصِّ المرتبةِ الإلهيةِ القائمِ فيها وبها الكُمَّل والأقطاب».

وتُعتبر أعضاءُ الإنسانِ من العواملِ التي قد تكونُ مساعِدةً على إنتاجِ الخيالاتِ الفاسدة، ومن أبرزِ الأعضاءِ التي تُسْهِمُ في إفسادِ باطنِ الإنسانِ وتلويثِ خيالِه هو اللّسان، إذْ ما من كلمةٍ تصدرُ من فمِ الإنسان إلا ويراها في عالمِ المنامِ على شكلِ أفعى أو عقربٍ أو وزَغٍ أو وردةٍ أو سماءٍ أو بحرٍ أو إمامٍ أو عالمٍ أو قرآن...

وإنّ من الأسباب التي تغذّي الخيالَ أيضًا التفكيرَ والظنَّ السّيءَ باللهِ وبأهلِ البيت وبالناس. فبناءً على أحاسيسَ وهميّةٍ لا تمتُّ إلى الواقعِ بصلة، تُحِبُّ اليومَ فلانًا أو فلانة، وغدًا تكنّ له أو لها العداوة والبغضاء. وحين يقع خلافٌ بين زوجَين أو أخوَين أو صديقَين، فمَردّ ذلك إلى أنّ أحدهما أو كلاهما حكَّم وهمه ولم يحكِّم عقله. ولو حَكَم العقل، لمَا

اختلف الإنسانُ مع أحدٍ في حياته، إذ كما وردَ أنّ العقل هو «ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان»[1].

لذا، عليك أن تلجِم خيالَك وتمنعَه من أن يفتكَ بالنّاس ويهتكَ حرماتهم، إذ إنه في النهايةِ سيفتكُ هذا الخيالُ بصاحبِه إذا ما خلّى لجامَه. وقد يصلُ الخيالُ والوهمُ بالإنسانِ إلى أن يُبعِداه عن إمامِ زمانِه حين يظهر، حيث يجعلانه يفسّرُ ما يقولُه الإمامُ ويفعلُه بحسبِ أهوائِه وهواجسِه، ما قد يدفعُه ليسَ إلى الرحيلِ عنه فحسب، بل إلى رفعِ سيفِه عليه أيضًا.

ومن هنا، وجَبَ على الإنسانِ تحقيقُ الطهارةِ الباطنيةِ المتمثّلةِ بطهارةِ الخيالِ من الاعتقاداتِ الفاسدةِ والتخيّلاتِ الرديئةِ والجَوَلانِ في ميدانِ الآمالِ والأماكن، ووجَبَ عليه تطهيرُ خيالِه، خصوصًا، من سوءِ الظنِّ بالموالين الذين ينبغي حملُهم على محملِ حَسَن. وكلّما كانتْ قوةُ الخيالِ أكثرَ طهارة، كلّما كانَت الصّورُ الملكوتيّةُ والمكاشفاتُ التي قد يحصلُ عليها الإنسانُ أكثرَ صفاءً، أمّا إذا كانَت هذه القوةُ غيرَ طاهرة، فستنعكسُ تلك المعارفُ والحقائقُ على غيرِ ما رأتْه النفسُ في مقامِ العقلِ والروح.

إذًا، على الإنسانِ أن يُحسِنَ الظنَّ بالنّاس، وأن يرى محاسنَهم قبلَ مساوئِهم في حين أنّ عليه أنْ ينظرَ إلى مساوئِه قبل أن ينظرَ إلى محاسِنه وأن لا يُعجَبَ بأعمالِه مطلقًا بل يضَعَها دائمًا في خانةِ التقصير، وبدلًا من أن يبحثَ عن عيوبِ الآخرين عليه أن يبحثَ عن عيوبِ نفسِه ويتعرّفَ على نقائصِها. ومن الدلالاتِ على عدمِ تحقيقِ طهارةِ الخيالِ أنْ يطلبَ الإنسانُ مَثَلًا يساعدُه على الفهمِ إذا ما سمع مطلبًا مرتبطًا بالتوحيدِ أو الحقائقِ الولائية، فطلبُه للمَثَل يدلّ على أنّه ما يزالُ يعيشُ إلى الآن بقوّةِ الخيالِ ولم

(١) الكافي، ج١ ص١١.

يصلُ إلى العقلِ بعد، إذ إنّ العقلَ يرى الوحدةَ والبساطةَ ولا يحتاجُ إلى المثالِ. وأيضًا، متى ما ظلَّ الإنسانُ عاجزًا عن معرفةِ ما هو كامنٌ في بواطنِ الناس، يكن معلومًا حينها أنّه إلى الآن لم يُطهِّرْ قوّةَ خيالِه، فالأولياءُ يعرفون أنّ باطنَ هذا فاسدٌ ولو كان ممّن يصلّي في جوفِ الليل وأنّ باطنَ ذاكَ طاهرٌ ولو كان ممّن يشربُ الخمر. ويُنقَل أنّ المرحوم السيد مهدي بحر العلوم قد طهّرَ خيالَه بعدَ أربعٍ وثلاثين سنة، وبعد ذلك صلّى ركعتَي شكرٍ وقال: «إلهي، أشكرُكَ لأنّي استطعْتُ أن أطهّرَ قوةَ خيالي بهذه السرعة». ويقال إنّ المرحوم الملا حسين قلّي الهمداني طهّرَها بعد أربع وعشرين سنة من المشقّة وبذلِ الجهد.

ومن السُّبُلِ التي تساعدُ على تطهيرِ الخيالِ هو أن تُحوِّلَ كلَّ ما تسمعُه وتعرفُه إلى خيرٍ في باطنِك وتتفاءلَ به حتى ولو كان شرًا في الأصلِ، وحتى لو صدَرَ من أقربِ المقرّبينَ منك، ولْتكُنْ مصداقًا للحديث القدسيّ: «أنا عند ظنِّ عبدي المؤمنِ بي إنْ خيرًا فخيرًا وإنْ شرًا فشرًا»[1]. ولكن هذا كلُّه لا ينفعُ ما لم يتمَّ التوسّلُ بالسيدة فاطمة سلام الله عليها، فحتى يتمكّنَ الإنسانُ من تطهيرِ خيالِه، عليه أن يتّصلَ بها عليها السلام، إذ إنّ ولايتَها مُطهِّرةٌ من كلِّ دَنَس، حيث وردَ في زيارتِها: «لنبشِّرَ أنفسَنا بأنّا قد طَهُرنا بولايتك»[2]. فالحقيقةُ لا يمسُّها إلا المطهّرون، وغيرُ الطّاهرِ يُطردُ من المحضرِ مباشرةً.

وإنّ أعظَمَ سبيلٍ لهذا الطّهور البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام وزيارته، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «... وإنه ليرى من يبكي عليه فيستغفر له ويسأل جدّه وأباه وأمه وأخاه أن يستغفروا للباكين على مصابه والمقيمين عزاءه ويقول لو يعلم زائري والباكي عليّ ما له من أجر عند الله تعالى لكان

(١) الكافي، ج٢ ص٧٢.

(٢) زيارة السيدة فاطمة عليها السلام يوم الأحد، مفاتيح الجنان.

فرحه أكثر من جزعه وأن زائري والباكي عليّ لينقلب إلى أهله مسرورًا وما يقوم من مجلسه إلا وما عليه ذنب وصار كيوم ولدته أمه»[١]، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاءَ عليه يَحُطّ الذنوبَ العظام»[٢]، وعنه عليه السلام أنه قال: «يا ابن شبيب، إنْ سرّكَ أن تلقى اللهَ عزّ وجلّ ولا ذنبَ عليك، فزُر الحسين عليه السلام»[٣]، فعلى مثل الحسين عليه السلام فلبيكِ الباكون ولمثله فلتُذرَف الدّموع ويضجّ الضاجّون ويعجّ العاجّون.

وصلّى الله على محمّد وآل محمّد الطيّبين الطاهرين.

(١) المنتخب، ص٣٩.
(٢) أمالي الصدوق، ص١٩٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٠ ص٣٩٣.

یا اباعبدالله الحسین

الفهرس

إهداء ٥

مقدّمة الكتاب ٧

البسملةُ وعليٌّ سِرُّ نقطةِ بائِها ٢٥

محمّد ﷺ صلاةٌ وصلةٌ ووصال ٣٩

ولاية عليٍّ ولاية الله ٥١

ذكرُ عليٍّ وحبّه عبادة ٦٧

فاطمة برزخ النبوّة والولاية ٨١

غربة إمام الزمان عليه السلام ٩١

محمّد وآل محمّد مبدأُ ظهورِ الأسماءِ والصفاتِ وغايته ٩٧

الدين المستقرّ والمستودع ١١٣

العصمة بالاعتصام بالولاية ١٢١

ذِكْرُنا ذكرُ الله ١٢٩

وجوب الوصيّة، ومعنى العديلة ١٣٩

البلاء للتمحيص والولاء ١٥١

النوم أخو الموت ١٦٧
الموت للموالي حياة ١٧٥
الموالي بين الوهم والخيال ١٨٣